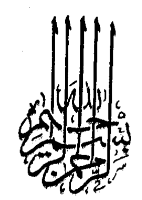
أنور الجندي

المؤامرة على الإسلام

دار الاعتصام



دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى - ت: ٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص ب ٤٧٠ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

مدخـــل الى البحـــث

إن من أخطر التحديات التى تواجه الإسلام فى العصر الحديث ابتعاث الفكر الوثنى والغنوصى القديم الذى كان معروفاً قبل ظهور الإسلام فىالبيئات الشرقية والغربية على السواء ، والذى تشكل فى صورة جامعة من بعد فى الأفلاطونية الحديثة وهو الفكر البشرى الذى ظهر باسم الغنوصية فى الشرق وباسم الفلسفة اليونانية فى الغرب .

هذا الفكر الذى يجمع بين الوثنية والإلحاد والتعدد والإشراق والمادية ،

والذى عرفه العرب والمسلمون بعد ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وظهر أثره فى الفلسفة وعلم الكلام والتصوف والدعوات الباطنية المتجددة عن المجوسية وغيرها . ولقد كان هذا الفكر البشرى الفلسفى القائم على نظريتين أساسيتين :

١ — نظرية العقل والحس فى الفكر اليونانى الهلينى .

٢ — نظرية الحدس والإشراق فى الفكر الغنوصى الشرقى .

وقد قامت بعد ترجمة الفلسفات معركة ضارية فى مواجهة النظريات والأفكار والشبهات التى طرحتها الفلسفات الوافدة فى أفق الفكر الإسلامى انتهت بهزيمة الفلسفة والاعتزال والتصوف الفلسفى والفكر الباطنى وتألقت الأصالة الإسلامية التى تتمثل فى مفهوم أهل السنة والجماعة . هذا المفهوم الذى استطاع استيعاب الإيجابيات المستمدة من مفهوم التوحيد فى مختلف هذه الدعوات ، كما استطاع نفى وإسقاط السلبيات التى تتنافى مع جوهر الإسلام وعقيدته السمحة . وبذلك أخذ الفكر الإسلامى من جديد طابعه الأصيل المستمد من جوهره الأول ومنابعه الأساسية .

وذلك بعد أن امتدت هذه المعركة قرنين من الزمان وشارك فى تصحيح مفاهيمها وتحريرها من الزيف والشبهات والأخطاء والتحديات عدد كبير من أعلام الفكر الإسلامى فى مقدمتهم : الأئمة الشافعى وأحمد بن حنبل والأشعرى وابن حزم والغزالى وابن تيمية وابن القيم ، هذه القضية يمكن أن نطلق عليها مؤامرة (احتواء الإسلام) .

واليوم تحاول حركة التغريب والغزو الثقافى إثارة هذه المعركة على نحو أشد عنفاً وفتح باب الفتنة من جديد ، فى محاولة لطرح هذه الشبهات والسموم التى سبق النظر فيها ودحضها والرد عليها مرة أخرى فى أفق الفكر الإسلامى وبأسلوب عصرى ، وفى أغلفة من الفكر الغربى الحديث، وفى أطر من أساليب التفسير المادى للتاريخ ، وفى تصور خادع يستل حلقات ونقطاً ومواقف من بين أحشاء هذه المعركة فى محاولة لتصوير هذه الحلقات على أنها صور مستقلة يمكن عرضها والنظر فيها بذاتها بصرف النظر عن عصرها وارتباطاتها بالمشكلة كلها التى تعددت جوانبها وتشعبت فروعها .

ومن ذلك مثلا ما يثار اليوم حول (الاعتزال) ومحاولة تصويره على أنه منهج إسلامى للفكر يمكن اقتطاعه عن قضية احتواء الإسلام بكل أبعادها ، وعرضه على أنه منهج عقلانى يتفق مع روح العصر ويصلح لأن يكون منطلقاً لتبرير الحضارة الحديثة وأوضاع المجتمعات البشرية اليوم .

والواقع أن هذا التصور ليس سليما ولا صحيحاً . ذلك لأن الاعتزال لا يمثل الإسلام بنظرته الجامعة المتكاملة التى تربط بين العقل والوجدان فضلا عن أن الاعتزال نفسه لم يكن فى داخل قضية (احتواء الإسلام) إلا خيطاً من خيوط كثيرة متشابكة ، وأنه عجز فى إبان استعلائه عن أن يكون تعبيراً صادقاً ، بل لقد كان استعلاؤه خطراً أحدث أسوأ الأثر فى مصادرة الرأى والنأى عن الحق .

كذلك فإن ما تحاول حركة التغريب إثارته من إعادة كتابة تاريخ القرامطة والزنج وغيرهم من الحركات الضالة وتصويرها على أنها ثورات عدل وحرية ، هو من تلك المحاولات الماكرة التى يراد بها إلقاء هذه السموم فى أفق الفكر الإسلامى الحديث مرة أخرى ، كذلك فإن ما تحاول بعض

الجهات من إعادة نشر كتب التصوف الفلسفى وأخبار الحلاج وابن عربى وطبع كتب وحدة الوجود والحلول والاتحاد هو واحد من هذه المحاولات فى ذلك الاتجاه الخطير .

وتتعدد المحاولات اليوم فى هذا الاتجاه بحيث تخلق صورة جديدة لاحتواء الإسلام أو المؤامرة عليه تتمثل فى تجديد صفحات هذا الركام المضطرب الذى عجز عن تحقيق شىء ما فى الماضى وسيكون اليوم أعجز عن أن يحقق شيئاً إلا إثارة الشبهات فى نفوس الأجيال الجديدة التى هى بطبيعة ثقافتها وتعليمها عاجزة عن أن تعرف أبعاد المؤامرة المراد فرضها عليها أو تتبين الخلفية التى تختفى من ورائها المؤامرة .

ذلك لأن الحديث عن الاعتزال والتصوف والفلسفة ، هو فى مفهوم الإسلام حديث يتكامل مع مختلف وحدات الفكر الإسلامى ، وحيث لايكون حين يستقل بنفسه ممثلا للإسلام الجامع ، وأن كل وحدة من هذه الوحدات لا تفهم فهماً صحيحاً إلا فى إطار التكامل ، ولا تؤدى دورها إلا بالارتباط فى توازن ومواءمة مع الوحدات الأخرى ، وأن النظرة العقلية ، أو النظرة الروحية ، لا تستطيع وحدها أن تقدم تصوراً إسلامياً صحيحاً وأن كل هذه الوحدات لا بد أن تتلاقى فى تكامل لتمثل منظوراً جامعاً متكاملا للإسلام يضم العقل والروح ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة .

وإذا كنا نجد اليوم من يحاول أن يتصور أن التراث الإسلامى يمكن تجزئته وأن خير ما فيه هو عقلانية المعتزلة ، فإن ذلك يختلف مع النظرة الإسلامية الجامعة التى لا ترى هذا الرأى .

وفى نفس الوقت لا ترى استعلاء الدعوة إلى روحانية التصوف كمنطلق إلى مفهوم الإسلام وأن هذه المحاولات التى تعلى من شأن هذا الجانب أو ذاك ليست سليمة ولا صحيحة وأن محاولات زكى نجيب محمود بتحسين كتابات الاعتزال وابن الراوندى ، أو كتابات عبد الرحمن بدوى بإعلاء التصوف الفلسفى والحلول والاتحاد ، أو كتابات محمود إسماعيل بإعلاء حركات القرامطة والزنج أو اتجاه الدكتور محمود الشنيطى إلى إحياء ابن عربى ، أو طه حسين إلى إحياء إخوان الصفا أو ماسينون وصلاح عبد الصبور إلى إحياء

الحلاج أو عباس صالح وعبد الرحمن الشرقاوى وطه حسين إلى تفسير تاريخ إحياء الإسلام تفسيراً ماركسياً أو مادياً كل هذه المحاولات تدخل فى نطاق المؤامرة على الإسلام وإعادة محاولة (احتواء الإسلام) الأولى .
كذلك فإن الدعوات القاديانية والبهائية والروحية الحديثة هي أيضاً محاولات جديدة على نفس الطريق .

* * *

(٢)

أهداف المؤامـرة على الإســلام

لا ريب أن الهدف من المؤامرة على الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى هو نفس هدف محاولة احتواء الإسلام فى القرن الرابع الهجرى : النيل من الإسلام وإسقاط دولته وإذابته فى أتون الأممية ، ونجد اليوم من وراء المحاولة الجديدة قوى خطيرة أبرزها (الاستعمار الغربى) الذى يحمل خصومة الدين ومطمع السيطرة الاقتصادية ، والذى يضمر فى أعماقه كراهية ضخمة للإسلام الذى غزا أوربا تحت لواء الدولة العثمانية . (والصهيونية) الطامعة فى العودة إلى السيطرة على فلسطين وبيت المقدس باسم الوعد الذى زيفته التوراة و (الشيوعية) التى تحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الأديان وهدم الأخلاق ، هذه القوى الثلاث الكبرى .

أما تلك الفرق والدعوات والمذاهب القديمة فإنها قد ماتت منذ وقت بعيد ، ولكن انبعاثها وإحياءها هو هدف يرمى إلى تمزيق جبهة الإسلام حتى يحال بينها وبين الوحدة الشاملة القادرة على مواجهة الغزو الخارجى . وإقامة دولة الإسلام بالحق فى أرض الله .

وهى واحدة من سلسلة المؤامرة المتصلة على الإسلام عن طريق خصومه وفى مقدمتهم اليهودية التلمودية ، التى تستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية على أرض الإسلام وأهله ، وهى تحقيق للغرض الذى دعا إليه لويس التاسع بهزيمة المسلمين فى فكرهم ودينهم وعقائدهم قبل هزيمتهم فى أرضهم وبلادهم .

إن هدف المؤامرة هو إحياء الفكر البشرى القديم قبل الإسلام ، والمتجدد إبان حملة الترجمة مرة أخرى فى قوالب جديدة وأساليب عصرية لنفس الهدف : لنفس الغاية ، غاية الهدم والهزيمة والتمزيق لجبهة الإسلام التى لم يبق على وجه الأرض غيرها فى طريق التوحيد الصحيح.

وتحاول حركة المؤامرة على الإسلام اليوم أن تتبع نفس الأساليب القديمة ، فهى تهاجم أصول القيم الإسلامية وجذور المفاهيم الأساسية ، وتهاجم تاريخ الإسلام واللغة العربية وتدعو إلى تفسيخ القيم الأخلاقية الإسلامية بالدعوة إلى إذاعة المجون والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى ، وهو نفس الأسلوب الذى اتخذته حركة احتواء الإسلام ، كان ذلك فى الماضى لحساب المجوسية الفارسية وتمكين القرامطة والباطنية من السيطرة على الدولة الإسلامية واليوم يجرى نفس المخطط لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية .

وكما كان أخطر سلاح فى الحركة القديمة هو وضع الكتب الزائفة المليئة بالمغالطات والأباطيل والانحراف فى ثوب براق ، وتزييف كتب التاريخ حتى يجهل أبناء الأمة الإسلامية أمجادهم وبطولاتهم وكذلك إعداد طبقة من أتباعهم الحاقدين وتزويدهم بالمعلومات العامة من شتى المعارف والفنون دون أن يتعمقوا فيها حيث تؤدى بهم هذه التربية الناقصة إلى الغرور والقدرة على الجدل والمراوغة والانتقال من موضوع إلى موضوع مبالغة فى خداع الناس وإيهامهم بالعلم الفياض فإن الحركة الجديدة تتبع نفس الأسلوب .

وهذا الذى يصف به السيد أبو الحسن الندوى حركة احتواء الإسلام القديمة نجده واضحاً تماماً فى محاولة المؤامرة على الإسلام الجديدة ونجد أسماء بعينها تقوم على هذا المخطط يمكن حصرهم وتسميتهم ، على نحو أبو نواس وبشار وحماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان فى الشعر وابن الراوندى والحلاج والسهروردى وابن عربى والرازى ، ونجد تماماً عصبة الزنادقة وعصبة المجان ودعاة الانحلال الاجتماعى ، ومهاجمة القيم الأخلاقية ، ونجد أمثال حماد الذى هاجم أهل التقوى والورع فسبهم بأقذع ألوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم مستهدفاً نشر الفساد بين أبناء المجتمع وتجرىء الشباب على السخرية من أهل العلم والخلق كذلك نجد أمثال حماد عجرد الذى عرف بالتهتك واللسان البذىء ، وأمثال أبى نواس فى الترويج للشر وحث الناس عليه تحت ستار التظاهر بالعصرية والتقدم .

(٣)

بدأ (الاستشراق) هذا المخطط فى إحياء الفكر اليونانى والغنوصى كجزء من خطته فى إثارة الشبهات والسموم فى وجه الفكر الإسلامى فى العصر الحديث وكمحاولة لتمزيق جبهة هذا الفكر والحيلولة دون التقاء المسلمين على وحدة الفكر الجامعة التى وصل إليها الفكر الإسلامى ، بعد مؤامرة الاحتواء التى قام بها الفكر الباطنى والفارسى والمجوسى إبان حركة الترجمة . إن هدف الاستشراق هو تمزيق جبهة الوحدة الفكرية الإسلامية الجامعة . والمعروف أن هذه المذاهب والفرق قد تلاشت وانتهت منذ وقت بعيد ، ولم يبق من وجوه الخلاف إلا ما يعرف بالخلاف فى الفروع بين السنة والشيعة . وإن كان هذا الخلاف أيضاً مستحدثاً قد عمل الاستعمار والقوى الغربية على تعميقه بإثارة الصراع بين الدولة الصفوية الفارسية والدولة التركية العثمانية منذ القرن التاسع الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ولا ريب أن خطة إحياء الفكر المعتزلى والصوفى والفلسفى والباطنى وتجديده وإثارة قضاياه التى قام بها الاستشراق كانت بهدف التأثير على صميم فكرة التوحيد الأساسية التى هى عقيدة المسلمين جميعاً بعد أن صفيت مختلف القوى التى كانت تحمل اسم الاعتزال أو التصوف الفلسفى أو الفلسفة وانصهرت فى مفهوم الأصالة السنى الجامع ، ولا ريب أن محاولة إحياء هذه القضايا بشبهاتها وشكوكها ووجهات نظرها المستمدة من الفكر الفارسى الغنوصى القديم ، أو الفكر اليونانى الهلينى أو الفكر الهلستينى المتمثل فى الأفلاطونية الحديثة ، كل هذا لا يراد به إلا طرح هذه الشبهات والشكوك والسموم مرة أخرى فى أفق الفكر الإسلامى ، فتنقسم الآراء حوله ، وبذلك يبعد المسلمون عن وحدة فكرهم الجامعة المتكاملة ، ويعودون مرة أخرى إلى صراع الفرد ، فضلا عما يؤديه طرح هذه المفاهيم من إفساد لجوهر الإسلام نفسه .

ويجرى مع هذا الاتجاه القول المضلل بأن مفهوم السنة والجماعة ليس إلا واحداً من جملة مفاهيم يمثلها الإسلام ، مفهوم الاعتزال ، والفلسفة ، والتصوف ، والباطنية ، مع أن هذا ليس صحيحاً ، فلم تكن هذه الفرق بمثابة فرق متصارعة مع المفهوم الجامع ، ولكنها كانت وسيلة إليه ، وعندما قام هذا

المفهوم كانت قد سقطت كل هذه الفرق تماماً ، فقد استطاع المفهوم الجامع أن يصهر فى داخله كل حسنات الفرق ، فجعل للإرادة الحرة أهميتها وهو خير ما فى الاعتزال ، وجعل النظرة المنطقية أسلوباً فى الفهم وهو خير ما فى الفلسفة وجعل الأخلاقية طابعاً أساسياً للقيم وهو خير ما فى التصوف ، وجعل حب آل البيت جزءاً من عقيدة الإيمان وهو خير ما فى الباطنية وهكذا .

ولذلك فإن من الزيف المسموم القول : بأن فى الإسلام عدة مفاهيم يحتملها جميعاً ، والواقع أن الإسلام مفهوم جامع متكامل ، والنظرة العقلية جزء منه والنظرة الوجدانية جزء منه ، وأن واحدة منهما لا تستطيع بحال أن تكون ممثلة للإسلام بمفردها . وأن فكرة العقلانية أو فكرة الوجدانية لا يمكن أن تتقدم منفصلة عن سياقها التاريخى وعن حركة المواجهة التى قام بها الفكر الإسلامى إزاء حركة احتواء الإسلام كلها التى قامت من بعد .

وقد وجدت المؤامرة على الإسلام مواجهة صحيحة وصريحة وقوية فى العصر الحديث كما حدث ذلك كلما تعرضت مفاهيم الإسلام لمحاولة الاحتواء والتزييف ، وعندما بدأت هذه الحركة فى القرن الثانى للهجرة وجدت معارضة بعيدة المدى كشفت زيفها وشبهاتها وأبانت عن أنها حركة معادية للإسلام ناشئة من وجهة أجنبية خارجة ضد الإسلام والعرب ، ترمى إلى هدم الدولة الإسلامية بهدم قيم الإسلام ومفاهيمه ، وقد تبين أن هناك معاهدات وعقوداً بين دولة الروم وبين هذه القوى ، كما تبين أن بين الحلاج والقرامطة معاهدة مكتوبة ، وكشف الباحثون عن أن الذين وضعوا أسس الباطنية والشعوبية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم . وقد أنكرت السنة التى حملت لواء الأصالة الإسلامية : التشبيه والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وثنية والمعطلين ملحدون ، كما حرص أهل السنة على تعقب الملحدين والكشف عنهم ، كذلك عارضت الأصالة الإسلامية إخضاع الإسلام للجدل العقلى ، ودعت إلى الأخذ من المعين الأول والمنبع الأصيل : القرآن والسنة ، ورفضت الهيآت أرسطو لأن مقدماتها ونتائجها كانت متعارضة أشد التعارض مع مفهوم التوحيد الخالص .

وقد وقف الشافعى والأشعرى والغزالى وابن تيمية بصدق أمام أطراف

المحاولة وكشفوا قضايا الفلاسفة وعلماء الكلام والمعتزلة والصوفية الفلسفية والباطنية وقرروا أن (منهاج السنة : الأصالة الإسلامية) ليس واحداً من هذه بل هو غيرها ، وعلينا اليوم أن نقف نفس الموقف وأن نحرر مفاهيم الإسلام من الإسرائيليات القديمة والجديدة ، ومن الوثنيات المتجددة التي يقومون على بعثها اليوم ، ولكي يكون منطلق الفهم واضحاً ، فإن علينا أن نفهم أساساً :

أولا : أن الإسلام فى كلمة هو كلمة التوحيد الذى يرتفع عن الوثنيات والتثنية والتعدد وعن الشرك جميعاً . وتختلف كلمة إسلام عن كلمة دين فى المعنى العام المتعارف ، فالإسلام دين من حيث أنه يرسم العلاقة بين الله والإنسان . وهو منهج حياة من حيث أنه يرسم أيضاً – وفى تكامل – العلاقة بين الفرد والمجتمع . وقد أوجد الإسلام صيغة من التكامل والتوازن والالتقاء بين الفردية والجماعة على نحو يحقق ذاتية الفرد وحريته وكرامته ، ويحقق فى نفس الوقت إيجابية المجتمع ودور الفرد فى بنائه ، وهو نظام متكامل فيه جذور كل الدعوات التى عرفها العصر من حرية وعدالة ومساواة وتكامل اجتماعى ، وله فى هذه القيم مفهومه الواضح السمح الخاص به .

ويسمح الإسلام بالاجتهاد فى التأويل على نحو لايتعدى أصوله العامة وقيمه الأساسية التى أقرها ، وكذلك يؤمن الإسلام بالثبات أصلا وبالحركة فى إطار الثبات ، ولا يقول الإسلام بالتطور المطلق .

ويفرق الإسلام بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو ما أثبتته التجارب الحسية والمعملية ثبوتاً قاطعاً ، وهذا يقره الإسلام ، أما الفلسفة فهى أمور نظرية يراها المفكرون فى بيئة من البيئات وعصر من العصور فهى ليست ثابتة ولا عامة ، كذلك يفرق الإسلام بين الثقافة والمعرفة ، فالمعرفة عامة كالعلم وهى ملك البشرية كلها أما الثقافة فهى خاصة وهى مرتبطة بمزاج الأمة ووجدانها وليست قابلة لأن تنقل من تربة إلى تربة .

ولقد كان الفكر الإسلامى مفتوحاً دوماً يقبل ما يرآه صالحاً من ثقافات وفكر الأمم فى الشرق والغرب ، ولكنه كان دوماً قادراً على امتلاك ذاتيته الخاصة وحريصاً على ألا يفسدها أى فكر زائف أو وافد .

ثانياً : إن الإسلام بمفهومه فى التوحيد الخالص قد أنشأ فكراً له طابعه الاستقلالى الكامل ومفاهيمه الواضحة الخالصة التى لا يمكن أن تختلط بمفاهيم الفلسفات ، وخاصة فيما يتصل بالوثنيات الإغريقية ومفاهيم الفلسفات الهندية والفارسية القديمة ، ولذلك رفض الإسلام العقلانية المطلقة ومفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ولقد خاض الإسلام معركة ضخمة فى مواجهة الفلسفة اليونانية والوثنيات المجوسية والفارسية والهندية ومواجهة ما دس عليه من إسرائيليات وقارن ذلك كله ببناء منهج متكامل مستمد من القرآن نفسه فى مجال تحقيق الحديث (البخارى ومسلم) وبناء الفقه (مالك والشافعى وأبو حنيفة وابن حنبل)

وفى تصحيح المفاهيم (ابن حزم والغزالى وابن تيمية) .

وقد خرج الفكر الإسلامى من هذه المعركة الضخمة بمفهوم أهل السنة ناصعاً صافياً مبرءاً من الوثنية ومفاهيم الفلسفات الهلينية والمجوسية .

وبعد . . فإن هذه المراجعة الواسعة تستطيع أن تعطى الباحث المسلم أرضية صلبة لمعرفة النصوص المختلفة وردها إلى التيارات المتعددة التى حاولت العقيدة الإسلامية فى حلقات التآمر المتصل على الإسلام خلال العصور ، وتكشف له كيف واجهتها الأصالة الإسلامية وردت زيفها وأبانت فساد منطلقاتها ، ثم كيف استطاعت الأصالة الإسلامية دائماً أن تلتمس جوهر العقيدة وأن تتمسك بأصولها وأن ترد كل زيف تجرى المحاولة إلى إضافته إليها .

ولقد كان من أبرز هذه المفاهيم أن كل قيم الفكر الإسلامى الأساسية قد تقررت قبل أن يختار صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى ، جامعة بين العقل والوجدان والدين والعلم والروح والمادة لا انفصال لأحدهما ولا استعلاء ، وأن هذه الأصول هى التى تقررت يوم أنزل على الرسول من ربه « اليوم أكملت لكم دينكم » فلم تتغير ولم تجر أى إضافة إليها من بعد ، وكل ما جاء من بعد فهو تفسير أو تفصيل وفق قاعدة الاجتهاد التى أقرها الإسلام لمواجهة تغير العصور والبيئات .

وللإسلام قانونه الذى لا يتخلف أبداً ، هو أنه يتجدد من داخله ويتحرر

من أعماقه ، فعندما تهب رياح الجمود أو الجبرية أو الانحراف لتحجب جوهر مفهومه فإنه يكون قادراً على التماس المنابع . ولقد كان لابن حزم والغزالى والأشعرى وابن تيمية وابن القيم مواقف مشهودة فى الكشف عن هذه الشبهات وتلك الاتهامات وتصحيح المفاهيم والتماس مفهوم الإسلام الأصيل .

واليوم نمر بنفس المعركة مرة أخرى ولكن فى شراسة الخصوم وعنفهم ، وقد تجددت قوى علماء الإسلام ومفكريه للرد على هذه الشبهات ومواجهتها والإدالة منها .

والله من وراء القصد .

* * *

الباب الأول

إحياء الفكر المعتزلى

الفصل الأول : الإسلام والاعتزال .

الفصل الثانى : الإسلام والعقلانية .



(١)

الفصل الأول

الإسلام والاعتزال

اهتم الاستشراق ودعاة التغريب والغزو الثقافى بالاعتزال والمعتزلة : ووصفهم المستشرقون وكتاب التغريب بأنهم أغارقة الإسلام الحقيقيون . أو المعتزلة العظام ، ونعى هؤلاء وهؤلاء على الخليفة المتوكل الذى أعاد السنة ووصفوا هذه العودة بأنها ردة عن حرية الفكر التى أقامها دعاة الاعتزال . وقال الأستاذ أحمد أمين أن المسلمين ضعفوا وتخلفوا لأنهم لم يأخذوا بأسلوب المعتزلة العقلانى وأطلق على جمال الدين ومحمد عبده المعتزلة الجدد ، وكتب عن هذا كثيرون وألف الدكتور ألبير نصرى نادر كتاباً عن المعتزلة فقال إن أبرز مفاهيمهم وجود العقل وقيام الأخلاق على العقل دون الوحى ، وقد أعلن المعتزلة سلطان العقل وأيدوه فى مختلف المسائل .

ولما كان الفكر الغربى هو الصورة التى يستمد منها المستشرقون ودعاة التغريب مثلهم الأعلى فهم يحاولون أن يجعلوا من الدعوة العقلانية مثلا وشبهاً بما جرى فى عصر النهضة حين جرى الفصل بين الدين والعلم واستعلاء شأن العقلانية واللادينية والعلمانية والمادية وغيرها ، غير ناظرين إلى الفوارق البعيدة بين التفسيرات الغربية للمسيحية التى حالت بين الغرب وبين اقتحام مجالات العلم والانحباس فى نصوص الجمود والرهبانية والتقليد والجبرية والفرق واضح تماماً بين ذلك وبين الإسلام الذى حمل منهج المعرفة الجامع المتكامل الذى يستمد طرائقه ومناهجه من جماع العقل والروح ، ويرى أن بينهما ترابطاً عضوياً لا سبيل إلى فصمه .

ولعل الاستشراق والتغريب يجدان فى الاعتزال والمعتزلة منهجاً وافداً له صلته بالفكر اليونانى ، فهم يعلون من شأنه لهذا الغرض ويرون مدى أثره

فى إفساد الفكر الإسلامى و بلبلة الآراء والحيلولة دون قيام الوحدة الجامعة فهم يجددونه ليكون له فى العصر الحديث نفس الأثر القديم .

ولا ريب أن فكرة الاعتزال جاءت أصلا من الفلسفات الهندية واليونانية والفكر الوثنى القديم ، وأنها حين حاولت فى أول الأمر أن تواجه المتكلمين فى الديانات السالفة للإسلام استطاعت أن تحقق نتائج طيبة ولكنها حين استقلت بنفسها وخرجت عن حدودها لتقيم لنفسها منهجاً عقلانياً خالصاً يستعلى على مفهوم الإسلام الجامع فإنها قد انحرفت انحرافاً شديداً وأخطأت خطأ بالغاً .

ولكن الفكر الإسلامى لم يلبث أن تجاوزها إلى منهجه الأصيل بما أعلنه الأشعرى حيث أدار أسلوب العقل فى دائرة الوحى .

وكان أخطر ما أحدثه المعتزلة هو الاتصال بالحكم وفرض مذهبهم الفكرى على الدولة . وبذلك دخلت المعتزلة تلك المرحلة الخطرة التى عرضت مئات العلماء والباحثين إلى الامتحان والعقوبة خلال حكم ثلاثة من الخلفاء هم المأمون والمعتصم والواثق ، وخلال ستة عشر عاماً كانت من أقسى أعوام مصادرة الرأى ، وكان ذلك فى أمر لا يدخل فى إطار الشريعة الإسلامية ولا فى الأصول العامة الإسلامية ولكن فى أمر محدث لم تعرفه السنة الصحيحة ومما دخل إلى الفكر اليونانى والوثنى القديم وكان موقف الإمام ابن حنبل فى ذلك الأمر غاية فى القوة فى معارضة هذا الرأى الخطر حتى انكشف فساده وعاد الأمر إلى الأصالة التى هى المذهب الجامع .

وكانت هذه هى نهاية المعتزلة : وهى نهاية مظلمة .

(٢)

ما هو خطأ المعتزلة فى مجال الفكر :

١ – اعتمدت المعتزلة العقل ولو خالف ظاهر النقل وبذلك خرجوا عن مفهوم السنة الأصيل .

(فلقد كان القرآن هو المصدر الأصيل يرجع إليه الباحثون وإلى السنة لا يصدرون عن غيره ولا يطمئنون إلى سواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب وهى بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء وإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور لله) .

غير أن المعتزلة خالفوا هذا المنهج وحكموا العقل فى كل شيء وجعلوه أساس بحثهم .

٢ — كذلك فإن انشغال المعتزلة بمنازلة خصومهم من الزنادقة والروافض والثنوية وغيرهم جعلهم يأخذون بطرق محاربتهم فى القتال وكانوا يعتدون بأسلحتهم . وهكذا فإنهم تأثروا بخصومهم وأخذوا عنهم بعض مناهجهم ، قال بنيرج : من نازل عدواً عظيما فى معركة فهو مربوط به مقيد بشروط القتال وتقلب أحواله . ويلزمه أن يلاحق عدوه فى حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله . وكذلك الأمر فى معركة الأفكار .

لقد مضى المعتزلة فى الاستدلال العقلى فإذا بدا خلاف فى ظاهر النصوص بين رأى يقرونه ورأى لا يقرونه أولوا النص بما لا يخرج من معناه ولا يخالف رأيهم . وأن هذه الطريقة أساسها الثقة بالعقل . وللعقل نزوات . ولذلك وقعوا فى كثير من الهنات دفعتهم إليها نزعتهم العقلية .

٣ — وقد وجد كثيرون من خصوم الإسلام فى المعتزلة عشاً يفرخون فيه بمفاسدهم وآرائهم ويطلقون من قنواته دسهم على الإسلام والمسلمين .

(٣)

ولعل أخطر مقولتهم : هى قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بها شرع . ويقول السيد أبو الحسن الندوى : أسرف المعتزلة فى تقدير سلطان العقل وحدود العلم الإنسانى وقد لاحظ الدكتور أحمد أمين وكان من المتصرين لهم — أن نقطة الضعف فيهم أنهم أسرفوا فى تمجيد العقل والإيمان بقوته واقتداره يقول : (رأى المعتزلة أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله « تعالى » فلا حدود للعقل إلا براهينه) .

والرأى : أن العقل أضعف من ذلك . وأن استطاعته محدودة بإدراك ما يتعلق بشأنه هو ، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة العامة ونبوة محمد خاصة . ولم يمنح القدرة على معرفة كنه الله تعالى وصفاته .

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، أعنى فى قياس الله على الإنسان وإخضاع الله تعالى لقوانين العالم . وقد ألزموا الله مثلا بالعدل كما يتصوره الإنسان وكما هو نظام دنيوى . وفاتهم أن معنى العدل — حتى فى الدنيا — معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ، ونحن فى أعمالنا ننظر إلى عالمنا . والله تعالى رب العالمين ينظر فى أعماله إلى جميع العوالم . ما نعلم منها وما لا نعلم . فكيف نخضع الله لتصور العدل الذى نتصوره نحن فى عالمنا .

ويقول : هذا هو خطل الاتجاه العقلى الذى تزعمه المعتزلة والذى كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه . وإخضاع النظام الدينى بما فيه من عقائد وحقائق له ، ولا ريب أن قياس الغائب على الشاهد اتجاه خطر على الإسلام وفتح باب فساد عظيم فى المجتمع الإسلامى . لقد كان هذا تحويلا للدين البسيط العملى الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . والذى يستسيغه العقل البشرى بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها وإساغتها كثير من العقلاء والأذكياء ، ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ، وإضعافاً للإيمان وإثارة للشبهات والشكوك وعدم الثقة بما يقوله النبى صلى الله عليه وسلم مما يعجز العقل عن تعليله وإقامة الدليل على وجوده . وفى العالم ما أكثر ما يعجز العقل عن تعليله وإقامة الدليل عليه .

(٤)

وعيب المعتزلة وقصورهم — أنهم نقلوا (الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، والدين خلاف الفلسفة) وقد وصل بهم تقدير العقل إلى ما يشبه تقديس العقل وكان استخدامهم المنهج الجدلى من شأنه أنه يعطى براعة فى التفكير ولكنه يظل مع ذلك عاجزاً عن إعطاء الروح ما يرضيها ويسد حاجتها (فإلى براعة التفكير كان هناك ضعف الروح . والمغالاة فى تقدير العقل والقصور فى جانب العاطفة) كانت البراعة الفائقة فى الكلام قد أعطتهم القدرة على الكلام فى الشىء وضده والمعنى ونقيضه بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الإقناع كما يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع .

ولا ريب أن المعتزلة قد عجزوا عن إدراك تكامل الإسلام الجامع بين العقل والوجدان . ودفعهم تعصبهم للعقل إلى تجاهل الجانب الآخر لمنهج المعرفة الإسلامى ، بل أنهم ذهبوا إلى حد اضطهادهم لكل من يرى غير رأيهم . وغفلوا عن عجز العقل وحده عن إعطاء حاجات النفس البشرية الجامعة : حاجة الوجدان وعالم الغيب من قدرات حسية وعاطفية مختلفة يصور هذا المعنى الدكتور عماد الدين خليل حين يقول :

(تظاهرت المعتزلة الفكرية وتشبثهم المتشنج بالعقل واضطهادهم المذهبى لكل معارض وهم يقرءون ما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعاً فى القرآن دعوة لاعمال الفكر البشرى فى كل صغيرة وكبيرة وفى تحريك العقل لحل المشاكل الأساسية ، وهم يقرأون فى نفس الوقت أن العقل وحده ليس بقادر على انتشال الإنسان من معضلاته الكونية وأنه لو كان قادراً حقاً لانتفت الحاجة أساساً لمجىء الأديان وإنزال القرآن . ويدركون من خلال عشرات المواضيع القرآنية أن وراء العالم يمكن للعقل أن يتعامل مع عالم غيبى شامل بعيد ، خفى محيط ينبه عن قدرات الإنسان الحسية والعقلية ، ولكنه حق واقع ، كما أن علم الطبيعة الملموس حق واقع وأن الإيمان به والتسليم بوجوده يجىء بمثابة حجر الزاوية لكل إيمان حقيقى كامل . لقد قدم كتاب الله المسألة بطرفيها فلماذا نجنح ونغادر الموقع الوسط الشامل المتوازن) .

وأخطر ما يقف منه المعتزلة موقف التحدى هو (الوحى) :

والوحى ظاهرة غيبية صرفة لا تخضع للاختبار العقلى وأن مجرد التسليم بسائر ما ينبثق عنها من وقائع غيبية موثقة وردت فى سيرة الرسول .

ولا ريب أن كل هذا مما تنتفع به حركة التغريب والغزو الثقافى فى توهين اكتمال الرسالة الإسلامية وتعدد جوانبها وعمق صلتها بعالم الغيب ، ودفع الناس إلى الظواهر والمحسوسات والمعقولات وحدها . وبذلك ينقطع ذلك التكامل الجامع من المادة والروح والعقل والقلب ، وبذلك يفقد الإسلام ميزته الربانية الأساسية ويصبح شبيهاً بالنحل والمذاهب البشرية . وهم لا يقفون عند

هذا الحد بل أنهم يعملون فى المجال الآخر : مجال التصوف العقلى ووحدة الوجود وشطحات الروح والخيال ويغذونها حتى ينشئوا لها أنصاراً وأعواناً ، وبذلك يفقد هؤلاء أيضاً تكامل الإسلام الجامع بين العقل والروح ، وبذلك يصبحون مهومين منطلقين وراء الأهواء . ولا ريب أن العالم قبل الإسلام كان منقسما إلى فريقين : فريق العقلانيين اليونانيين ومن تابعهم ، وفريق الغنوصيين الإشراقيين ، وكل منهما يرى أن أسلوبه هو وحده الأسلوب الصحيح ، وكلاهما مضلل فى وجهة نظره ، انشطارى فى نظرته وعقيدته ، ثم تجدد الأسلوب مرة أخرى بعد ترجمة الفلسفات ، ويتجدد اليوم مرة أخرى ليمزق جبهة المؤمنين بالله إلى عقلانيين ووجدانيين ولكى يقيم بين هؤلاء وهؤلاء تلك الحواجز العالية والأسوار الضخمة حتى يتصارعوا ويتمزقوا ولا يصلوا إلى حقيقة الإسلام التى تجعل المسلم عقلانياً ووجدانياً فى نفس الوقت ، استمداداً من جوهر مفهوم القرآن والسنة بعيداً عن المغالاة والانحراف ، وتحرراً من الفكر الوافد الوثنى والمجوسى والمادى الذى هو من صنع العقل البشرى .

(٦)

أخطر ما عمد إليه المعتزلة فتح باب التأويل على مصراعيه فأولوا الدليل النقلى إذا لم يتفق مع ما انتهوا إليه فى بحثهم العقلى . واستشهدوا به إذا كان يتفق مع القيمة العقلية التى خلصوا إليها . بل أنكروا الدليل العقلى فى مجال الأحاديث النبوية إذا لم يجدوا وسيلة إلا ذلك . فهم أمام العقل يسلمون ما وافق منها البرهان العقلى ويؤولون ما خالفه فالعقل هو الحكم فى الآيات المتشابهات وهو الحكم على الحديث ليقرر عدم صحته إذا لم يوافق العقل ويحتمل التأويل .

وقد تطرق المعتزلة فى التأويل العقلى حتى بلغوا نفى الصفات الإلهية ومنها وصلوا إلى التعطيل وهذا أسوأ ما وصل إليه غلو المعتزلة ، وكان أخطر قراراتهم : ترجيح المعقول على المنقول ، وما المنقول إلا السنة التى هى من عطاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار الوحى : وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حين قال : (أوتيت هذا الكتاب ومثله معه) : يعنى السنة :

وهكذا نجد المعتزلة حين اتخذوا البراعة فى الكلام هدفاً ، يتكلمون فى الشيء وضده بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الإقناع قد خرجوا عن الحق الذى كانوا يدعون إليه وقد شغلهم هذا حتى تفننوا فى استعمال الألفاظ على نحو يؤيد دعواهم مهما بلغ ذلك من الخروج عن الحق الأصيل وكأنهم خرجوا من مدافعة خطر الرد على الزنادقة وكيدهم إلى ابتداع كيد. أشد خطراً هو الانحراف إلى الجانب العقلى وحده وترك مفهوم الإسلام الكامل الجامع ، وقد وصل ذلك إلى محاولة إخضاع العقائد الإسلامية للعقل . وكان هذا اتجاهاً شديد الخطر على الإسلام وانحرافاً به عن مفهومه الجامع بين العقل والقلب .

(٧)

تعد فكرة خلق القرآن من أخطر ما وصل إليه المعتزلة من استعلاء عقلى وهى فى نفس الوقت مقتلهم ومصدر هزيمتهم الساحقة . وذلك بعد أن استعلوا بالاتصال بالحكام وأعلنوا التعصب الحاد وصمموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الإسلام . وتبنى قاضى القضاة أحمد ابن أبى داؤد هذا الاتجاه ، وجعلوا مدخلهم إلى هذا النفوذ والسلطان مسألة خلق القرآن ، فقد وصف المعتزلة القرآن بالمخلوق اختلافاً ومعارضة مع ما يراه مفهوم الإسلام الأصيل من أن القرآن هو كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق . وأن إثارة هذه المسألة بدعة لم يقل بها النبى صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ، وأنه إذا تردد فى العامة أن القرآن مخلوق لم يبق فى نفوسهم له أى تقديس أو إجلال ، ولكن المعتزلة أصروا على فرض هذه النظرية الوافدة فحملوا عليها الناس وحمل لواء الدعوة إلى ذلك المأمون ودعا إليه علماء المسلمين قبل وفاته بأربعة أشهر عام ٢١٨ هـ وأمر بإقصاء كل من لا يدين بذلك وعقد الامتحان للعلماء فكان ذلك بمثابة محنة كبرى . وأوصى خلفاءه بالاستمرار على هذا الاتجاه حين وفاته .

وقد عجز كثير من العلماء والمشايخ والفقهاء عن مواجهة هذا الموقف والإعلان ببطلانه ما عدا أربعة هم : أحمد بن حنبل وسجاده والقواريرى ومحمد

ابن نوح وقد شدوا فى الحديد . واستسلم سجاده وأجاب القواريرى بعد يوم ومات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد وتركزت المقاومة فى إمام السنة : أحمد بن حنبل . وكان قول المعتزلة بخلق القرآن إنكاراً لقدسيته وعظمته وجلاله . وذلك هو مقتلهم وغاية انحرافهم عن منهج الأصالة الإسلامية الجامع بعد أن أعلنوا أن العقل وحده وبدون مساعدة الشرع قادر على معرفة الله تبارك وتعالى . وليس هذا منهج الإسلام ولا طبيعة الأمور . ولو كانت للعقل هذه القدرة لما أرسل الله تبارك وتعالى الرسل .

وقد استمرت فتنة خلق القرآن سبعة عشر عاماً : خلال أيام المأمون والمعتصم والواثق ذاق فيها المسلمون كل ألوان التحدى والاضطهاد . ووقف الإمام أحمد بن حنبل موقف المعارضة والصمود طوال هذه الفترة . واحتمل التعذيب والاضطهاد والسجن . وكان لثباته وشجاعته وإخلاصه أكبر الأثر فى انطفاء فتنة خلق القرآن . فقد وقف صامداً كالسد المنيع فى وجه تيار ذلك الخطر الفلسفى اليونانى الذى حاول احتواء عقيدة الإسلام وتوهين أصالة المفهوم الإسلامى الجامع . والذى عرض كل مقومات الدين من توحيد ووحى ونبوة للخطر ، وقد اعترف المؤرخون والباحثون جميعاً بأن صمود ابن حنبل ومقاومته وهو الأعزل قد سدت ثلمة الخطر الذى كاد أن يحدث فى الإسلام .

يشير المؤرخون إلى أن أحمد بن أبى دؤاد هو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء فى أمر خلق القرآن . وكان المأمون بطبيعته مؤهلا لهذا الاتجاه . وعنهما بدأت مرحلة التعصب الشديد والمبالغة فى محاكمة علماء المسلمين وإرغامهم على قبول هذه الشبهة التى تتعارض مع المفهوم الأصيل للإسلام الذى يتحدد فى أن كلام الله تعالى قديم وغير مخلوق . وقد نقل المأمون الخلاف إلى دائرة السلطان فتدخل بوصفه الخليفة وأكره الناس على التسليم بوجهة نظر مستحدثة فى أمر من أمور الدين . وقد ارتكب بسبب هذه الفكرة من التنكيل بالعلماء ما يحمل المأمون وزره ووزر من أتى بعده ومن شاركه فيما يدعو إليه . وقد مضى المعتصم على خطة المأمون فولى منصب قاضى القضاة إلى أحمد بن أبى دؤاد . وكان تأثيره على المعتصم أكبر . ولذلك سار المعتصم فى الفتنة

وترك لابن أبي دؤاد مناظرة المخالفين والتهجم عليهم واتهامهم بالمروق من الدين ، فقتل من قتل . وضرب الإمام ابن حنبل من أجل ذلك بالسياط ، وذلك عام ٢٢٠ هـ .

وفي عام ٢٣٧ هـ جاء المتوكل وجاء معه اعتدال الميزان نحو الأصالة الإسلامية ، وقد انتقم الله تبارك وتعالى من ابن أبي دؤاد انتقاماً شديداً مراً فأصيب بالفالج وصودرت ضياعه وأخذ من ولده مالا بلغ مائة ألف وعشرين ألف دينار وجواهر بأربعين ألفاً وعادت السنة إلى مكانها وعاش أحمد بن حنبل بعد عزل ابن أبي دؤاد أربعة أعوام ونيفا يشاهد تقلص نفوذ وثراء وغنى هؤلاء الذين طمعوا في أمر الدنيا وخرجوا عن جوهر الدين .

ومنذ أيام الواثق تبين أن المؤامرة فاسدة . وأن الدعوى باطلة . وقد جوبه الواثق بحجة دامغة ردعت ابن أبي دؤاد وأعادت للخليفة صوابه وصرفته عن متابعة الأذى بسببها . ذلك أنه جيء بشيخ إلى الواثق من أزينه أوردت النجوم الزاهرة قصته وكتبها صاحب كتاب أحمد بن حنبل والمحنة (ولتر مالفيل باتون) على نحو رائع قال : قال الواثق لابن أبي دؤاد : ناظره .

فسأل الشيخ ابن دؤاد إذا كان مذهبه في خلق القرآن أصلا ضرورياً من أصول الإيمان على المؤمنين أن يقروا به . فأجاب ابن أبي دؤاد : نعم . ثم استفسر الشيخ قائلا : بعد أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليبلغ الوحي إلى قومه هل كتم شيئاً من الرسالة التي أبلغها . فأقر ابن أبي دؤاد بأن محمداً صلى الله عليه وسلم أبلغ الرسالة كاملة . وعند ذلك سأله مناظره عما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أساس الوحي الذي كان واسطة في إبلاغه قد دعا الناس إلى الإقرار بأن القرآن مخلوق . فلم يحر ابن أبي دؤاد جواباً . فطلب الشيخ من الواثق أن يعد هذه نقطة في جانبه تؤيد دعواه فأقره الواثق على هذه النقطة . وكانت الخطوة الثانية من النقاش مبنية على الاستشهاد بالآية الكريمة **« اليوم أكملت لكم دينكم. . . »** . وذلك حين سأل الشيخ عن الكيفية التي يبرز بها استحداث فكرة مذهبية جديدة بعد نزول هذه الآية . ولم يحاول ابن أبي دؤاد أن يدافع عن موقفه إزاء هذا الهجوم . وطلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثانية في تأييد حجته وسلم الواثق بذلك .

وفى الخطوة الثالثة من المناظرة سأل الشيخ عما إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد عرف النحلة المذهبية التى دعا الناس إليها فى ذلك الوقت وعما إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا إلى الإقرار بها فزعم ابن أبى دؤاد أنه قد علمها . ولكن لم يجب عما إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد ألزم المسلمين الإيمان بها أم لا وهنا طالب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثالثة وأخيرة فى تأييد حجته .

بيد أن الشيخ لم يقف عند هذا الحد بل احتج قائلا : بأنه إذا سلمنا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم علم بهذه النحلة كما علمها الخلفاء الأوائل ، وأنهم جميعاً قد رضوا بالامتناع عن حمل الناس على الإقرار بأن القرآن مخلوق فهل من الواجب على داعية جديد أن يشتد فى القيام بمالم يقوموا به ؟ ولو فرضنا أن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء قد آمنوا بما يؤمن به هذا الداعية أفما كان الأجدر به أن يحتفظ بهذه العقيدة على أنها مجرد رأى شخصى من آرائه الخاصة كما صنع السلف بدلا من أن يرغموا الناس على الإقرار بها مثلما عمد هو نفسه إلى ذلك ا . ه .

كانت عبارة الشيخ الأذينى : لم لم يدعوا الناس كما دعوتهم أنت ، أما يسعك ما وسعهم . فدخل الواثق المنزل فاستلقى على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه : (أما وسعك ما وسعهم) . ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده ورفض الشيخ أن يقبل ما وهبه إياه .

وهذا هو ما قاله أحمد بن حنبل حين قال :

« القرآن كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق »

لقد كان المعتزلة أسرع الفرق إلى السقوط فى أتون الفلسفة اليونانية ومحاولة صبغها بصبغة إسلامية ، وقد فشلوا فى ذلك فشلا ذريعاً إذ حملوا النصوص ما لا تحتمل . وبالغوا فى ذلك مبالغة شديدة . وكانوا أول من تحطم بها ، ومنهم خرجت كل الفرق التى وصفت بأنها منحرفة عن مفهوم الأصالة الإسلامية والتوحيد الحق (اتباع جهم بن صفوان وضرار ابن عمرو وبشر المريسى وغيرهم من أتباع الباطنية والمؤامرة المجوسية) .

وقف أحمد بن حنبل فى وجه المحنة ثمانية عشر عاماً . سجنه المأمون وحاكمه الواثق وكان فى السجن منذ أخذ إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانيةوعشرين شهراً . وكانت صيحته المدوية فى محاكماته : (أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به : القرآن كلام الله لا أقول مخلوق) . وقد أقام صابراً محتسباً أمام المأمون والمعتصم والواثق ووقف سداً منيعاً — كما يقول العلامة أبو الحسن الندوى — فى اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفى المتهور الذى لو سيطر على الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى وعن النبوة المحمدية . ولخضعت للفلسفات وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ولانتصرت السياسة على الدين انتصاراً مؤبداً وسلبت حرية الرأى والعقيدة . وهكذا كانت وقفة أحمد بن حنبل أول ضربة معول فى هذا الاحتواء الخطير الذى استشرى حين طمع المعتزلة فى السلطان وغالوا فى نشر مذهبهم وتعصبوا ضد كل من لا يوافق نحلتهم . حتى لقد بلغ بهم أنه لما حدثت مناداة بين الأسرى المسلمين والأسرى الروم فى زمن الواثق ٢٣١ أرسل أحمد بن أبى دؤاد رسولاً من قبله يمتحن الأسرى فى ميولهم الدينية حتى لا يفتدى منهم من لا يقول بخلق القرآن .

وقد أنكر المسلمون بعامة هذه البدعة ووقف مسلمو الأندلس فى وجهها معارضين . وكانت وقفة ابن حنبل إزاء هذا التيار الجارف المتمكن بقوة السلطة أماناً للنفس الإسلامية مما حفظ لها مفهوم الإسلام الأصيل دون تحريف يخرجه عن جوهره وبساطته ومنابعه الأولى ، ولم يبال فى سبيل ذلك التعذيب والضرب فأخذ وسحب ثم خلع ، وشدت يداه فخلعتا ولم يزل يتوجع منهما حتى مات ، وكان الجلادون يتناوبونه بالضرب ، وكانوا يناقشونه كل ليلة وهو لا يتزحزح عن موقفه . فإذا انصرف أضيف إليه قيد جديد يوضع فى قدمه . قال : لقد ذهب عقلى مراراً فكان إذا رفع عنى الضرب رجعت إلى نفسى ، وكان يقول : يا رب إن كنت على حق فلا تبد عورتى .

وقال له تلميذه المروزى : ولا تقتلوا أنفسكم ، قال يا مروزى : اخرج وانظر ، فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله تعالى

والصحف فى أيديهم والأقلام والمحابر . فقال لهم المروزى أى شيء تعملون : قالوا : سننتظر ما يقول أحمد فنكتبه . فدخل إلى أحمد فأخبره فقال : يا مروزى أأضل هؤلاء كلهم . إذا سكت العالم تقية ، والجاهل يجهل فمن يظهر الحق .

قال إبراهيم بن مصعب الشرطى : ما رأيت أحد أثبت من أحمد بن حنبل قلباً يوم المحنة .

فلما انكشفت المحنة ، عفا عن كل من أساء إليه ، وأرسلت إليه عطايا المتوكل فردها وكان عيشه من تملك عقاره الذى ورثه عن أبيه وكان يقول : « ما على رجل ألا يعذب الله بسببه أحداً » .

(٩)

أول من تكلم بخلق القرآن الجعد بن أدهم من دمشق معلم مروان بن محمد وعندما طلب هرب ، ونزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان وقيل أن الجعد أخذ ذلك عن إبان بن سمعان وأخذه إبان عن طالوت بن أعصم اليهودى ، وتأثر الجهم بن صفوان بالجعد وكان ينفى الصفات عن الله تعالى واستتبع ذلك نفى الكلام والقول بخلق القرآن .

وكان لبيد بن أعصم اليهودى فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة يقول بخلق التوراة ويرى بعض الباحثين أن جماعة من اليهود الذين أظهروا الإسلام اندسوا بين المسلمين بالبصرة ، وقد تعرف إليهم واصل بن عطاء وجعل يتردد عليهم ومن قولهم أن الخير من الله والشر من أفعال الإنسان وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وأن الله تعالى غير مرئى يوم القيامة وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب فشرب الخمر وغيره يكون فى منزلة بين بين لا مؤمناً ولا كافراً ، وأن إعجاز القرآن فى الصرفة لا أنه فى نفسه معجز أى أن الله لو لم يصرف العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه . فلما تحدث واصل فى هذا فى مجلس الحسن البصرى نهاه الحسن ، فاعتزل وأقام حلقة أخرى فى المسجد وأرسل أصحابه الذين علمهم إلى الغرب واليمن وخراسان والجزيرة والكوفة وأرمينية وقد تجمعت طائفة من هؤلاء لدى المأمون الذى كان متأثراً

مما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم من ناحية والذى كانت نزعته الفارسية التى ورثها عن أمه وبيئته التى تربى بها ذات أثر كبير فى اتجاهه ذاك .

فقد أباح المناقشة أمامه فى مسائل شائكة منها علاقة الإنسان بخالقه وطبيعته الألوهية كما أباح للمسيحيين حرية المناقشة فى أى الدينين أفضل .

وأدنى منه رجلين من أسوأ أهل عصره : بشر المريسى وأحمد بن أبى دؤاد . أما بشر المريسى فكان أبوه يهودياً صباغاً بالكوفة فى سوق المراضع كما ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد قال : حدثنى صالح العجلى حدثنى أبى قال رأيت بشر المريسى مرة واحدة شيخاً قصيراً دميم المنظر وسخ الثياب وافر الشعر أشبه شىء باليهود .

وكان المريسى يدخل على المأمون . وكان الشافعى . والطوسى يذكرانه فى مجلسه بما يكشف عن فساد رأيه : ثم كان أحمد بن أبى دؤاد ممن قربهم المأمون ، وبذلك استطاعت المعتزلة أن تصبح ذات نفوذ ضخم بعد أن تقبل المأمون رأيهم فى خلق القرآن .

وكان بشر المريسى يقول بخلق القرآن إبان حكم الرشيد الذى توعده وقال بلغنى أن بشراً يقول : القرآن مخلوق والله إن أظفرنى الله به لأقتلنه . واختفى بشر حتى ظهر فى أيام المأمون واستطاع أن يكون من أهل الطول . قال الخطيب البغدادى أنه ظل يدعو إلى ذلك نحواً من أربعين سنة ويؤلف فيه الكتب .

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافاً إليه تفضيل على على أبى بكر وعمر فاشمأزت النفوس منه . وقد تحدث المؤرخون عن البدع المأمونية الأربع :

لبس الخضرة . وتقريب العلوية . والقول بخلق القرآن . وأخذ الجند بالتكبير بعد الصلوات الخمس . وإباحة زواج المتعة الذى رجع عنه بعد .

وقد حمل الناس على القول بخلق القرآن فكانت من أسوأ المواقف فى حياته وأسود الصفحات .

(١٠)

بعد سبعين عاماً من وفاة أحمد بن حنبل ظهر أبو الحسن الأشعرى مدافعاً عن (الأصالة الإسلامية) متخذاً نهج أحمد بن حنبل بعد أن مضى

أربعين عاماً فى صف الاعتزال . ولم يكن أبو الحسن راضياً كل الرضا عن طريقة الاعتزال لغلوها فى التأويل وترجيح المعقول على المنقول . ولذلك رأى الأشعرى أن الأصالة الإسلامية تقضى أن يسلك طريقاً أكثر ملاءمة لمفهوم الإسلام الجامع . يوفق بين الدليل العقلى وبين الوحى والسنة ، وقد هدى إلى أسلوبه الذى اعتمد على النظر العقلى فى إطار القرآن والسنة . مقدماً السمع على العقل بعد أن كان المعتزلة يقدمون العقل على السمع . وقد كشف أبو الحسن عن انحراف المعتزلة عن منهج القرآن الجامع وطريق الإسلام المتكامل . فقال إنهم وجهوا القرآن وجهة تتفق مع تخيلاتهم وأولوه على حسب مذهبهم . وخلبت التفاسير عقول المسلمين لما حوت من قوة الجدل وطلاوة العبارة وبراعة القدرة على إلباس الباطل ثوب الحق ، ولذلك فقد استطاع الأشعرى أن يرد عليهم بنفس أدلتهم الكلامية التى تعلمها منهم فاستطاع أن يدحضها ويرد على الحجة بحجة أقوى ، ومن ذلك قوله :

« إن أهل الزيغ تأولوا القرآن على آرائهم وفسروه على أهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به من سلطان ولا رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف المتقدمين وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبى الهذيل وإبراهيم النظام والقوطى والإسكافى والجبائى والبلخى وغيرهم من قادة الضلال » . ويقول : إن أهم ما أزعجه أن الجبائى (أستاذه) ألف فى تفسير القرآن كتاباً أوله على خلاف ما أنزل الله وما روى فى كتابه حرفاً واحداً عن أحد من المفسرين وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه ولولا أنه استقوى بكتابه كثيراً من العوام لم يكن لتشاغلى به وجه » .

وبذلك نرى أن الإسلام يصحح طريقه ويحرر منهجه كلما انحرفت به جماعة أو دعوة تحاول أن تخرجه عن أصالته وتكامله الجامع . وقد كشف الأشعرى أخطاء المعتزلة فى خلق القرآن ونفى صفات الله والقضاء والقدر ، وكلها مسائل جاءتهم من الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو الذى فرق المسلمين وفتح باب التأويل . فقد أخذ المعتزلة بطرفهم فى التأويل العقلى حتى بلغوا مع نفى الصفات الإلهية إلى التعطيل وقالت الكرامية بالتشبيه والتجسيم وقالت الجهمية بالجبر وكلها فروع من مفاهيم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودى والمسيحى .

يقول السيد أبو الحسن الندوى : ظل الأشعرى ينزعم المعتزلة أربعين سنة ثم ثار عقله الكبير ونفسه القلقة على مذهب الاعتزال . ونشأ فى نفسه رد فعل ضد تأويلات المعتزلة وإمعانهم فى القياس وتحكيم العقل وصار يشعر بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعى وللمقدمات والأصول التى ظنوا وصور لهم ذكاؤهم أنها قطعية وتأولوا القرآن على آرائهم واقتنع بأن الحق الصراح هو الذى كان عليه الصحابة رضى الله عنهم وسلف الأمة .

وقد عكف فى بيته خمسة عشر يوماً يفكر ويتأمل ويدرس ويستخير الله حتى اطمأنت نفسه واستقر رأيه ورأى أنه لايسعه إلا إعلان البراءةمن الاعتزال والرجوع إلى مذهب السلف فخرج إلى الناس بالمسجد الجامع بالبصرة ورقى كرسياً ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان . كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم .

كان أخطر محاذير الاعتزال هو الاتجاه إلى تقديس العقل وتحكيمه فى المسائل التى لا تقوم إلا على تعليمات النبوة والإيمان بالغيب . وكان مصدر ذلك هو الفلسفة اليونانية التى وجدت منطلقها فى موجة عارمة كادت تكتسح الإيمان بالغيب والاعتماد على تعليم الأنبياء . وازدهر الفكر الفلسفى على حساب القلب والعاطفة وعلى حساب العمل .

وقد رد عليهم أبو الحسن الأشعرى وتتبعهم فى مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً .

أولا : لم ينكر الأشعرى العقل ولكنه وضعه مكانه الحق . ليس العقل مقدساً وليس سلطة لا تحد وليس له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبيعة .

ثانياً : أعلن أن مصدر العقيدة هو الوحى والنبوة المحمدية والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم وأن الكتاب والسنة هو مصدر المسائل التى تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة وليس العقل المجرد والميتافيزيقا اليونانية .

ثالثاً : أثبت القدر لله تبارك وتعالى خيره وشره . وأثبت صفات الجلال لله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وسمعه وبصره وكلامه . وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله تعالى موجود يرى بالأبصار يوم القيامة وأقر السمعيات كلها وعذاب القبر ومنكراً ونكيراً والصراط والميزان والحوض . وأن أسماء الله لا يقال أنها غير الله .

رابعاً : دعا الأشعرى إلى التفويض لله فيما ليس ميسوراً تعليله من الغيبيات ونهى عن الجدل والمراء فى الدين والخصومة فى القدر ويرى أن على المؤمنين الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله والانتهاء عما نهى عنه وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين .

وأعلن أن المعتزلة تأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطاناً ولا أوضح به برهاناً ولا نقلوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عقيدة السلف وأنهم اتبعوا أهواءهم فى فهم الدين ولم ينظروا فى الكتاب والسنة مجرداً ولم يتخيروهما إماماً ومصدراً لعقائدهم وآرائهم بل كلها تعارض القرآن مع ما انتحلوه من آراء وعقائد تأولوا بها القرآن .

هذا وقد تطور مفهوم الأصالة الإسلامية كما رسم الأشعرى على يد الباقلانى والجوينى والغزالى وبذلك سقط مفهوم المعتزلة الذى انكشف انحرافه وزيفه .

ولم يعد فى الإمكان انبعاثه مرة أخرى فى صورته الأولى المحرفة . التى اعتمدت على فلسفات الأديان وعلى مفهوم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودى والمسيحى والتى توحى بأن وراءها هدفاً من أهداف احتواء الإسلام . وما كان فى الإمكان فصل هذا المفهوم الذى قاومه أحمد بن حنبل ثم كشف عن زيفه الأشعرى وتابعه رجال أمثال الجوينى والغزالى ، ما كان فى الإمكان فصله عن سياقه للدعوة إليه مرة أخرى فى العصر الحديث باعتباره مفهوماً فلسفياً أو نظرية مجردة بينما لم يكن هو كذلك . وفى ضوء ذلك الواقع الأليم الذى فرض فيه المعتزلة مفاهيمهم المضطربة بقوة السلطان والتى لم تستطع مواجهة ضوء الحق ولا نور العلم والتى تخلى عنها الذين حملوها . ما عدا

أصحاب المطامع والأهواء . ثم كيف جاءت الأبحاث الصحيحة ناسفة لكل دعواهم الباطلة .

إن مطالبة بعض الكتاب والمفكرين بالعودة إلى فهم المعتزلة ، يوحى بما وراء هذا المذهب فى أوله من أهواء اليهودية وخطط الباطنية والمجوسية لهدم الإسلام ، وإعادة اصطناع هذا الأسلوب مجدداً فى العصر الحديث وما فلان وفلان وفلان إلا خلفاء المريسى . وابن أبى دؤاد ، وجهم بن صفوان .

* * *

الفصل الثاني

الإسلام والعقلانية

(١)

قال الإمام الشافعي : (ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا بتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس) . وقد كانت الترجمة هي مصدر استعلاء التيار العقلي الذي كان واحداً من عدة تيارات أخرى ، كالإيمان والوجدان فلما استعلى التيار العقلي بالذات . كان ذلك ولا ريب راجعاً إلى أثر الفلسفة اليونانية التي استطاعت احتواء الفكر اليهودي والفكر المسيحي من قبل ووضعت ما سمي باللاهوت المسيحي بحيث أصبح العقل أساساً للإيمان ، أما الإسلام فقد كان له مفهومه الواضح عن العقل كأداة بجوار عدة أدوات أخرى للإيمان منها الوجدان والإحساس القلبي .

لقد حاولت المعتزلة الخروج عن فهم الإسلام الجامع بتقديس العقل واعتباره السبيل الواحد في البحث . ولقد واجهت هذه النظرية معارضة كاملة من الأصالة الإسلامية على مدى العصور . وكلما تجدد القول في العقلانية وخاصة في العقل الحديث . وكانت حجة الباحثين أن العقل والقلب في القرآن مترادفان ، وأن العقل سراج زيته الوحي . لذلك فإن سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة إنما تعني في حد ذاتها انتقاص شأن الوحي . ولا ريب أن تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها من شأنه أن ينقص من تكامل العقل والوحي . وتلاقي العقل والروح . ولا ريب في تقدير الباحثين أن العقل غير كاف . ولا بد من الاحتياج إلى نبي ووحي . هذا النبي يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقاً فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد . ويكون الوحي مرشداً للعقل وهادياً فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد . ويكشف عن وجوه الأشياء التي لا يدرك العقل حسنها وقبيحها .

كذلك فإن الإسلام لا يقيم فاصلا بين العالمين الروحى والدنيوى . فليس فى الإسلام شىء من قبيل أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فكل شىء فى الإسلام هو لله. وليس فى الإسلام فاصل بين العالمين الروحى والدنيوى

ولا ريب أن هذا الجو الذى دعا إلى الفصل بين العقل والنقل فى المسيحية ليس موجوداً فى الإسلام فما يزال النص القرآنى موثقاً حياً نابضاً بالحياة لم يعتوره أى تغيير من شأنه أن يجعله موضع الشك كما يحدث فى النقل من الفكر الغربى سواء فى المسيحية أو اليهودية .

ولقد كان العقل دائماً فى الإسلام جارياً فى إطار الوحى . وقد أشار الإمام الغزالى إلى هذا المعنى حين قال : وظيفة العقل أن يشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز ، فالعقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولكن إذا عرف فهم وصدق فالعقل خادم الدين المطيع وقد أجمعت الأصول العامة كلها على أن الوحى هاد للعقل ، وأن الدين يقود العقل إلى الصواب .

ويتساءل أحد الباحثين فيقول : لماذا لا ينجح العقل الإنسانى فى أن يكون بديل الحكمة الإلهية فى تقرير النظريات الأساسية والأصول التنظيمية فى المجتمعات الإنسانية ؟ ويجيب على ذلك بقوله : إن الإنسانية تتطلب ممن يقرر أسس نظرياتها وأصول أنظمتها أن يكون فوقها ، لا أن يكون بينها ليهيمن على احتياجاتها من أفق أعلى فإذا كان بينها انحصر أفقه فى ثنية بعينها فيمنعه ذلك من استشراف الحقائق العليا ، الإنسانية فى حاجة إلى من يطل عليها من فوق فيصل بصره إلى كل شىء ويخترق فواصل الزمان والمكان فيستوعب تقدير العالم كله والعمر كله : عمر العالم ، لا عمر جيل من أجياله . والإنسانية كلها على اختلاف شعوبها وقبائلها . فهل هذا ممكن للإنسان . ؟

هل يمكن أن يكون العقل وحده فى الميدان بعيداً عن رعاية الله . إن العقل فى شرعنا مناط التكليف ومناط الفهم فى تقبل العقيدة .

والإنسان عقل ونفس . فهب أن عقله قد آمن بالخطأ فهل ترى نفسه قد برئت من الهوى : الحكمة الإلهية وحدها هى التى تستوعب كل زمان ومكان ، وسع ربى كل شىء علماً . الحكمة الإلهية هى التى تتنزه عن التحامل

أو التحيز لأن صاحبها غنى عن العالمين . العقل المخلوق الذى لم يشهد كيف خلق وكيف خلق الكون ، ونحن بهذا لا نهدر العقل الإنسانى بل نحترمه إذ العقل مصباح ينير إذا وصل بمولد الكهرباء . ذلك أن العقل يوصل الطاقة إذا وصل بربه وخالقه . ولكن غيرنا يريد المصباح أن ينير بغير أسلاك .

والمؤمن هو الذى يقوم إيمانه على العقل والوجدان معاً ، أى بين الفكر والشعور . فالعقل يلتقى مع القلب . العقل وظيفته النظر فى الغايات والأسباب والمسببات والقلب وظيفته الشعور الباطنى . ولذلك فإن حصر الدين فى منطقة الوجدان أو فى منطقة العقل زعم غير إسلامى . والمعرفة موجهة إلى الباطن وهى معرفة حدسية شعورية ومعرفة علمية موضوعية والمعرفتان مرتبطتان يكمل بعضهما البعض وتتمم إحداهما الأخرى . والعلم الصحيح يقوم الوجدان والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب وبرهان وإذعان وفكر ووجدان . فإذا اقتصر الدين على أحد هذين الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات أن يقوم على الأخرى ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين .

وهكذا يقيم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الإنسان وليس بين العقل والقلب وحدهما . بل بين الروح والجسد أيضاً . فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة بل يوفق بينهما فى تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما تتكاملان فى الإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح . وهو كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو فى المجتمع وبذلك يتفادى الإسلام انحرافات الشطط والتطرف وبذلك يقضى الإسلام على ما سمى بالصراع أو التناقض ويحفظ للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذى يفرضه الانطلاق ، أو الجمود والتحجر الذى يفرضه الكبت .

كذلك فقد رفضت الأبحاث المتجددة ما أورده بعض المتأثرين بالمعتزلة من أحاديث موضوعة كحديث إقبال العقل وإدباره وأنه أول خلق الله ، وهو حديث قال بوضعه ابن القيم والسيوطى وضعف روايته كثيرون من الحفاظ فى طليعتهم الحافظ الذهبى .

وقال : إنما تكمن خطورته فى الصبغة الرواقية التى تشيع فيه مصورة

العقل بصورة مادية ثم فى إيحائه بنظرية العقول العشرة التى لفقها الفارابى وشاعت فى كتابات الفلاسفة المسلمين . وقد واجه علماء الإسلام هذه الأحاديث الموضوعة : واجهها الحارث المحاسبى وقد رسم منهجاً كاملا قال فيه أن العقل غريزة أو نور ووافقه فى ذلك الإمام أحمد . ووافق ذلك الأشاعرة وهو ما يقره العلم الحديث . وقد فرق ابن تيمية فى رسالة (الفرقان) بين النظريتين الإسلامية واليونانية فى العقل فقال أنه يراد بالعقل عند المفكرين المسلمين : الغريزة التى جعلها الله تعالى فى لإنسان يعقل بها .

وكذلك أجمعت الأبحاث المتجددة على :

أولا : عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية التى جاء بها الوحى الإلهى عن طريق الأنبياء . وعلى العقل أن يتخذ من الوحى هادياً ومرشداً وإلا فإنه يعجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة .

ثانياً : حاجة العقل إلى المعونة الخارجية لإرشاده إلى الأمور الإلهية التى لا يمكنه الإطلاع عليها إلا بطريق الوحى أو الإلهام .

ثالثاً : قدرة العقل على تفهم المسائل كلها بعد الاطلاع عليها من الشرع ولذلك فإن العقل محتاج إلى الاهتداء بالشرع .

رابعاً : ثبت عجز العقل بذاته عن معرفة الله والتمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر .

خامساً : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شىء حتى يحصره فى اثنين : الزمان والمكان . فيقول متى وأين فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان .

ولذلك فإن العقل لا يستطيع أن يحكم على الألوهية ولا على القضاء والقدر . وكل عمله ينحصر فى فهم نصوص الوحى الذى جاء من خارج العقل .

والعقل محدود ولا يستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير المتناهى . والعقل لا يتصور الخلود (والله عز وجل غير محدود فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه) فإذا حاول العقل الحكم على غير المحدود اختل ميزانه ووقع فى التناقض . والعقل لا يصح حكمه إلا فى الأمور المادية . أما (وراء المادة) أى عالم الغيب (الميتافيزيقا) فلا حكم للعقل عليه .

سابعاً : لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا وقد أعطانا الله تبارك وتعالى قوة نصل بها إلى حيث لا تصل الحواس . هي قوة الخيال وهذا الذى قاله علماء الإسلام ردده الفيلسوف الإلمانى كانت فى كتابه (نقد العقل) بعد ثمانمائة سنة من تاريخ ما أورده الغزالى فى مؤلفاته وقال برجسون : إن الذهن البشرى وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

ثامناً : محاولة الفلسفة لاستخدام العقل وحده فى فهم الكون والطبيعة هى مهمة يقصر دونها العقل ويرجع ذلك إلى محدودية العقل وعدم إحاطته بعلم الله ، مما يجعله قاصراً فى الحكم على ماهية المصلحة الحقيقية للبشرية فما يراه عقل أحدهم صالحاً يراه عقل آخر غير صالح .

ولذلك نرى تخبط البشرية فى فلسفات متناقضة . نتيجة اختلاف العقول ومقايساتها فى تحديد وتعيين السلوك الفردى والاجتماعى .

تاسعاً : أطلق الإسلام العقل الإنسانى وجعله حراً ولم يحده وإنما أوضح له العقيدة الصحيحة وإطار الحركة معها حتى لا يخطىء .

عاشراً : كان الفكر الغربى وجدانياً كلياً . ثم تحول إلى عقلى كلى . هذا مصدر الاضطراب ، ومصدر القلق الغربى نتج الآن من التفاوت بين علوم المادة والعلوم الإنسانية . وهو خلاف فى أصله بين القلب والعقل . استعلى فيه العقل الحديث استعلاء حجب به كل شأن من شئون الروح والمعنويات فآمن بالمحسوس وحده . ووقف عند المادة كمصدر للقوة والسعادة . وغفل عن أن العقل محدود والمادة ليست كل شىء .

حادى عشر : استقلال العقل الإنسانى بتوجيه الإنسان أمر غير مأمون أما الإسلام فيضع العقل فى إطار هداية الله من الوحى والشرع التى هى صمام الأمن للعقل من الانحراف أو الخطأ أو الميل إلى الهوى الإنسانى وتبريره . أو الاستكانة إلى الشهوات والخضوع لها .

هذا الفهم لا يحول دون المتاع المادى بل يحول دون اقتصار الإنسان عليه باعتبار أن هناك متاعاً آخر مادى يشوق النفس الإنسانية فهى تتراوح بينهما ولا تقف عند واحد منهما .

ثانى عشر : أكثر أخطاء العقلانية المجردة هى اعتبار محيط الذات الإنسانية

القيمة النهائية والغاية التي يتوقف عليها نشاط الإنسان وسعيه في الحياة . وإنكار غيرها وما عداها من قيم أخرى تتجاوز حدود الذات الفردية إلى الذوات الأخرى وإلى المجتمع وإلى الله تبارك وتعالى وإلى متاع الحياة الأخرى وهو ما يطلق عليه اسم القيم العليا .

فالإسلام يحقق القيم الذاتية ويؤكد الفردية ثم يدفع الإنسان إلى آفاق أوسع نحو الجماعة ونحو الآخرة . وهو يحقق المتعة المادية ولكنه يدفع الإنسان إلى استكمال حقيقة وجوده بتحقيق المتعة المعنوية الروحية . فالنزعة العقلانية هي في ذاتها نزعة مادية لأنها توقف السعي عند الفردية والمادية وحدهما وتحول بين الإنسان وبين تحقيق الشطر الثاني من تكوينه وكيانه وهو الجانب الروحي والمعنوي ، والإسلام يدعو إلى تكاملهما والموازنة بينهما ولا يعلي واحداً منهما على الآخر .

ثالث عشر : سيطرة النزعة العقلية تحبس النفس الإنسانية في جمود المادة وظلامها فتحول بينه وبين روح الإيمان والتفاؤل والتطلع إلى الأمل والمسلم لا ييأس من روح الله ولا يعيش أموره على الواقع أو على الحاضر وحده وإنما يرى أن هناك عنصراً آخر ربانياً يغيب عن التقدير المادي والعقلي له قدرته في تغيير الواقع .

« فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً »

فإن من أهم الحريات التي يصادرها العقل : حرية الأمل وعدم اليأس . فالعقلانية في حقيقتها سجن كبير ودائرة موصدة ، وطابع اليأس والتشاؤم الذي يتمثل في الفكر الغربي والأدب الغربي مرده في الحقيقة إلى مقايسات العقلانية الصرفة التي تجردت من المعنويات ومن رحمة الله .

رابع عشر : من شأن النظرة العقلانية : حصر البشرية في (خانة) الأنانية والعزلة بما يحول دون انفساح آفاق الرحمة والعطاء والبذل ، والانقطاع عن الإنسانية العامة . وهذا قصور إزاء أفق عظيم يقدمه الإسلام والدين بعامة ، من أبعاده وحدة البشرية وتعاطفها وبعد الأمن والرحمة والسلام.

خامس عشر : إن النظرة الإسلامية هي نظرة إنسانية ونظرة كاملة

وليست نظرة محصورة فى الفردية أو المادية وحدهما ولكنها تجمع بين المادية والروحية والفردية والجماعية دون أن تفقد إحداها عطاءها الصحيح .

سادس عشر : يرمى الإسلام إلى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله ، ولما كان العقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك مع خالقه فى النفوذ أو التأثير . وقد أودعه لله فى الإنسان لا ليعبده من دون الله ، بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ، ويهتدى به فى الظلمات التى ليس للعقل قدرة فى كشفها إلا فى ضوء الدين ، والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله .

والعقل ليس له قدرة التفرد بالنظر ، وإنما هو نور مصباح يكشف الظلمات ولكنه ينكسف أمام نور الله . والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام العقل أضأل من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً له فى ميدان العلم والفلسفة فيسير نور العقل وراءه .

سابع عشر : لقد استطاع المفهوم الإسلامى الأصيل أن يقلب مفهوم الاعتزال والعقلانية وأن يبين فساد نظريتها لقصورها وجزئيتها وكيف أن العقل لا يتمكن من إقامة البرهان إلا من طريق السمع أى النقل من الوحى . وأن العقل له حد يقف عنده . وأن فى أمور الدين ما لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق السمع وذلك هو الإيمان بالغيب (بما فيه الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار والصراط والميزان والبعث والجزاء) وبما فيه الإيمان بالملائكة والرسل والكتب .

فالعقل لم يمنح هذا كما أنه لم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته .

ولقد كان فى انحراف المعتزلة القدامى والجدد إساءة إلى الإسلام السمح اليسير وإساءة إلى منهجه القرآنى السائغ ولا ريب أن الهدف هو فى النهاية إنكار الخالق . والوحى والنبوة .

ومكمن الخطر أن يكون العقل مهيمناً على الشريعة قاضياً فيها بأهواء العصر مبرراً لأوضاع المجتمعات المنحرفة .

والإسلام لا يواجه الواقع أياً كان ليقره . أو يبرره . وإنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغى ما يلغى وينشىء واقعاً غيره فى ضوء الحقائق الأساسية .

الباب الثانى

إحياء الفكر الصوفى الفلسفى

الفصل الأول : الإسلام والتصوف .

الفصل الثانى : وحـدة الوجود .

الفصل الثالث : الحلول والاتحاد .

الفصل الرابع : الإشراق .

إضمامة

« اسدل الزمان ستار النسيان على كتب التصوف القديمة فظلت في رمسها حتى جاء المستشرقون ينقبون عن مادة جديدة للفتنة يؤججون بها نيران الخلاف بين المسلمين من جديد فوجدوا ضالتهم في آثار الصوفية فأقبلوا عليها وقرءوا في ضوء العقلية المسيحية وطقوس الرهبنة أخبار المتصوفين وكتاباتهم واستهوتهم أفكاره فجمعوا من أقوال الصوفية في فنهم كل شاردة وواردة وعنوا بتنظيم موضوعاته وترتيبها حتى يمكن القول : إن بحوث التصوف الحديثة وكتاباته كلها ترجع إلى عمل المستشرقين الذين اهتموا فوق ذلك بالتعليق على موضوعاته وتوجيه مسائله الوجهة التي يرضونها بما عرف عنهم من مهارة وصبر وأهداف إلى غاية ، وهدفهم تشكيك المسلمين في معتقداتهم ومناهضة تعاليم الإسلام الصحيحة ، بالطعن فيها وترويج الزائف من المفتريات التي قامت حوله ، فعلوا ذلك لحساب المسيحية ودولهم الطامعة في تراث البلاد وتذرعوا من أجل ذلك بتعلم اللغات الشرقية » .

الفصل الأول

الإسلام والتصوف الفلسفى

(١)

أولا : استهدفت المؤامرة على الإسلام فى العصر الحديث انبعاث الفكر الصوفى الفلسفى ممثلا فى نظريات وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفناء والتناسخ والإشراق وهى فى مجموعها مفاهيم دخيلة على الفكر الإسلامى الأصيل ومستمدة من الفكر الفلسفى اليهودى والمسيحى واليونانى والمجوسى والهندى يستهدف انبعاثها زلزلة مفهوم التوحيد الأصيل وخلق جو من الشكوك والريب فى قلوب المؤمنين لزحزحتهم عن أصول عقيدتهم السمحة القرآنية الربانية القائمة على الفطرة البعيدة عن التعقيدات والتهويمات .

ولا ريب أن الدعوة الملحة إلى إعادة بعث هذه الجوانب من الفكر الصوفى الفلسفى التى أثيرت فى زمن معين وتحطمت واندثرت ، لا ريب أن إعادة الاستشراق لها وتجديدها إنما له غرض مبيت وماكر وخبيث ، وهو الانحراف عن مفهوم الإسلام القائم على الفطرة والتوحيد والجامع بين العقل والقلب ، والقائم على التوحيد الخالص إلى شبه الرهبانية والخروج عن التكليف والاستسلام للجبرية ، وبذلك تعزل المسلم عن مجال الحياة العامة وتقصره على الجانب الروحى المهوم المغرق فى التهويم . وهذا ما يتطلع إليه مخطط المؤامرة على الإسلام من إخراج المسلم من مفهوم الإسلام الجامع إلى مفهوم العبادة والصفاء الروحى . فالصوفية الفلسفية بمفهوم الاتحاد والحلول ووحدة الوجود والفناء والإشراق هى بمثابة ضروب من تحريف الإسلام وتدميره وإخراجه من حقيقته الأصيلة وجوهره الخالص إلى مفهوم الوثنيات والنحل التى جاء الإسلام لهدمها وكشف زيفها وإبراز فسادها .

وقد تخصص عدد من المستشرقين لهذا النوع من الفكر الإسلامى أهمهم : ماسنيون وجولد زيهر وجب وبرون وماكدونالد ومارجليوت ونيكلسون وفون كريمر . وقد جرت المحاولات لخلق تيارين مختلفين أحدهما يقول بأن التصوف الفلسفى مصدره الإسلام . ويقول الآخر إنه ليس إسلاماً . وقد اهتم المستشرقون بدراسة الفرق المنحرفة فدرس ماسنيون التصوف الفلسفى والباطنية والقرامطة والنصيرية واهتم بأهل الباطل والتأويل . واهتم أكثر من غيره بدراسة الاتحاد والحلول والإشراق ووحدة الوجود .

وهم يصدرون عن مفهوم الإعجاب بهذه الانحرافات عن مفهوم الإسلام الأصيل ويرون أن الفقه الإسلامى جاف . وأن هذا المفهوم من التصوف هو الذى أعطى الإسلام روحاً لطيفة . وهم يحللون قضايا التصوف فى ضوء الرهبانية المسيحية وبمقياس رياضيات الهنود . وبعضهم يجعل المسيحية أصل الصوفية عند المسلمين ويحاولون فى كل هذا الغض من قدر مفهوم الإسلام الأصيل والادعاء بأنه ليس إلا واحداً من عدة مفاهيم . وهم فى هذا يطرحون شبهات خطيرة يهدفون منها إلى تزييف الإسلام .

وجرى الكتاب التابعون لحركة التغريب وراء خطط الاستشراق وتوسعوا فيها واهتموا بانبعاث هذه النحل المنحرفة والإذاعة بها . وكتب فى ذلك لطفى جمعة فى البلاغ عديداً من المقالات كما كتب توفيق دياب عن تناسخ الأرواح وروجت الجمعية الثيوصوفية لهذه المفاهيم .

وحاول محمد توفيق دياب أن يقول بأن النعيم والعذاب فى الآخرة معنوى بحت . وتصدى له أحد العلماء فدحض فكرته واستعرض الأدلة القرآنية على أن النعيم فى الآخرة حسى ومعنوى معاً .

وما تزال قضايا التصوف الفلسفى تتجدد فى الفكر الإسلامى جيلا بعد جيل وتجد لها فى الجامعات مجالا لدراستها وإثارة صدور الشباب بشكوكها وزيفها تحت اسم العلوم الفلسفية .

ولا ريب أن هناك غاية عميقة وراء تشجيع الغرب والغزو الثقافى والتغريب للتصوف الهدام والفلسفى فى بلاد المسلمين بتأليف الكتب عنه

ونشر المؤلفات المليئة بمفاهيمه المسمومة وخاصة مؤلفات الحلاج وابن عربي والسهروردي وابن سبعين .

فإنه ولا ريب يفسد مفهوم الإسلام الأصيل ويصرف عن طابعه الحقيقي ويهدم مقوماته وخاصة مفهوم الجهاد والتضحية والبذل والإرادة الحرة القوية المناضلة عن الحريات والحق .

ذلك أن هذه المذاهب الصوفية الفلسفية إنما تحاول أن تهدم فى النفس المسلمة أبرز مفاهيم التوحيد الخالص بالدعوة إلى الزهد المبالغ فيه المستمد من آثار المسيحية ، أو بالاتكاء على الجوانب الروحية الخالصة ، وهو الجامع بين المادة والروح . والإسلام لا يقر مذهب القول بحلول الله فى جسد إنسان أو فناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية ، ولم يدع الإسلام إلى الرهبنة أو الاعتكاف عن الحياة بل هو صريح فى إنكار الانفصال عن الحياة والمجتمع ، بل يوجه دعوته إلى العمل والعبادة ومراقبة الله فى العمل والعبادة .

وليس فى الإسلام أهل باطن وأهل ظاهر . فالإسلام جامع بين الظاهر والباطن معاً ، وجامع بين الفقه والأخلاق معاً ، فليس هناك فقه جاف وتصوف لطيف ، وتلك كلها مفاهيم غربية ومسيحية استمدها المستشرقون من دياناتهم وثقافاتهم وألقوها كسموم زاعقة فى أفق الفكر الإسلامى ليخدعوا بها البسطاء السذج والذين لم يكتمل فهمهم للإسلام الصحيح . والقرآن لم يذكر كلمة الزهد على أنها من الدين . كذلك فإن الإسلام ينكر الرموز والشطحات والتهويمات الغامضة كلها ، كما ينكر التأويلات التى قدمها رجال التصوف الفلسفى للنصوص القرآنية لأنها خارجة عن مفهوم الإسلام الأصيل .

وما ورد فى الطواسين للحلاج وفصوص الحكم أو غيره من كتب ابن عربى أو السهروردى أو شعر ابن الفارض ليس أصيلا بالنسبة إلى الإسلام .

ولا ريب أن ضخامة هذا العدد من المستشرقين الذين ركزوا على التصوف واشتغال البعض منهم بشخصية واحدة . زهاء أربعين سنة كما فعل ماسنيون بالحلاج ليكشف عن الغرض المسموم المبيت . ولا ريب أن ما يقرره نيكلسون

وماسنيون من أن المتصوفة المسلمين أخذوا بعض نظرياتهم وتعاليمهم من النصرانية مثل نظرية الحب الإلهى أو من الثقافة اليونانية (الأفلوطينية) كنظريات الإشراق والمعرفة والحبور . أو ما يراه برون وجولد زيهر وغيرهما من أن الصوفية المسلمين تأثروا بالبوذية والهندية تأثراً كبيراً فى نظرية الفناء ، كل هذا صحيح . ذلك أن الإسلام فى مفهومه الصحيح ودعوته القائمة على التوحيد والفطرة لا يمكن أن يقر مثل هذه الشبهات المعقدة .

مصادر التصوف الفلسفى هى : الفلسفة الإغريقية . والديانات الهندية ، والفلسفة الفارسية والبوذية واللاهوت المسيحى :

أولا : تسرب إلى التصوف مفهوم الفلسفة اليونانية الذى يقول بوحدة الوجود والتى لا تفرق بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه . وإنما ترى أن الوجود كله هو الله .

ثانياً : تسرب إلى التصوف مفهوم الفلسفة الهندية والهندوكية فى التناسخ . القائل بمجيء النفس الواحدة إلى الحياة مرات متعددة ، والغاية فى نظرهم من التناسخ أن تتاح فرص متعددة للنفس حتى تتهذب . كما تسرب إليها من الفلسفة الهندية مفهوم الفناء وهى النرفانا التى هى عندهم حال من فقدان الشعور تتخلص النفس فى أثنائه من الإحساس بالألم الذى يسببه لها اتصالها بالأجسام . والنرفانا ليست وجوداً إيجابياً ولكنها تخلص من الوجود المؤلم يقوم بها مقام السعادة والتنعم .

ثالثاً : تسرب إلى التصوف الفلسفى من المسيحية : تعذيب النفس وترك السعى فى الدنيا ، وكذلك فإن الحلول مأخوذ من المسيحية .

رابعاً : دخل التأويل الفلسفى على التصوف من الفلسفة اليونانية ، ودخل الحلول والاتحاد والتناسخ من التصوف الهندى ودخلت فكرة قهر الجسد بالتقشف والانقطاع عن التناسل من المسيحية .

(٢)

لا شك أن التصوف الفلسفى يتعارض تعارضاً تاماً مع مفهوم الإسلام الأصيل والذين قالوا به (الحلاج وابن عربى والسهروردى وابن الفارض وابن سبعين) تأثروا بالأفلاطونية المحدثة وبالعناصر التى أدخلها إخوان الصفا من إغريقية ومسيحية وفارسية الأصل ، ومنها المذهب المانوى والزرداشتى وفلسفة فيلون اليهودى وفلسفة الرواقيين .

وقد دعا الحلاج إلى الحلول والاتحاد وجاء بعده ابن عربى الذى دعا إلى وحدة الوجود .

ودعا السهروردى إلى الإشراق . ولا ريب أن فكرة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والإشراق كلها غريبة على الإسلام .

وأبرز ما تحمله هذه الفلسفات مصطلحات : التجلى والصدور والإشراق ووحدة الوجود والاتحاد والحلول والفناء وكلها مصطلحات دخلت على الفكر الإسلامى من الفلسفات اليهودية والمسيحية والإغريقية والفارسية والهندية ومرد هذه المصطلحات والفلسفات إلى الفكر الوافد .

دعا ابن عربى إلى وحدة الوجود ووحدة الأديان مستمداً أصوله من الحلاج ، ودعا ابن الفارض إلى الاتحاد . وكان ابن عربى وابن الفارض على مفهوم وحدة الوجود الذى يرفضه الإسلام وهو أن الله والعالم شىء واحد ودعا السهرورى إلى الإشراق .

وقد نقد ابن تيمية ابن الفارض وابن عربى وابن سبعين والحلاج وكشف عن زيفهم ورأى أنهم أتوا فى الدين بشىء جديد ليس من جنس كلام الله ولا رسوله ولا الصحابة .

وقد انصهرت أفكار الباطنية فى الشيعة والتصوف ، كما انصهر فيها اللاهوت المسيحى والفلسفة والمنطق الإغريقى والفلسفة الإشراقية المنبثقة من العقائد الآسيوية وفلسفة الحلول المنشقة من الفلسفة الهلنسية .

ولا ريب أن إعادة صياغة هذه القضايا من جديد فى العصر الحديث تستهدف إضعاف مفهوم الإسلام الأصيل وإثارة الشبهات وتمزيق وحدة المفهوم السنى الأصيل .

* * *

الفصل الثاني

وحدة الوجود

أخطر هذه المذاهب التي أحياها الاستشراق في التصوف الفلسفي (مذهب وحدة الوجود) وهو مذهب هندي برهمي . أصوله ماثلة ومستمدة من كتب الهنود الدينية وأفكارهم الفلسفية . وهو معارض تمام المعارضة لمفهوم الإسلام القائم على الفصل بين الخالق ومخلوقاته . ويعني مفهوم وحدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله . وهذا هو سر اهتمام المستشرقين بابن عربي والحلاج .

والإسلام يفرق تماماً بين الله (جل شأنه) وبين العالم . وهو ما تقول به الفطرة الصافية والعقل السليم . فكلاهما يأبى أن نجعل الله هو العالم كله بما فيه ، وهو يقول لا يتفق مع إقامة الأخلاق على أساس وثيق ويحول دون المسئولية والجزاء .

ونظرية وحدة الوجود ليست أصيلة المصدر . وليست مما عرف العرب أو أصحاب الأديان السماوية المنزلة ، إنما هي فكرة ترددت في الفلسفات البشرية وهي من أهواء الإنسان التي تحاول أن تحرر الإنسان من تبعة أعماله ومن مسئوليته الأخلاقية ليندفع لشهواته إلى غير غاية فهي لا تفرق بين الخير والشر ولا بين التقوى والفساد ولا بين الزهد والجشع ولا بين الفضيلة والرذيلة ، وهي في صميمها دعوة إلى إنكار الله تبارك وتعالى .

ومفهوم الإسلام هو مفهوم الأصالة : أن الله جعل شأنه واجب الوجود منزه عن الاتحاد بمخلوقاته أو الحلول فيها . والكون شيء غير صاحبه ، والعالم شيء غير الله . ولقد خلق الله الخلق وكلفهم ورتب على التكاليف مثوبات وعقوبات وأنزل بذلك كتباً وبعث رسلا . فالقول بوحدة الوجود نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها . يقول الأستاذ محمد الغزالي :

إن (وحدة الوجود) عنوان آخر للإلحاد فى وجود الله وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط . وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه .

ولو كانت الأرض لؤلؤاً ومرجاناً ما صح أن تكون ذات الله .

إن الصاروخ شيء غير الإنسان الذى أطلقه . وكذلك فالعالم شيء غير الرب الذى أبدعه وسيره . الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : لقد غزا مذهب وحدة الوجود عقول بعض الفلاسفة والصوفية الذين آفتهم أن طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التى يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشرى المخلوق لإدراك النسب بين الكائنات الطبيعية وحدها أولا . فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه كما هو المنتظر ذهبوا إلى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر وأنه يحل فيه وليس له وجود منفصل عنه وهكذا تجد الوثنية التى حاربتها الأديان والفلسفات سنداً عظيما من هذه الفلسفة .

وقد أرشدنا النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال فقال : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا .

وخطأ وحدة الوجود هو القول بأن الكل هو الله أو أن الله هو الكل والحقيقة أن الكل لله . فالله سبحانه وتعالى هو الحقيقة الوحيدة وراء هذا العالم، حقيقة لا نهائية سرمدية . فالله سبحانه لا يندمج فى العالم ولا يندمج العالم فيه ولا يندمج فى المادة . ولذلك فإن قول أصحاب مذهب وحدة الوجود بأن الله والمادة وحدة لا تتجزأ هو خروج عن مفهوم الإسلام الحق الذى يقول بأن كل مسبب لا بد له من سبب وكل معلول لا بد له من علة والمسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب وكذلك المعلول فإنه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة فإذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول .

والله تبارك وتعالى قديم وهو أول وهو آخر ، والحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات والمادة معلولة وحادثة ولها خالق فإذا قيل بقدم المادة شاركت المادة الله فى قدمه .

والمسلمون يؤمنون بثنائية الوجود : وهو أن الكون موجود ومنفصل عن الله . وأن الله تبارك وتعالى ذاتية قائمة مستقلة بذاتها عن الكون المادى . والكون كله ملكه وقبضته وهو المتصرف فيه وهو الذى يمسكه لحظة بعد أخرى ولو تخلى عنه سبحانه لانتهى . وبالجملة فإن الإسلام لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله (تعالى عما يقولون علواً كبيراً) هو مجموع هذه الموجودات .

وقد قال بمذهب وحدة الوجود ابن عربى وتأثر فى ذلك بنظرية أفلوطين ونظرية الحلاج فى اللاهوت والناسوت . ولا ريب أن كل ما يؤدى إلى وحدة الوجود أو الحلول لا صلة له بمفهوم الإسلام الأصيل . ولم يكن معروفاً على عهد السلف الصالح ولم يتكلم عنه أهل السنة وقد يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن عقيدة الإسلام .

ولقد كان النظر فى التصوف بهذا المعنى كما يقول الدكتور محمد البهى : سبباً لبلاء كثير من المسلمين وتكأة لكل إباحى يلتمس السبيل إلى نيل شهواته تحت ستار من العقائد أو ملحد يريد أن يهدم الإسلام بتصيد الشبهات أو معطل يحاول التخلص من تكاليف الكتاب والسنة .

(شخصية ابن عربى = وحدة الوجود) :

ابن عربى هو من أجرأ من عرف فى التعبير . وكانت مراوغته أبرز معالم أسلوبه المجازى الذى خدع به الكثيرين وسر ذلك هو خوفه من القتل . وحرصه على إفساد العقيدة . وقد فتن به كثيرون ويعد كتابه الفتوحات المكية وفصوص الحكم من أخطر كتاباته . وقد استمد نظريته فى وحدة الوجود من (الغنوصية – الأفلاطونية المحدثة – المسيحية) .

وقد أثارت فكرة وحدة الوجود موجة من الصراع الفكرى العنيف واعتبرها أصحاب الأصالة الإسلامية من المحدثين والفقهاء والمفسرين والصوفية عقيدة متناقضة مع عقيدة الإسلام تناقضاً مطلقاً بحيث لا يمكن التوفيق بينهما بأى وجه من الوجوه . وقد سمى اسين بلاسيوس كتابه عن ابن عربى : مفكر الإسلام المتنصر . ولا ريب أن ابن عربى اتخذ من أسلوب التصوير العاطفى والرمز والإشارة والاعتماد على مغريات الخيال فى التعبير طريقاً محفوفاً بالشوك بعيد الخطر فى نفس السموم وهو يراوح بين آرائه المسمومة وبين

آراء أهل السنة فيخدع بعض الناس . ويحاول بذلك أن يجد له ملتمساً إذا ما حوكم أو كشف زيفه وهذا أسلوب أكثر خداعاً من أسلوب الحلاج .

يقول الدكتور محمد يوسف موسى : محى الدين بن عربى ليس على الإطلاق فى تصوفه الفلسفى صوفياً مسلماً إنما يشبه فى التصوف ابن سينا فى الفلسفة . فابن سينا لا يمثل الإسلام فى شيء إنما هو امتداد للفلسفة اليونانية . كذلك محى الدين بن عربى ليس صوفياً مسلماً وإنما هو فيلسوف لا يمثل الإسلام فى شيء . إن تصوفه ينتهى بسرعة خطيرة إلى مذهب فلسفى يخالف الإسلام ويخالف كل دين . إنه ليس رجل دين ولا رجل زهد ، ولا تصوف . بل فيلسوف غنوصى صناعى مجمع موفق منسق ، فهو كأفلوطين وفيلون وقد بعدت فلسفته النظرية والأخلاقية عن الدين :

أولا : إنه بما ذهب إليه من القول (بوحدة الوجود) وما يستلزمه هذا القول من اعتبار العالم كله صوراً ومجالى ومظاهر لله الذى هو وحده الموجود قد أتى الأخلاق من قواعدها . إذ لا معنى للمسئولية الأخلاقية التى هى مناط الثواب والعقاب لأن للآثم أخلاقياً أن يقول : ما دام الذى اتخذنى مظهراً له فهو الذى فعل حقيقة ما يظن أنه فعل بى فكيف يستقيم أن أكون أنا المسئول .

ثانياً : يظهر أن محيى الدين بن عربى لا يتهيب أن يصل مذهبه إلى هذا الحد فيما يتصل بالأخلاق . إنه يرى أن الذى يصل إلى درجة المحبة الحق يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله بعد أن لازم زمناً طويلا حفظها . ولا ريب أن محيى الدين بن عربى قد جاوز أصالة الإسلام بهذين الأمرين اللذين عدا بهما شريعة الله ، وتلك أخطر جوانب دعوته أن يجعل ظاهر الشرع من نصيب العامة . وأن لأهل التصوف باطناً خاصاً لهم وحدهم . وهو فى هذا يصطنع أسلوب التأويل الذى اصطنعته الباطنية .

* * *

الفصل الثالث

الحـــلول والاتحـــاد

فكرة الحلول والاتحاد استمدها الصوفية من المسيحية التى استمدتها من الهندوكية . ذلك أن جانباً كبيراً من تعاليم المسيحية – على حد قول البيرونى – هندى المنشأ . ويقول ماكس مولر : أن بين الديانة المسيحية والديانة البوذية مشابهة فى بعض الوجوه ، وخاصة الحلول والتجسد ، وقد استمدت الثيوصوفيا الحديثة نظرية الحلول من المسيحية ، وهناك قرابة وثيقة بين التصوف الهندى والمسيحية المثلثة . وقد تطرق هذا الرأى إلى التصوف الفلسفى من الاسماعيليين القائلين بالحلول وآلهية الأئمة . ولذلك أخذ الصوفية عنهم القول بالإمام وهو المعروف عندهم بالقطب .

وقد قال الحلاج بالحلول المسيحى واستخدم مصطلحاته وبذلك أدخل إلى الإسلام المفاهيم المعارضة والمناقضة للتوحيد الخالص .

وعنه أخذ محيى الدين بن عربى نظرية الحلول التى أخذها عن المسيحية المتأثرة بالبوذية كما أخذ ابن عربى بفكرة التثليث وذكر عبارات الكلمة والحقيقة المحمدية وكلها مفاهيم مستقاة من الفلسفة المسيحية .

وقد أشار آسين بلاسيوس فى كتابه عن محى الدين بن عربى إلى تأثر النصرانية فى مفاهيمه . وقال إن ذلك الأصل المسيحى كانت تشوبه أحياناً بعض أفكار أجنبية أثرت فيه بطريق المحاورة والعدوى ، فتناولها ابن عربى بدون تمحيص ولا انتباه لأصلها . وهكذا اتصفت صوفيته فوق اتصافها بروحانية النصارى ببعض مظاهر يستند فيها إلى الأفلاطونية المحدثة الاسكندرية وإلى نظريات الغنوص وما فيها من مزيج مضطرب وإلى المزدكية الفارسية بل إلى البوذية الهندية .

ولا شك أن هذا المفهوم يخرج ابن عربى من دائرة مفهوم الإسلام الأصيل خروجاً تاماً .

وقد ركز المستشرقون حول فكرة الحلول والفناء والحب الإلهى لهذا الغرض . لأنهم يرون أن هذه المفاهيم من شأنها أن تخرج المسلمين عن حقيقة دينهم وعن التوحيد الخالص وعن الجهاد فى سبيل الله . ذلك أن الاعتقاد بالحلولية يسقط التكاليف كلها . ومن بينها الجهاد . ومفهوم الحب الإلهى ، وهو حب الفناء يصرف دعاته عن الاحتفاظ بما يسمى وحدة الجماعة الإسلامية التى يدعو الإسلام إلى صيانتها ودفع الاعتداء عليها . ولا ريب أن فكرة الحب الإلهى تناقض فكرة الجهاد فى سبيل الله تماماً كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة .

وقد تنبه المستشرقون إلى مدى خطر إذاعة هذه الآراء وترديدها ، ذلك لأن فكرة الاتحاد إنما هى فى جوهرها تعطيل لأحكام الشرع ، وأنها تنقض رسالة الإسلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وصفاته ، وهى لكونها تستتبع التناسخ تجعل من الله – علا وجل – موجوداً متنقلا وذلك يتنافى مع صفاته جل شأنه وهى البقاء والقيام بالنفس . كذلك فقد استهدف الاستشراق بالدعوة إلى الحلول والاتحاد الترويج لفكرة المسيحية نحو تأليه عيسى النبى عليه السلام والدعوة إلى شىء لا يقره الإسلام وهو التقاء الألوهية والبشرية أو الالتقاء بين الألوهية والنبوة فى إنسان وهذا ما ينشده رواد المؤامرة على الإسلام وغاية من أكبر غاياتهم .

إن مذهب الحلول يرى خلاف ما يرى الإسلام والدين الحق المنزل من رب العالمين أياً كان . ذلك إن مذهب الحلول يرى أن الله والعالم امتزجا وأن الله والقوى الداخلية الفاعلة فى العالم مترادفان ، وهذا ما يسمى بمذهب الاتحاد بين الله والعالم . أما الدين الحق المنزل فيرى أن الله والعالم ، والخالق والمخلوق ، والروح والمادة : عنصران اثنان لا عنصر واحد . ولا يقر الإسلام الواحدية التى تقول بأن الله والعالم والمادة والروح والخالق والمخلوق شىء واحد .

وقد رد المسلمون قول ابن عربى الذى قال أن ذاته وذات الله قد أصبحتا ذاتاً واحدة ، أو أن مظاهر العالم المختلفة هى مظاهر لله تعالى . أى ليس لله وجود إلا الوجود القائم بالمخلوقات . والمسلمون يؤمنون بأن الله هو صاحب

كل شيء وخالق كل شيء ومالك كل شيء ، ولكنه جل شأنه ليس حالا أو متحداً بهذه الأشياء كلها ولا بالإنسان . ولا يقر الإسلام مذهباً لحلول الله فى جسد الإنسان أو الأشياء .

وما قاله ابن عربى من أن الخالق يحل فيهم ، هذا المفهوم أجنبى عن الإسلام والعقيدة الإسلامية . والعقيدة الإسلامية تغايره كل المغايرة .

يقول الإمام ابن تيمية : إن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله ، وهذا تعدد وليس باتحاد ، وإما أن يستحيلا إلى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن أو النار والحديد فيلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله إذ الاستحالة تقتضى عدم ما كان موجوداً والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له والتى هى كمال ، والتى إذا عدمت كان ذلك نقصاً يتنزه الله تعالى عنه .

وقد أشار الإمام الغزالى فى كتابه (فضائح الباطنية) إلى فساد فكرة الحلول ووصفها بأنها ضرب من الحماقة . ذلك أن الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد . ومهما بلغت الروح الصوفى من الصفاء فكيف يمكن أن يدعى أن تكون هى هو . ولئن سلم أحد بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة فكيف لا يسلم به لجميع النفوس ، وعند ذلك يصبح العالم كله آلهة . فمن المحال أن يحل الله فى النفس وأن ينطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن فإن ذلك من صفات الأجسام .

وعن فكرة الاتحاد يقول الدكتور محمود قاسم مستشهداً بالإمام الغزالى : أن العقل الذى يبرهن لنا على بطلان فكرة الحلول هو الذى يبرهن لنا على أن فكرة الحلول أظهر بطلاناً لأن قول القائل أن العبد صار هو هو الرب كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات .

وطريقة البرهنة على فساد ذلك عند الغزالى هى أن يورد ثلاثة احتمالات لمثل هذا الاتحاد المزعوم وهى :

١ ـ أما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

٢ ـ وأما أن تفنى إحداهما وتبقى الأخرى .

٣ ـ وأما أن تفنيا معاً .

وفى الحالة الأولى لا يكون هناك اتحاد . وفى الثانية كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاداً بين موجود ومعدوم . وفى الثالثة لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام . والتناقض واضح فى جميع هذه الاحتمالات .

والعقل هو الذى يقرر وجود هذا التناقض والعقل نفسه هو الذى لا يستسيغ قبول هذا التناقض بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الاتحاد عند النصارى ، فأصل الاتحاد باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز .

• • •

(شخصية الحلاج = الحلول) :

وتكشف شخصية الحلاج حقيقة أمره ودعوته .

قال صاحب الفهرست أن الحلاج كان رجلا محتالا مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصوفية وينتحل ألفاظهم ويدعى عن أصحابه الألوهية والقول بالحلول : وكان يقول : (أنا الحق) وقد استغوى الحلاج العامة بمخاريق كان يعتمدها من قبل لنشاطه المستور بهذه الأعمال . يقول صاحب الفهرست : كان الحلاج جسوراً على السلاطين يروم انقلاب الدول . وقال إمام الحرمين الجوينى : أن الحلاج كان يريد قلب الدولة والتعرض لإفساد المملكة . وقال ابن خلكان أنه كان على اتصال وثيق بالقرامطة . كما أكثر التطواف فى بلاد الخلافة الإسلامية وهو يحمل الدعوة الشيعية والدعوة القرمطية وقد عدته الدولة خطراً عليها وأرادت التخلص منه .

والحلاج يقول بالحلول : أى حلول الله فى الإنسان . أى أنه هو والله شىء واحد كما تقول النصارى فى امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة الناسوتية : ولفظ الحلول يقابل عقيدة (التجسد) والتجسد يقوم على أساس ثنائية الطبيعة الإلهية أو كما يعبر عنه باللاهوت والناسوت الذى وصفت به شخصية المسيح

فى المفهوم النصرانى . ومن شبهات الحلاج قوله : إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن من بلغ الغاية القصوى فى الولاية سقطت عنه الشرائع كلها وحلت له المحرمات . ولا ريب أن هذا يخرج مفهوم الحلاج عن دائرة الإسلام تماماً . وقد قال الغزالى عن نظرية الحلاج : أن اتحاد العبد مع الرب هذه قصة مفضوحة عقلا غير مقبولة نقلا .

وقد وصف الحلاج بأنه رجل مجوسى الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسى لينفذ بهم إلى تحقيق غايته فأدى ذلك إلى قتله . وذكر إمام الحرمين فى كتابه الشامل : أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج .

وقد اتهم بمعارضة القرآن .

واعترف نيكلسون بأن الشك حام حول الحلاج وأنه كان يدعو للقرامطة ويبشر بمذهبه المؤمنين والكفرة على حد سواء . ومن هذا كان الحكم عليه بالموت عادلا . والمعروف أن الحلاج حوكم أمام الخليفة المقتدر وكانت قائمة اتهاماته هى :

أولا : مراسلاته السرية مع القرامطة أعداء الخلافة والدين .

ثانياً : قوله أن الحج ليس بفرض دينى عام .

ولقد ترك المسلمون الحلاج سنوات طويلة ينادى فى سوق بغداد أنا الله ، أنا الحق ، سبحانى ما أعظم شأنى ، ما فى الجبة إلا الله . لقد تركوه فى شطحه يتكلم بهذا فى حالات صحوه .

يقول الدكتور النشار : ولم يقتل الحلاج لأنه أعلن الاتحاد بالله . ولكن الوزير حامد بن عبد العزيز قتله أو طلب من الفقهاء الفتوى بقتله ، بسبب سياسى . أو بمعنى أدق بسبب علمى ، أنه فى الفترة الأخيرة من حياته نادى بإيقاف ركن من أركان الإسلام العملية وهو الحج ، نادى الحلاج بالحج بالهمة . والحج بالهمة نوع من المعراج الصوفى تنتقل فيه النفس من مكان إلى مكان مخترقة الحجب واصلة إلى سدرتها الأخيرة ، وحين نادى بهذا لم

يقتله المسلمون . ولكن حين ابتنى كعبة فى بيته ودعا المسلمين أن يحجوا إليها تقدم سيف الشرع إليه فقتله . وقد أشار إلى قتله بسبب هذا معظم مؤرخى التصوف . بل إننا نجد محيى الدين بن عربى يذكر هذا . وأفتى الفقهاء بقتله لأنه أبطل الحج وكان قد طلب أن ترفع إليه الزكاة والصدقة وحاول إبطال قواعد العبادات .

وقد أشار السيد رشيد رضا (المنار ج ٩ ص ٥٤) إلى ما ادعى الحلاج من مواطآت كان الغرض أن يلقى فى روع العامة وأشباه العامة أنه ممن آثرهم الله بعلم الغيب والقدرة على المعجز من الأمور . وقال أن أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطئات والمواطئات جمع مواطأة وهى الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر . والمخاريق جميع مخراق . ومواطآت الحلاج أنه كان يتفق مع أناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى الكرامات . وقد اكتشف ذلك فى عصره كما بينه التنوخى فى جامع التواريخ (نشوار المحاضرة) ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وإنما هو مخبر فقال له الحلاج : اشته على ما شئت . فقال أريد سمكاً طرياً . وكانوا فى بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتاً خالياً من داره وأغلق عليه بابه وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وبيده سمكة تضطرب زعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال فمضيت إلى البطائح . فمضيت إلى الأهواز وهذا الطين حتى أخذت هذه .

فقال الرجل : تدعنى أدخل البيت فإن لم تنكشف لى حيلة فيه آمنت بك . فقال : شأنك . فدخل وبعد عناء وتنقيب اهتدى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم وفيها صنوف الفاكهة والثمار والنوار وفيها ما ليس فى وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزائن مليحة فيها أنواع الأطعمة الناضجة والحوائج لما يهيأ بسرعة ورأى فى الدار بركة ماء مملوءة سمكاً فأخذ واحدة منها وخرج فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة فى وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقتلنه أن حدث أحداً بذلك ولو فى تخوم الأرض ولم يحدث بها الرجل إلا بعد قتله لعلمه أنه لو أمر أحد المفتونين به أن يقتله فإنه يفعل .

* * *

الفصل الرابع

الإشــــراق

١ — مذهب الإشراق مذهب يونانى مستفاد من نظرية الأفلاطونية المحدثة قال به السهروردى . وهو جماع شطائر من الفلسفة اليونانية الوثنية والفلسفة المجوسية . وجماع آراء وتيارات راجت عند السريان وانتقلت إلى الفكر الإسلامى فى عصر الترجمة . وتنسب الحكمة الإشراقية إلى أفلاطون ثم إلى دعاة الأفلاطونية الجديدة فى مدرسة الإسكندرية ، ومذهب الإشراق خارج تماماً عن مفهوم الإسلام ويعبر عن الله بالنور ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من الله . وهو ما لم يقل به القرآن أو رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصحابة .

ولقد اهتمت طائفة من المستشرقين بالسهروردى ونظريته . ونبشوا الكتب القديمة التى كشف المسلمون عن زيف مفاهيمها وتجاوزوها إبان عصر الترجمة وأعادوها جذعة بإحياء هذه المفاهيم مرة أخرى وطرحها فى أفق الفكر الإسلامى لإثارة الشبهات والشكوك فى نفوس بعض المسلمين الذين لم يكتمل مفهومهم الأصيل ، وكان بروكلمن و ا. رتين وفادى برج من أوائل هؤلاء فترجموا (هياكل النور) للسهروردى وقام ماسنيوم صديق الحلاج بالاهتمام برسائل السهروردى التى جمعها تحت اسم الحكمة المشرقية وأولى ذلك اهتماماً كبيراً بأول كراوس وهنرى كوربان وقال هؤلاء أن شخصية السهروردى وكتبه تمثلان لحظات جوهرية فى تاريخ الفكر الإسلامى

وتابعهم فى ترجمة ذلك والاهتمام به عبد الرحمن بدوى وإبراهيم مدكور وأحمد أمين وقد وصف رجال الأصالة الإسلامية مفهوم السهروردى بأنه زائف ومضلل ووافد وليس من مفهوم الإسلام ونسبوه إلى التعطيل واتهموه بانحلال العقيدة وخاصة فى قوله بأن الله قادر على أن يرسل نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم وأنه كان يعنى نفسه .

ويعتبر المذهب الإشراقى فى جملته مذهباً أفلاطونياً حمل فى جوانبه ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية الإسلامية السابقة عليه وخاصة فى كتابات ابن سينا ، ويدور المذهب حول فكرة الإشراق . وهو يصف الله جل شأنه بنور الأنوار . ويستعمل نظرية العقول العشرة : الوثنية . اليونانية . تحت اسم الأنوار . وقد ابتدع عالماً أوسط بين العالم الحسى والعالم العقلى أسماه البرزخ . وأخذ هذا من أفلاطون .

والمذهب خليط من الفلسفة اليونانية والفلسفة الفارسية وكلها وثنية لا تؤمن بالله الواحد . وتتعارض مع مفهوم التوحيد الإسلامى . وهناك اتصال واضح بين ابن عربى والحلاج والسهروردى فى الاعتماد على الفكر القديم الهلينى والغنوصى معاً .

وشخصية السهروردى تعطى المفهوم الحقيقى لمذهبه . وقد وصفه أحد المدافعين عنه والناشرين لفكره : سامى الكيلانى . بما يكفى فى تصوير حقيقته قال : لم يكن مظهره مما يلقى الهيبة أو الاحترام فى نفوس مستقبليه . أهمل نفسه أو كاد . وبلغ به الإهمال حتى كان على حد قول بعض من أرخ له : (زرى الخلقة دنس الثياب . وسخ البدن . لا يغسل له ثوباً ولا جسما ولا يداً ولا يقص ظفراً أو شعراً) وزادوا على ذلك فقالوا : (إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه وأن كل من يراه يهرب منه) .

هذه الصورة تدل على العقلية . وتدل على الفكر . ولم يكن دعاة الإسلام يوماً إلا مثالا للنظافة والكمال والخلق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف قبل قدومه بريح المسك . وقد وصفه تلميذه الشهرزورى صاحب كتاب نزهة الأرواح بأنه كان فى مستوى العامة يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة . وأنه كان يميل إلى السماع وكان يبدى احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية . وقد أشارت كل المصادر التى كتبت عنه إلى(قذارته) ومنها آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ . وكانت آراؤه خارجة على المفهوم الأصيل للإسلام ، وقد كشفت مناظراته مع العلماء عن جهل وشك وشعوذة وتضارب حتى اتهموه بالزيغ والانحلال العقيدة .

وقد خلط فى عقله تلك الفلسفات الإغريقية والهندية والفارسية . وأراد أن يبدع من هذا المزيج ما أسماه الفلسفة الإشراقية .

ولم يكن هذا كله ليضع السهروردى فى الموضع الذى وضع فيه لولا موقفه من خصوم الإسلام وتعاونه معهم ومراسلته إياهم .

يقول الدكتور عمر فروخ : أن التهمة الظاهرة هى الإلحاد ولكن يبدو أن السبب الحقيقى هو أنه أثار شكوك الدولة القائمة بكثرة تطوافه ونشاطه السياسى . ويروى سيف الدين الآمدى قال : اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لا بد أن أملك الأرض فقلت : لعلك تعنى بالعلم . قال لا . وكان لا يرجع عما وقع فى نفسه من أن يملك الأرض فعلا وكان مصدر محاكمته وقتله عام ٦٣٢ هـ .

ولا ريب أن مذهب الإشراق بعيد عن جوهر الإسلام فقد قام مفهوم الإسلام الأصيل على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة واتخذ من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله نموذجاً تطبيقياً لا يتعداه المسلمون إلى هوى أو بدعة . ولا يطمعون فى زيادة عنه . مؤمنين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم عن أمته شيئاً من دين الله . وأنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق وأنه هو الذى حذر المسلمين من دخول جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم : يعنى هذه الوثنيات من الفكر البشرى الزائف الذى قدم من الإغريق وفارس والهند .

٢ — نظرية الفناء : فكرة هندوسية ومستمدة من البوذية . وهى تقول بفناء النهائى فى اللانهائى . وخطوها أنها تجعل الخالق والمخلوق شيئاً واحداً .

ويقول الباحثون أن كلام الصوفية فى الفناء أدى بهم إلى القول بالاتحاد ودخل إلى الفلسفة الصوفية من كتب البوذية التى أثرت فى ابن سبعين السشترى الذى يقول أن المحب يفنى فى محبوبه حتى لا يكون فرق بين محب ومحبوب .

ولا يقر الإسلام مذهباً بفناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية .

٣ — فكرة الإنسان الكامل تأثر فيها المتصوفة بشعر الفرس وتبنوا ما فيه من نزعات حلولية التقت عندهم بفكرة وحدة الوجود اليونانية وتبلورت

فى شعر ابن الفارض وابن عربى . وبلغت نهايتها فى نظرية الإنسان الكامل لابن عربى . وليست فكرة الإنسان الكامل إسلامية المصدر فهى مما ورد فى كلام أرسطو وأفلاطون ثم رددها الفارابى وجماعة إخوان الصفا واستعملها محيى الدين بن عربى فى مؤلفاته ، وهى محور تعاليم البرهمية . ومصدرها المانوية الإيرانية القديمة . كما ترد نفس هذه الفكرة فى فلسفة فيلون وفى الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله .

وتستهدف فكرة الإنسان الكامل إيجاد قطب أو وسيط للوصول إلى الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن هذه الفكرة يسقطها الإسلام ويرميها بالزيف والفساد إذ لا يقر الإسلام وجود وسيط بين الخالق تبارك وتعالى وبين الإنسان .

ويتصل بهذه النظرية الكلام عن الحقيقة المحمدية وتصوير النبى صلى الله عليه وسلم بصورة غريبة حقاً بعيدة عن الصفة التى يصفه بها القرآن والتى يصفه بها الصحابة وكبار التابعين .

ابن الفارض :

فهم ابن تيمية مذهب ابن الفارض على أنه وحدة وجودية مبنية على الحلول والاتحاد وعنده : أن مثل القائلين بوحدة الوجود كمثل النصارى .

وأن فى قول هؤلاء من الكفر والضلال ما هو أعظم مما فى قول اليهود والنصارى . وقال ابن تيمية أن موقف ابن الفارض لم يكن موافقاً لتعاليم الإسلام ولا ما عرف عن النبى والصحابة والتابعين ومن إلى أولئك جميعاً من السلف الصالح وأن القول بوحدة الوجود والحلول هو من سوء الاعتقاد ما ينافى الإسلام الصحيح .

وهذا الذى يراه ابن تيمية فى ابن الفارض هو رأيه فى ابن سبعين والحلاج والكرمانى وعفيف الدين التلمسانى من القائلين بوحدة الوجود التى يصدر أصحابها عن أصلين باطلين تخالفان دين الإسلام مخالفتهما للمعقول والمنقول ، وأحد هذين الأصلين هو أن الحلول والاتحاد وما يقاربهما من القول بوحدة الوجود هو مذهب القائلين بأن الوجود واحد لا فرق فى ذلك بين الوجود الواجب للخالق والوجود الممكن للمخلوق .

أما ثانى الأصلين فهو الاحتجاج بالقدر على فعل المحظور ، والقدر فى رأى ابن تيمية يجب الإيمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده .

وقد ناقش هذا الاتجاه وأدانه كثيرون . منهم ابن حجر العسقلانى وبرهان الدين إبراهيم البقاعى الذى ألف كتابين تناول فيهما ابن عربى وابن الفارض وأبان عن ضلال مذهبهما وفساد عقيدتهما وانحلال خلقهما .

- تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى .
- تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد .

وقال عضد الدين الأيجى صاحب المواقف عن ابن عربى أنه كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش . وأن قولهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى يعنى أنه لا نبى ولا رسول ولا مرسل إليه .

وقال أن ابن عربى له خداع كثير غر به خلقاً فأثنى عليه لذلك قوم من المؤرخين خفى عليهم أمره وأن العلماء اتفقوا على تكفيره بحيث أصبح ذلك أمراً إجماعياً . وقال أنه لم يوجد لابن الفارض فى كل أعصره من ذكره بحالة ثناء عليه بعدالة أو ولاية ولا ظهر منه علم من العلوم الدينية ولا مدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة واحدة مع كثرة شعره فدل بذلك على سوء طويته ، وأن القدح قد نقل فيه نقلا قطعياً عن محبيه ومبغضيه .

وأن شراح تائيته وكلهم من التابعين لطريقته ، والمنتقدين عليه من أهل السنة ، وأهل زمانه وكلهم من أهل الشريعة . رموه بالفسق والإباحية . وقد عدد البقاعى نحواً من أربعين عالماً كلهم من دعائم الدين من عصر ابن الفارض إلى عصر البقاعى وكلهم يرمى الرجل بما ينظمه فى سلك الكفر أو الزنادقة أو الملحدين أو الإباحيين ويخرج مذهبه فيسلكه فى عداد المذاهب الضالة والعقائد الفاسدة . ومن هؤلاء عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد وتقى الدين السبكى وبدر الدين بن جماعة وزين الدين الحنفى . ويتهم البقاعى ابن الفارض وابن عربى فى خلقهما ويؤيد اتهامه بما أشار إليه صاحب المواقف من أنهما كانا يصطنعان الحشيش . ومن أن ما انتهيا إليه من تقرير الوحدة ونفى الأثنينية إنما هو ضرب من الوهم والخيال الذى يحصل فى العقل من فعل الحشيش .

وأن ابن الفارض من المعتنقين لوحدة الوجود والقائلين بالاتحاد والحلول، وهذا يجعله خارجاً على تعاليم الكتاب والسنة. وأن ابن الفارض يضع ما يسميه الحقيقة المحمدية فى مقابل الحقيقة الإلهية.

وقال إن نظرية اللاهوت والناسوت التى قال بها الحلاج، قال بها ابن عربى وابن الفارض وهى تمثل العنصر المسيحى الذى اختلط بالفكر الفلسفى الصوفى. وأنه ترديد لقول اليعاقبة الذين كانوا يرون أن المسيح هو الله والإنسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح. وأن اللاهوت والناسوت لم يردا فى كلام العرب ولا فى الشرع، وهى من موضوعات النصارى: قال تعالى: «**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ...**».

ثم استعملها الحلاج. استعمل هذا اللفظ وأكثر من استعماله فكان الحلاج بحق ممثلا لهذا الأثر المسيحى فى النصوص الفلسفية. وصلة ذلك بالأفلاطونية المحدثة.

(ابن الفارض والحب الإلهى: دكتور مصطفى حلمى)

وقد أولى المستشرقون ابن الفارض اهتماماً واسعاً. وترجم اميل در منجم ما أسماه (خمرية سلطان العاشقين) وقدم لها مقدمة عن التصوف وقال أنها ستلقى ما لا يقل عما لقيته رباعيات الخيام من الحظوة.

وقد ترجم شعر ابن الفارض إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر. وإلى الإيطالية والألمانية والإنجليزية.

(٣)

حاول التصوف الفلسفى تزييف مفهوم الإسلام فى عدة مواضع:

أولا: لا يقر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله فى جسد إنسان أو فناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية كما لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله (تبارك وتعالى) هو مجموع هذه الموجودات. والإسلام يقول بأثنينية الوجود، أى الله والعالم، فالله خالق والعالم مخلوق. والله مدبر والعالم مدبر. وليس الله حالا فى العالم وإنما هو خالقه ومدبره والله بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم عما يعملون.

ثانياً : لا يقر الإسلام القول بإسقاط التكليف ورفع فرضية أداء العبادات عن الفرد — أى فرد — بدعوى أنه من وصل إلى الله تسقط عنه التكاليف ، وهذا القول لم يعرفه المسلمون أيام رسول الله وهم قمة المسلمين فى كل عصر . فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاش المسلمون حياتهم يؤدون العبادات والفروض دون أن تسقط عنهم .

ثالثاً : لا يقر الإسلام عقيدة الجبرية ولا فكرة الزهد . بمعنى السلبية والانقطاع عن الجهاد والعمل . فإن الإسلام يدعو إلى بناء الإرادة والكسب وينكر الانصراف عن الدنيا .

رابعاً : لا يقر الإسلام دعوة التصوف الفلسفى بالتحول من الخوف من الله إلى الرجاء فيه . وإنما يقر بقاء الخوف والرجاء معاً فى نفس المسلم يتراوحان ويجيئان .

خامساً : فساد القول بأن التصوف لغة عالمية أو أن التصوف أدخل مجموعات كثيرة من الوثنيين فى الإسلام أو بدعوى أنه أعطى الإسلام مادة الطراوة فى مجتمع بلغ غاية الجفاف .

وهذه كلها من سموم الاستشراق والغزو الثقافى . أما التصوف الذى أدخل الناس فى الإسلام فهو التصوف الأصيل وليس التصوف الفلسفى الزائف ، أما مسألة الطراوة والجفاف . فالإسلام لا يعرفها لأنه يجمع بين العقل والقلب .

أما التصوف الذى يقره الإسلام فهو الذى لا ينكر أصلا من أصوله ولا فرعاً من فروعه .

فالإسلام لا يقر الدعوة للانفصال عن الدنيا أو تحقيرها أو اعتزال الناس أو تعذيب البدن بتحريم الطيبات كما يحرم فى نفس الوقت الترف والإسراف كما لا يقر رفع التكليف أو إلغاء الشريعة فى أى طور من أطوار المسلم .

وقد ظلت الفطرة الإسلامية دائماً بمنأى عن تعقيدات التصوف الفلسفى . وأن هذه القضايا قد هزمت منذ أثيرت وتحقق فسادها . وتخلص الفكر الإسلامى منها ومضى فى طريقه ، حتى جاء الغزو الثقافى لابتعاثها من جديد .

(٤)

لا ريب أن هناك شبهات تكمن وراء تاريخ التصوف الفلسفي . فقد ارتبط هذا التصوف بمواقف سياسية تؤكد أنه كان أسلوباً من العمل لهدم الدولة الإسلامية . وكان ستاراً لحركات هادمة من حركات الباطنية أوالقرامطة أو الزنج أو غيرهم . وإنما استهدفت صرف العامة إليهم . وقد حاول الاستعمار في العصر الحديث الاستعانة بالتصوف لمثل هذه الغاية ولصرف المسلمين عن حقيقة دينهم وإغراقهم في جو من الغموض والتكهنات بما يرخي عزيمتهم عن الكفاح لتحرير أوطانهم وعن الجهاد وعن الوضوح الإسلامي في فهم الأمور وعن القوة . وقد كان مستشرقو التصوف الفلسفي جزءاً من المخطط السياسي الاستعماري .

وإذا كان الحلاج والسهروردي قد قتلا فهما لم يقتلا لرأيهما وإنما قتلا لتآمرهما .

(٥)

يقوم المفهوم الإسلامي الأصيل على :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء واحد لا شريك له . خالق كل شيء سواء أكان ذلك الشيء طاقة من الطاقات المحضة كالمغناطيس والأرواح والملائكة أو مادة من المواد كالجمادات والنباتات والحيوانات.

ثانياً : أن الخالق الأعظم ليس هو جزء من مخلوقاته ولا هي جزء منه ولا تماثله في ذاته وصفاته وأفعاله . وهي مخلوقة بعلمه وإرادته وقدرته .

ثالثاً : إن دلائل وجود الخالق العظيم تبدو في مخلوقاته لأنها من آثار قدرته . ومخلوقاته مهما أوتيت من علم فإنها لا تحيط به علماً .

رابعاً : دعا الإسلام إلى الأخذ بألوان من العبادات والمجاهدات لتعميق مفهوم التقوى والورع . وهذا لا يعني بأي حال الزهادة بمعنى الانصراف عن الدنيا أو الانقطاع إلى العبادة وترك العمل والكسب ولم يحرم الإسلام سوى الانغماس في الشهوات التي تشغل القلب عن ذكر الله .

خامساً : لا يقر الإسلام إسقاط الشرائع والفرائض لأي سبب من الأسباب

وما دعا إليه الحلاج من إسقاط الشرائع يخرجه هو عن الإسلام . وليست رسوم الشريعة فى الحقيقة مظاهر تختلف عن أعمال القلوب ولكن العبادات لها مظاهرها التى هى جزء لا يتجزأ من مداخلها .

(٦)

إن فكرة التقاء الأديان أو أن التصوف لغة عالمية هى من أخطر الدعوات وأشدها فساداً . وأبعدها عن مفهوم الإسلام . وهى ما يقول به أصحاب وحدة الوجود والتى يروج لها الاستشراق الذى دعا إلى انبعاث الفكر الفلسفى الصوفى فى العصر الحديث . فليس صحيحاً أن الاختلاف فى الأديان اختلاف فى المظاهر . وليس صحيحاً أنها جميعاً تسلك طريقاً إلى الله . فإن مفهوم التوحيد الخالص الذى يبرىء الله من التعدد والشريك لا يوجد إلا فى مفهوم الإسلام .

وكل أشعار جلال الرومى وكتابات ابن عربى فى هذا الصدد زائفة ومضللة وليس صحيحاً أن الإيمان والكفر لا يختلفان أو أن أصحاب الأديان وعبدة الأصنام متفقون فى هدف واحد . أو أن التوراة والقرآن واحدة . ونحن نعرف أن التوراة كتبها أحبار اليهود وليست هى كتاب الله المنزل على سيدنا موسى .

كذلك فإن من أسوأ ما يدعو إليه دعاة التغريب التهويل فى الخلاف بين الصوفية والفقهاء ، وهو خلاف زمنى انتهى وصفى ، لم يعد الآن موجوداً كذلك فإن القول بتقسيم المسلمين إلى طوائف وجعل أصحاب مفهوم الأصالة الإسلامية طائفة . هذا لا ريب يمثل مغالطة شديدة فإن أهل السنة يمثلون تسعين فى المائة من تعداد المسلمين وهم ليسوا طائفة بمعنى الفرقة ، ولكنهم هم الأغلبية الساحقة التى تمثل جماعة الأصالة الذين يستمدون مفهومهم من القرآن والسنة الصحيحة .

كذلك لا يقر الإسلام المبالغة فى الحديث عن كرامات الأولياء وإتيانهم بالخوارق ، ويرى أن هذه أمور خاصة تتعلق بالأفراد وليس لها أثرها أو تأثيرها فى المجتمع . وأنها لا تحول مطلقاً دون أداء الفروض العبادية والالتزام بالشريعة ، وأن المسلم مهما بلغ من درجات الإيمان أو الولاية لا يسقط ذلك عنه فرضاً أو التزاماً .

يقف الإسلام من التصوف الفلسفي موقفه من الاعتزال تماماً . فكلاهما لا يمثل الإسلام ولا يعبر عنه . فالصوفية يتخذون القلب أداة للمعرفة وقد أنكروا على العقل مقدرته على فهم الألوهية وأسرارها وهم يتحصنون بالقلب في مواجهة المعتزلة الذين يتحصنون بالعقل .

والواقع أن مفهوم المعرفة الإسلامى الأصيل : يجمع بين العقل والقلب . فالقلب يدرك الغيب والوحى . والعقل يدرك الشهادة ويصادق الوحى .

ولا ريب أن الاستشراق ودعوة التغريب والمؤامرة على الإسلام من شأنها أن تفصل بين المفهومين وتجعلهما فى موقف التضارب والصراع فيقف جماعة من المستشرقين إلى جانب المعتزلة يعلون من شأن العقل . ويقف جماعة منهم إلى جانب الصوفية يمجدون الحدس والوجدان .

والإسلام فى مفهومه الأصيل يجمع بين القلب والعقل والشريعة والحقيقة وترابط الظاهر والباطن . ويؤكد أنه ليس هناك معرفة عن طريق القلب مستقلة أو معرفة عن طريق العقل مستقلة أبداً . وإنما هناك مفهوم جامع هو الإسلام .

ويؤكد الإسلام فكرة الاستواء فى السر والعلن حتى يكون باطن المرء متحققاً فى ظاهره وحتى لا يكون هناك فاصل بين ما يسمى بالباطن والظاهر سواء فيما بين الإنسان وبين الله أو بين الإنسان والناس ويقرر أن أعمال الباطن مبدأ لأعمال الظاهر وأعمال الظاهر آثار لها دلالتها . فإن كان الرجل صالحاً كانت الآثار صالحة . يقول ابن خلدون : للشريعة حكم على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم ، وحكم عليهم من حيث باطن أعمالهم ، لا ما يموه به بعض الباطنية ويزخرفونه من أقوال سفسافة ناقضة لمعاقل الشريعة . فالشارع لم يظهر حكماً ويبطن آخر : « **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً** » .

ولا ريب أن طريق الحق واحد ، أما الباطل فسبله كثيرة . لهذا اختلفت مذاهب ونظريات الانحراف والمنحرفين وبدا طريق الله واضحاً : « **وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . .** » .

كما يؤكد الإسلام بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم . تلك البشرية التي هي توكيد للحقيقة الإلهية حقيقة للتوحيد : **« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنمـا إلهكم إله واحد . . . »** . وقد فرق الإسلام بين الألوهية وبين النبوة . وفرق بين عصمة الأنبياء وبين قدرات غير الأنبياء مهما كانوا من صالحين وأقطاب وأولياء فهي لا تتسم بالعصمة مطلقاً .

وكذلك ربط الإسلام بين الحقيقة والشريعة في مفهومه الجامع : يقول الإمام الطرطوشي : زادوا في الدين أمراً هو هدم للدين ، هو زعمهم أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر . فإذا اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر قالوا في المجرم أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه . وفي المنكر أنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه ، وكأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين وأنه يحاسبهم بوجهين ويعاملهم معاملتين .

ولا ريب أن السنة ترشد في صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة كلتيهما تنبعثان مباشرة من تعاليم الرسول وأنهما متكاملتين .

ويصدق هنا القول : بأنه لو كانت هناك تعاليم سرية في الإسلام تخفى وتطوى لعرف العلماء والفقهاء هذه التعاليم ولتحدث عنها القرآن المجيد .

(٨)

هذه المفاهيم أدخلها إلى الإسلام أتباع المجوسية لتحريف الإسلام في ظروف الضعف والانهيار ، وذلك في حملة الحقد على قوة الإسلام وبرغبة هدمه . وواصل المستشرقون هذه الحملة وأتباعهم من دعاة التغريب لنفس الهدف .

وقد قطع الشيخ عبد القادر الجيلاني في هذا الأمر بقوله :

كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة : الشرع هو ظاهرها والشرع هو باطنها ، وإذا رأيت الرجل يطير في الهواء فلا تعتبره حتى تزن أقواله بميزان الشرع) .

ولا ريب أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية في الإسلام » كان شجباً للانحراف نحو الزهد المسيحي . وقال عليه الصلاة والسلام : « جئتكم بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » وقد عمل الفكر الإسلامي على توالي العصور على تحرير نفسه من هذه المداخلات الوثنية المسيحية واليهودية والفارسية والهندية .



الباب الثالث

إحياء الفكر الفلسفى

(١)

وقف الإسلام من تراث الفلسفة المترجم من اليونانية والفارسية والهندية موقفاً واضحاً صريحاً هو أن هذه المدرسة التى اشتغلت بالفلسفة وعلى رأسها (الكندى وابن سينا والفارابى) هى امتداد للمدرسة اليونانية الإغريقية وأنها ليست نتاجاً إسلامياً خالصاً . وأن للإسلام منطلقه إلى الفكر الفلسفى الإسلامى عن الطريق الذى بدأه الإمام الشافعى بكتابه (علم أصول الفقه) . وقد تحدد موقف المسلمين من الفلسفة المشائية اليونانية وغيرها منذ اليوم الأول لترجمتها ، ووقف منها أهل الأصالة الإسلامية موقف المعارضة الصريحة والشجب الكامل .

وحكم الإسلام على هذا الركام الضخم المتخلف عن (ما قبل الإسلام) سواء من الفكر الغنوصى الشرقى أو الوثنى الهلينى هو أنه لا يمثل المفهوم الأصيل ولا يعتبر من الفكر الإسلامى . وإنما جاء الإسلام لرده والكشف عن زيفه وإبطال دعواه القائمة على الأهواء البشرية الطامعة إلى الخروج عن حدود الله والفطرة الإنسانية . وأن البحث الذى قام به علماء المسلمين و (الشافعى ، الغزالى ، ابن تيمية) فى مقدمتهم قد انتهى إلى إثبات شخصية إسلامية متميزة فى مجال المعرفة والمنطق تختلف اختلافاً واضحاً عن المفهوم اليونانى الهلينى ، كما كشفت عن أن المحاولة التى قام بها ابن سينا والفارابى فى تقريب أو تطويع أو ربط الفلسفة اليونانية بالتوحيد الإسلامى هى محاولة فشلت وعجزت عن أن تحقق شيئاً . لأنها حاولت أن تصهر الوثنية اليونانية وعلم الأصنام فى إطار التوحيد . وأنها اعتمدت على مصادر ثبت فساد نسبتها إلى أصحابها وقد دخلها تحريف كثير . ولقد صنى المنهج الإسلامى الأصيل هذا الركام الذى ترجم من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية جميعاً وحكم عليه فى إبانه وتجاوزه وتحرر من سلطانه . فلما جاء العصر الحديث حرصت

قوى الاستشراق والتغريب والغزو الثقافى على إحيائه من جديد وإثارة قضاياه وتصوير الفكر الإسلامى على أنه فكر قد تشكل متأثراً بالفكر اليونانى وأن أرسطو كان له عند المسلمين مكان كبير . ومنذ أن جاء المستشرقون يدرسون مادة الفلسفة فى الجامعة يفرضون مفهوماً زائفاً هو أن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . ثم يجىء من يترجم مؤلفات أرسطو بدعوى أن هذا الفيلسوف كان له أثر فى الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية فى إبان النهضة وأن من شأنه أن يجدد النهضة التى يعيشها العالم الإسلامى المعاصر .

ولم يكن هذا القول صحيحاً . لا فى جملته ولا فى تفصيله . ذلك أن الفكر الإسلامى الأصيل قد رد أرسطو والفكر اليونانى كله وحكم بأنه فكر مجتمع عبودى يختلف اختلافاً واضحاً عن المجتمع الإسلامى . ولكن تيار التغريب غذى هذا الاتجاه ونماه على نحو أغرى به الكثيرين . وظن بعض المثقفين أن للفكر اليونانى مكانة وأثراً فى الفكر الإسلامى من قبل جديرة بأن تجعل لوليده الفكر الغربى أثراً فى الفكر الإسلامى الحديث .

وتلك هى أخطر الدعاوى التى حملها الدكتور طه حسين وهى قمة المؤامرة على الإسلام . ولقد كان فى تقدير حركة التغريب والغزو الثقافى أن تحدث هذا العمل فى العصر الحديث ما أحدثت الترجمة فى العصر الإسلامى الأول . وكيف أغرق الفكر الفلسفى اليونانى إذ ذاك فكر الإسلام فى دوامة عريضة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر . ولذلك عمدوا إلى تجديد بعث الفلسفة اليونانية التى تسمى علم الأصنام عند اليونان وفلسفات المجوسية والمزدكية والبابكية وغيرها من الفكر الشرقى الغنوصى . وعنوا بفلسفة التصوف القائمة على وحدة الوجود والحلول والإشراق . وجددوا الأبحاث القديمة المدفونة التى رفضها المسلمون ودحضوها وكشفوا زيفها وفسادها وأعادوا النظر فيها من جديد حتى نرى اليوم هذه الكتابات المسمومة التى تحاول أن تصف الفكر الإسلامى المعاصر بالقصور لأنه متخلف فى مجال الفلسفة . ونرى هذه المحاولات الجارية لإنشاء ما يسمى فلسفة عربية . حتى يكون لها طريق مستقل عن الفلسفة الإسلامية . وكل هذا يستهدف (احتواء) الفكر الإسلامى بالفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة على السواء . ويرون أن شبلى شميل هو الذى بدأ طريق الفلسفة العربية حين دعا إلى مذهب

داروين بتفسير يخبر . هذا المفهوم المادي الشديد الحملة على الدين والأخلاق والعقائد الذي يستهدف أن يسقط الفكر الإسلامي الحديث فيما تحاماه الفكر الإسلامي في الماضي حين تحرر من أسر الفلسفات الوثنية والمادية وأعاد تركيب نفسه وفق مفهوم الأصالة الإسلامية تحت اسم (مذهب السنة والجماعة) ، وما زالت هذه المحاولات كلها التي تتجدد والتي يقودها جميل صليبا وعبد الرحمن بدوي وجورج حنا ولويس عوض وزكي نجيب محمود ودعاة الماركسية والتفسير المادي للتاريخ ودعاة الوجودية تستهدف هذا الغرض معتبرين أن (الفكر العربي الحديث) هو فكر مستقل لا صلة له بالإسلام وإنما هو ابن الحملة الفرنسية والإرساليات التبشيرية المسيحية اللبنانية ، ولذلك فهو حر في أن ينطلق بعيداً عن الإسلام وأن يخوض تجربة الاحتزاء الغربي الماركسي الليبرالي الوجودي . . . إلخ .

ومن هنا كانت الحملة على الشافعي وابن حنبل والأشعري والغزالي وابن تيمية لأنهم هم القذى في عيون كل محاولات احتواء وتغريب الفكر الإسلامي . ولأنهم هم الذين فتحوا الطريق إلى أصالة الفكر الإسلامي . وسوف يخوض المفكرون المسلمون التجربة مرة أخرى على نفس مبادئ الإسلام على النحو الذي مهد له الشيخ مصطفى عبد الرازق وسار فيه بخطوات واسعة الدكتور سامي النشار ومحمد علي زيان . وهذه المدرسة ومن تابعها على طريق الإسلام الصحيح .

ومن هنا كانت مؤامرة الصمت إزاء كل من عارض الفلسفة اليونانية من أعلام الفكر الإسلامي مع إبراز وإعلاء كل الأسماء التي حملت لواء الفلسفة قديماً مما يسمونهم الشراح فكتبت عشرات الأبحاث فيهم وجلهم لا يسلم في مقياس الأصالة الإسلامية لحكم عليهم . وأخطر من تصوب إليهم أسهم الاتهام : الفارابي وابن سينا .

ومما لم يكشف عنه مجددو الفلسفة الإسلامية القديمة : أن هؤلاء الشراح قد أطلق عليهم اسم (المشاءون المسلمون) واعتبروا امتداداً للفلسفة اليونانية والعقل اليوناني . ولقد لفظهم المجتمع الإسلامي لفظاً تاماً ، كما لفظ شعراء الإباحة والغلمة أمثال أبو نواس وبشار . واعتبرهم خارجين

عن المجتمع الإسلامى الأصيل . ولم يدافع عن هؤلاء وأولئك إلا المستشرقون ذوى فى نفوسهم . هو أن يبعثوا فى المجتمع الإسلامى المعاصر والفكر الإسلامى الحديث تلك الفتن والأحن والشبهات والسموم التى أثارتها الفلسفة اليونانية التى ترجمها السريان وأرادوا بها إدخال مفاهيم المسيحية بالإضافة إلى مفاهيم الوثنية لضرب قاعدة التوحيد التى هى عماد الإسلام :

أولا : هناك إجماع على أن دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلامى هو الذى أسقط صرح الحضارة (فقد كانت طابع شؤم ونذير سوء وإيذاناً للعرب بزوال سلطانهم) حين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع الفلسفة وعمل على ترويجها وتمكن من جلب أشهر كتب الفلسفة من اليونان والصين والهند . وعهد بترجمتها إلى مجتبر فى الترجمة من السريانية والكلدانية والسنسكريتية والفارسية .

وجرى العمل على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة وإباحة الجهر بمختلف الآراء فشاع فى زمنه الشك وراج الباطل وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحية تحمل فى طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحل المتخالفة وظهرت الفرق التى كادت تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة فلم تلبث الدولة إلا قليلا حتى حطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول فقوضت دعائمها وكان الكثير من أتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق — هذه الغاية .

وخسر العرب عقيدة الإيمان الفطرى وقوة الاعتقاد النقى ، وتركوا الدين فى أيدى المتكلمين والمتفيهقين والمخدوعين ليلبسوه أثواباً خلقة ملونة من الآراء الافتراضية التى أيقظت الشك وأثارت الفتنة وبلبلت الألسنة .

ثانياً : اتهام الإمام الغزالى بأنه جمد الانطلاق الفكرى والثقافى عند العرب ، حين وقف من الفلسفة الإلهية موقفه المشرف فى دحضها والكشف عن زيفها .

والواقع أن هناك حملة منسقة تدعو العرب إلى الفلسفة الغربية وتحرضهم عليها وتدفعهم إلى الجرى وراء مطامعها وصراعاتها ، وهى تصور العرب بصورة التخلف لأنهم فقراء فى مجال الفلسفة منذ وقف الغزالى موقفه .

وتلك ولا ريب خدعة مضللة . ذلك لأنه ليس من الضرورى أن يصطرع المسلمون والعرب فى أتون الفلسفات وهم ليسوا فى حاجة إليها حاجة الأوربيين الذين عجزت عقائدهم أن تمدهم بالمفهوم الميتافيزيقى الكامل والصحيح والأصيل سواء فى علاقتهم بالله تبارك وتعالى أو بالكون أو بفهم الإنسان من حيث هو إنسان . ومن شأن هذا النقص فى الفكر الغربى اللاهوتى ومع اضطرابه لأنه ليس فى حقيقته إلا تفسيرات بشرية . اضطر الفكر الغربى إلى إنشاء هذه المذاهب والأيديولوجيات لسد النقص . هذه المذاهب والأيديولوجيات المضطربة الذاهبة وراء كل الرياح التى تهب من أهواء النفس سواء فى الليبرالية الفردية أو الفرويدية أو الوجودية أو الماركسية والتفسير المادى والتفسير الاقتصادى والتفسير الجنسى والتفسير الجغرافى للحياة والتاريخ والحضارة — أما المسلمون فلديهم منهج متكامل للميتافيزيقا (عالم الغيب) دون أن ينقصها شىء فى تكامل وتوازن بعيداً عن سرف الترف أو فساد للرهبانية .

فهذه الحيرة التى نراها فى الثقافة الغربية . إنما تصدر عن تلك الصيحات التى يطلقها التابعون للفكر الغربى المسيحى . أما فى مجال الفكر الإسلامى فإن المسلمين يعرفون أنهم ليسوا فى حاجة مطلقاً إلى هذه الصيحات العالية فى الدعوة إلى أسلوب الفلسفة . والمسلمون لا يرون الأسلوب الفلسفى أسلوباً كاملا ولا صحيحاً . وإنما هو أسلوب مرحلى . قد يأخذ به المسلمون فى فترة ما كما أخذوا به فى أول عهد الاعتزال فى مواجهة الكلام المسيحى واليهودى . وكما أخذ به جمال الدين ومحمد عبده وإقبال وغيرهم فى مطالع عصر اليقظة الإسلامية وفى مواجهة تحدى التغريب والغزو الفكرى .

أما الأسلوب الصحيح والأصيل الذى يراه المسلمون سبيلهم فهو الأسلوب القرآنى والمنهج القرآنى .

ولقد كشف الإمام الغزالى فساد الفلسفة الإلهية ، ولم يتعرض للفلسفة الرياضية والطبيعية والمنطق .

وكان هذا هو الذنب الذى لم يغفره له حتى الآن . كتاب الغرب ولا دعاة التغريب ، كيف يقف الغزالى فى وجه فكر الوثنية وعلم الأصنام

ويعارضه ويكشف زيفه ولا يدع المسلمين ليغرقوا فيه فيحتويهم كما احتوى اليهودية والمسيحية . فهذا جرم كبير اقترفه الغزالى مازال رجال التغريب يبكتونه به يوماً بعد يوم دون توقف .

والواقع أن الغزالى لم يهاجم إلا الفلسفة الإلهية التى هى علم الأصنام عند اليونان قال : إن العقل يعجز عن الخوض فى مسائل ما بعد الطبيعة . وأنهم (أى الفلاسفة) ما قدروا فى الإلهيات على الوفاء بالبراهين التى اشترطوها فى المنطق وأنهم يحكمون بظن وتخمين غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور علومهم الحسابية والمنطقية ويستدرجون ضعفاء العقول . ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها . وأن ما شرطوه فى صحة مادة القياس من قسم البرهان فى المنطق لم يتمكنوا من الوفاء بشىء منه فى علومهم الإلهية . وقال : إن أحكام العقل فى الرياضيات والطبيعيات صادقة . أما فى علم ما بعد الطبيعة فإن العقل المحض عاجز عن الوصول إلى اليقين .

وقال : إن مسألة الصفات الإلهية وأزلية العالم وأبديته واستحالة الفناء على النفوس البشرية لا توزن بميزان العقل البشرى . بل يحتاج العقل فى إدراكها إلى عامل آخر هو الكشف الباطنى والإيمان القلبى والوحى الدينى .

وأهم ما اختلف فيه الغزالى مع الفلاسفة إنما هو ما يتصل بالمباحث الإلهية التى تقدم أصلاً من أصول الدين .

وقد عارض الغزالى الفلاسفة فى ثلاث مسائل أساسية . يختلف فيها رأى الفلسفة اليونانية عن مفهوم الإسلام الأصيل (وإن كان قد أحصى عليهم الخطأ فى عشرين مسألة) :

أولا : قدم العالم .

ثانياً : أن الله « **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً** » لا يحيط علماً بالجزئيات .

ثالثاً : إنكار البعث .

والإسلام يقول : بأن العالم محدث وأنه ليس ثمة قديم غير الله سبحانه وتعالى

وأن الله تبارك وتعالى يحيط بالجزئيات : . «**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين**» .
وأن البعث حق لا مرية فيه .

وقد عارض الغزالى ما يصطدم بالشرع . وهاجم الفلاسفة الدهريين الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً وقالوا بقدم الأنواع الحيوانية (وهم الدهرية والزنادقة . كما هاجم الفلاسفة الطبيعيين الذين قالوا : إن النفس تموت ولا تعود . وأنكروا الآخرة والثواب والعقاب وهاجم الفلاسفة الإلهيين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو) لأنهم قالوا بقدم العالم وإنكار البعث وزعموا عدم إحاطة الله بالجزئيات .

وهكذا نرى أن الحملة التى حملها دعاة التغريب والمستشرقين فى العصر الحديث باطلة . وقد وصفوا رأى الغزالى هذا بأنه حملة شعواء والواقع أنه رأى غاية الإنصاف والاعتدال وبالرغم من هذافإن الغزالى لم يسلم من أهل الأصالة الإسلامية فقال أبو بكر بن العربى . وكان من أخص أصحاب الغزالى : (شيخنا أبو حامد دخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منها فما قدر) .

ولقد كان هدف الغزالى إبطال مذهب الفلاسفة فى الإلهيات وتوجيه الناس إلى منابع الأصالة الحقيقية فى فهم الميتافيزيقيا وما وراء الطبيعة وهو ما أورده القرآن الكريم . ولذلك فقد أشار إلى أن الفلاسفة قليلو البضاعة فى معرفة مسائل الربوبية . وأن الدين الحق هو وحده القادر على عطاء النفس الإنسانية فى هذا المجال على النحو الذى يحقق الطمأنينة والسكينة واليقين .

ثالثاً : فلسفة أرسطو : رد عليها المسلمون وكشفوا اختلاف وجهة نظرها مع مفهوم الإسلام وتعارضها مع المنهج التجريبى .

وعندما حاول الاستشراق والتغريب فى العصر الحديث إحياء أرسطو وتكوين هالة ضخمة حوله (طه حسين — لطفى السيد — إبراهيم بيومى مدكور) دحض الفكر الإسلامى هذا المفهوم وكشف عما هو أبعد من ذلك . كشف بطلان وزيف وكذب ما ادعاه التغريبيون من أن النهضة الغربية قامت على مفهوم أرسطو ومنهجه . فهى فى الحق لم تقم إلا بعد أن هدمت مفهوم أرسطو . وتبنت مفهوم التجريب الإسلامى . وقد هدم المفكرون

الغربيون فى العصر الحديث فكر أرسطو بنفس ما هدمه به المسلمون قبل ذلك بألف سنه ، وكان هذا الهدم هو منطق النهضة الأوربية التى اعتمدت على منهج التجريب الإسلامى ، ثم جاء الغربيون مرة أخرى يخدعون المسلمين ويزيفون علمهم ويدعونهم إلى منهج أرسطو . لا إلى منهجهم الذى بنى حضارة الغرب . لقد كان أرسطو خدعة كبرى فى عصر الترجمة وفى العصر الحديث أيضاً واستغله المستشرقون وأتباعهم من دعاة التغريب إلى أبعد مدى .

ولقد تبين من الدراسة العلمية الخالصة فساد دعوى الموجة التغريبية الدافعة للقضاء على الأصالة الإسلامية .

ذلك أن حقيقة الأمر هى أن المنطق الأرسطى الذى نقل إلى العالم الإسلامى إنما أثر (فقط) فى المدرسة المشائية الإسلامية : مدرسة الشراح (الكندى والفارابى وابن سينا) وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة عن الأصالة الإسلامية بعيدة كل البعد عن تجاربه ، وكانت قد وضعت منطقاً مختلفاً تمام الاختلاف عن منطق أرسطو فى روحه وفى جزئياته ، (راجع على سامى النشار) .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلوم يونان . ومع ذلك لم توافق دوائر الفقهاء المتأخرين ومتكلمى الأشعار من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد حرب . ومن ثم ابتعد فلاسفة الإسلام المشاءون عن نطاق الفكر الإسلامى روحاً ونصاً وعن المجتمع الإسلامى عقيدة وفكراً وحياة ، وماتت الفلسفة المشائية فى العالم الإسلامى منذ عهد بعيد .

وما كان لها أن تبعث لولا محاولات الاستشراق والتغريب الهادفة إلى تدمير الإسلام من الداخل بإثارة الفرق والمذاهب الفلسفية القديمة وبعثها وفرضها كمنهج علمى مضلل فى الجامعات والمدارس .

وفى ضوء هذا الاتجاه الذى تقدم إليه المستشرقون أولا ثم تابعهم دعاة التغريب أمثال طه حسين ، كان الهدف هو ما أشار إليه طه حسين صراحة :

(أنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان — وفلسفة أوربا وحضارتها إنما هى امتداد لهذه الفلسفة . فعلينا إذن أن نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء) .

وهذا زعم باطل فى أساسه تنقضه كل الأدلة والأسانيد ، فإن المسلمين لم يأخذوا فكر يونان قاعدة لفكرهم بل رفضوه وكشفوا زيفه . ومن ثم فإنهم يقفون اليوم نفس الموقف من الفكر الغربى وليد الفكر اليونانى .

والمعروف أن المنطق الجديد فى الفكر الغربى القائم على هدم منطق أرسطو بدأ فى القرن الثالث عشر الميلادى حين نقل المسلمون الروح العلمية والرياضية إلى أوربا عن طريق (روجر بيكون) الذى دعا إلى التخلص من مذهب أرسطو لعدم كفايته ، وقال : إننا نستطيع أن نبرهن بالرياضة على كل ما هو ضرورى لعلم الطبيعة . وقد أعاد توماس الأكوينى فلسفة أرسطو من جديد .

رابعاً : تبين أن الفكر اليونانى الذى اعتمد عليه الفلاسفة المسلمون (الكندى — ابن سينا — الفارابى) لم يكن سليم المصادر . فقد أكد الباحثون من المقارنات التى أجريت أخيراً أن النصوص الفلسفية التى ترجمت إلى اللغة العربية لم تكن الفلسفة اليونانية الأصيلة ، وإنما كانت مزيجاً من هذه الفلسفة ومن المفاهيم السريانية المسيحية ، ومن ثم فقد ترتب على ذلك أخطاء كثيرة وتلفيقات صعبة ، وقد أشار إلى هذا عدد كبير من الباحثين أكد ذلك إسماعيل مظهر الذى يقرر أن الثقافة التى نقلت إلى العرب لم تكن ثقافة إغريقية صحيحة ، بل كانت صورة من النصرانية تلونت بلون إغريقى عن طريق اليعاقبة والنساطرة الذين بشروا بمعتقداتهم النصرانية فى الشرق متخذين من الفلسفة اليونانية سبيلا إلى التبشير بعقائدهم .

وقال الدكتور عبد الرحمن مرحبا : إن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعانى فى أبدان الحقائق إخلالا لا يخفى على أحد . فقد كانت الترجمات تكسباً للمال لا حباً للعلم ، بالإضافة إلى استغلال الترجمة فى الدعوة إلى نحلتهم ونصرة مذاهبهم ، ويقول الدكتور عمر فروخ : إن معظم الناقلين كانوا نصارى يعاقبة ونساطرة ، وكانت حميتهم الدينية فوق أمانتهم العلمية . من أجل ذلك كان هؤلاء يحرفون .

ومن أشد أخطائهم اضطراباً وأثراً أن كتاب الربوبية قد عزى لأرسطو ، فلما اطلع الفارابى على هذا الكتاب واعتقد أنه لأرسطو قام بتحرير نظريته

المشهورة فى التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو معتمداً فى ذلك على هذا الكتاب . ووقع الفارابى فى الخطأ وانهارت نظريته فى التوفيق . بمجرد أن عرف أن هذا الكتاب ليس لأرسطو وإنما هو فصول أخذت أو لخصت من تساعيات أفلاطون وهو بعيد عن روح أرسطو . وقد بدا أن الفلسفة التى حاول إنشاءها الفارابى وابن سينا مزيج من الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية المحدثة وقد بدت المحاولة مشوهة وناقصة وتسمى الفلسفة الإسلامية .

ومن هنا نعرف كيف اندس الكثير من المقررات الفارسية والوثنية والمسيحية واليهودية إلى الفكر الإسلامى . وحاولت الاندماج به مع الزمن .

خامساً : وقف الفكر اليونانى من التجريب موقف الاحتقار ، بينما أمضى الفكر الإسلامى مفهوم التجريب وبذلك نقل البشرية إلى عصر جديد عجز عنه اليونان .

(أ) فالمسلمون بكل أدلة التأكيد والجزم والثقة هم الذين وضعوا المنهج التجريبى واقتحموا تلك العقبة التى وقف عندها الفكر اليونانى حين وقف عند المنطق الصورى . وبذلك جمع المسلمون بين أسلوبين للنظر والفكر هما : الدليل العقلى والدليل التجريبى . وقد سجل روجر بيكون فضل هذا المنحى الخطير فى تاريخ البشرية كلها ونسبه إلى المسلمين .

وأهم خصائص المنهج التجريبى الإسلامى إنه منهج إدراكى أو تأملى . فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك أنه لابد من وضع منهج فى البحث يخالف المنهج اليونانى حيث أن منهج اليونان إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف .

وفارق بين منهج احتقر التجربة والتجريب وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عنه ، وبين منهج دعا إلى التجريب مستمداً ذلك من روح القرآن نفسه الذى دعا إلى نزعة علمية عملية تنأى عن البحث فى ذات الله وتدعو إلى البحث فى خلق الله . ولذلك فإن موقف المسلمين من منطق أرسطو أو من الفكر اليونانى لم يكن ناشئاً من معارضة ذاتية ، وإنما كان تأكيداً لذاتية الفكر الإسلامى وروحه وأصالته وطابعه الخاص . ولذلك فإن المسلمين لم يشتغلوا بالجوهر أو الماهية أو التصورات التى شغلت بها الفلسفة اليونانية

وإنما اشتغلوا بالخواص . وأدرجوا هذه الخواص فى نسق متكامل . وهذا هو جوهر الخلاف الذى أوحى بمفهوم الكراهية أو المعارضة لمنطق أرسطو وهى مخالفة ذات جذور أصيلة للأساس الأصيل للإسلام وهو التوحيد ، ولم تكن ناتجة عن ضيق أفق أو تزمت مذهبي .

ومن هنا فإن الدعوة التى تثار عن طريق حركة التغريب فى البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل دعوة معارضة تماماً لمفهوم التوحيد الإسلامي ، وإذا كان الإسلام قد حال دون الأبحاث الميتافيز يقية على طريقة الفكر اليونانى فإنه قد قدم للمسلمين منهجاً كاملا لما وراء عالم الشهادة منذ بدأ الخلق إلى نهاية الحياة الدنيا وما بعدها من حياة الجزاء الأخروى ، كما قدم صورة لعالم ما وراء الكون الظاهر من سماوات وأفلاك . وبذلك أرضى رغبة الإنسان فى فهم هذه العوالم وجعلها أساساً لفهمه لرسالته ومسئوليته ومعاده ، وأعطى عقله الانطلاقة الحقة لأداء رسالته فى نطاق قدرته الحقيقية . وقد كشف الإسلام فى هذا عن أن العقل الإنسانى بطبيعته قاصر عن التوصل الى الكنه أو الماهية بقدرته الذاتية التى تعجز عن ذلك . ولذلك حدد القرآن مسائل ما وراء الطبيعة تحديداً كاملا وطلب عدم الجرى فيما خلفها وأن تبحث فى محيط الاقتدار العقلى وحده وهو : « تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى ذات الله فتهلكوا » .

والقدرة العقلية هى القدرة على التفكير فى آثار الله الدالة على عظمته ، ومجالها الحس ، أما الذات والكنه والماهية فهذا فوق استطاعة العقل ولذلك جاء به الوحى مبيناً ناصعاً :

(البحث فى الخصائص وعدم البحث إطلاقاً فى الماهية) .

وكان هذا التوجيه الإسلامى القرآنى منطلق العمل الذى حققه المسلمون ولم تستطع تحقيقه الأجيال السابقة كلها . وهو إيجاد المنهج التجريبى .

ومن هنا فإن الدعوة التى تثار عن طريق حركة التغريب فى البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل هى دعوة معارضة تماماً لمفهوم التوحيد الذى هو دعامة الإسلام الحقة .

سادساً : لقد ادعى المستشرقون ودعاة التغريب أن المنطق الارسطاليسى عندما ترجم وجد قبولا وترك أثراً فى كل دراسات الإسلام . (هكذا ردد المستشرقون وردده طه حسين ولطفى السيد وإبراهيم مدكور) .

والواقع أن هذا مخالف للواقع الذى حدث فعلا . فإن الذين قبلوا الفكر اليونانى والمنطق الأرسططاليسى هم الشراح . المتابعون على طريق المائين اليوم . والذين أطلق عليهم (المشاءون المسلمون) وأبرزهم الكندى والفارابى وابن سينا .

أما العلماء المسلمون فى مجال الأصالة فإنهم ردوها تماماً . وكشفوا عن أن المنطق الأرسططاليسى : هو منهج البحث فى علوم اليونان الفكرية ، والفلسفية فيها على الخصوص . ثم إن هذا المنطق هو أدق تعبير عن الروح اليونانية فى نظرتها إلى الكون وفى محاولة إقامة مذاهبها فى الوجود . وقد لفظ الإسلام علوم اليونان الفكرية لفظاً قاسياً وحاربها أشد محاربة . ذلك أن الروح الإسلامية تستمد مقوماتها من بيئة مخالفة وجنس مخالف وتصور حضارى جديد . وهى تنأى أشد النأى عن النظر فى العوالم اليونانية الفكرية من ميتافيزيقا وفيزياء وغيرهما . وكان من المحتم أن يكون لها منهج فى البحث مختلف أشد المخالفة عن منهج اليونان يستمد مقوماته من حضارتها العلمية بحيث يكون طابع تلك الحضارة الأساسى وجوهرها الوحيد .

وكشف علماء المسلمين أن فلاسفة الإسلام المشائين إنما هم بمثابة دائرة منفصلة منعزلة عن تيار الفكر الإسلامى العام . وأن ممثلى الإسلام الحقيقيين هم الفقهاء والأصوليون والمتكلمون وغيرهم من مفكرى المسلمين وهؤلاء هم الذين رفضون المنهج اليونانى والمنطق الأرسططاليسى كلية . وقد توصل الدكتور النشار إلى وثائق ثابتة لهؤلاء العلماء من خلال أبحاثهم القديمة تكشف زيف ادعاء المستشرقين ومن تابعهم من المتآمرين على العموم موقف العداوة التامة ؛ واصطنع بعضهم حجج الشكاك اليونانيين وأن المسلمين استطاعوا أن يقدموا أعظم كشف عرفه العالم الأوربى من بعد . وهو المنهج التجريبى الإسلامى فى أكمل صورة .

وقال : إن المتكلمين والأصوليين الأولين لم ينقلوا المنطق الأرسططاليسى على الإطلاق . وحاولوا إقامة منطق جديد بالكلية فى جوهره . ووقف

---

(١) عن بحث الدكتور على سامى النشار : مقدمة مناهج البحث عن مفكرى الإسلام .

وفقهاء أهل السنة والجماعة من المنطق الأرسططاليسى . بل من المنطق اليونانى على العموم موقف العداوة التامة . واصطنع بعضهم حجج الشكاك اليونانيين وأضاف إليها حججاً أبدعوها . وأشار إلى أن الشراح الإسلاميين كانوا امتداداً للعقل الهلينى فى العالم الإسلامى بحيث كانت الوشائج التى تربطهم بالتفكير المنطقى الإسلامى واهية تماماً ، ولهذا لفظهم المجتمع الإسلامى لفظاً تاماً

وقال الدكتور النشار بفساد الفكرة التى تقول : إن المتكلمين كانوا رجال دين استخدموا منطق أرسطو فى جدلهم اللاهوتى ، وأن المنطق الأرسطى قوبل من المدرسة الكلامية حتى القرن الخامس أسوأ مقابلة ، وهاجمته جميع الفرق الكلامية : معتزلة وأشعرية وشيعية . وقال ابن تيمية : ما زال نظار المسلمين بعد أن عرب هذا المذهب وعرفوه يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله فى موازينهم العقلية والشرعية . وهذا ما ردده ابن القيم . وقال ابن خلدون : إن المسلمين لم يأخذوا بالأقيسة اليونانية لمباينتها للعقيدة .

وألفت كتب كثيرة فى نقد المنطق الأرسططاليسى منها :

- الدقائق لأبى بكر بن الطيب .
- الآراء والديانات لابن النوبختى .
- كتب أبى على الجبائى وأبى هاشم والقاضى عبد الجبار فى نقد المنطق الأرسطى .

(ذكر ذلك أبو حيان فى المقابسات ص ٥٥٥) .

- أبو العباس الناشئ المعتزلى :

(قال السيرافى لابن بشر متى بن يونس : وهذا الناشئ أبو العباس قد نقد عليكم وتتبع طريقكم وبين خطأكم وأبرز ضعفكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا كلمة واحدة لما قال وما زدتم على قولكم : لم يعرف أغراضنا ولا وقف على مرادنا) .

(صاعد طبقات الأمم ص ١١٨) .

- ابن حزم :

نقد منطق أرسطو وألف كتاباً أسماه التقريب لحدود المنطق (ذكره صاعد فى طبقات الأمم) وبسط فيه فن القول على تبيين المعارف واستعمل

فيه أمثلة وجوامع شرعية وخالف أرسطو واضع هذا العلم فى بعض أصوله مخالفة صريحة .

- الغزالى هاجم منطق أرسطو .
- إمام الحرمين هاجم منطق أرسطو .

وفى هذا تكذيب مربع لما أورده لطفى السيد أستاذ جيل التغريب حين قال :

(ولقد قوبلت فلسفة أرسطو عند السلف بصدر رحب واشتغل بها الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين وأصبحوا خلفاء أرسطو وممثلى مذهب المشائين . تبين فساد هذا الفهم . فإن علماء المسلمين رفضوا منطق أرسطو والفلسفة اليونانية جميعاً لأنها تتعارض مع مفهوم التوحيد عماد الإسلام) .

سابعاً : يعد موقف الإمام ابن تيمية هو قمة المواقف فى مواجهة الفلسفة المشائية .

فقد أعلن أن الفكر الإسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة المحمدية . فاستخرج منهما المنطق الجديد الذى سماه المنطق الإسلامى ، هذا المنطق الذى كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الأشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما .

وقد استخلص المنطق الإسلامى من القرآن الكريم بحيث أغنى المسلمين فى قضايا الفكر والحكم الصحيح عن المنطق اليونانى وعن أقيسته وأساليبه ومسمياته وتطبيقاته ، وقال : إن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية الإلهية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه مبزه عن الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ولقد كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد عنى ابن تيمية بنقد فلاسفة الإسلام (الفارابى وابن سينا وابن رشد) وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو ، وعرض للمنهج الإسلامى الاستقرائى فتتبع تاريخ

هذا المنطق منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الإسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة وقمة ذلك كتابه (الرد على المنطقيين) . وقال : إن الفكر الإسلامى قد رفض المنطق الأرسطى الذى يقوم على القياس والاستدلال النظرى ، وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو المنهج الحسى التجريبى .

وكشف عن الخلاف بين أرسطو وأفلاطون ومحاولة المشائين المسلمين شراح الفلسفة اليونانية فى التوفيق بينهما . وكشف عن الخلاف بين هذه المحاولة وبين العقيدة الإسلامية . وأبان عبث هذه المحاولة (محاولة الفارابى وابن سينا) وعقم تجربة التلفيق عندهما بين الإسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل . وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة وكشف عن ضعف أدلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع . وأجرى محاولة للتوفيق بين العقل والدين . ولكن ليس على أساس أن العقل مرادف للفلسفة اليونانية . وملخص رأيه أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح المنقول ، ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا إذ من يدعى خلاف ذلك فقد قدح فى الرسول . وقد ترك منطق ابن تيمية بصمات واضحة فى كثير من الاتجاهات المنطقية الجديدة المباينة لمنطق أرسطو وخاصة المنطق المادى لدى بيكون وهيجل . والمنطق الرياضى لدى رســل والمنطق السيكولوجى .

وقال مصطفى عبد الرازق : إن الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه فى النقد بل الشرح والعمق لكنا بلغنا من الرقى مبلغاً عظيماً

ويعتبر ابن تيمية فى رده على مناطقة اليونان ومن تابعهم من متفلسفة الإسلام أكبر ممثل لروح الإسلام تجاه الفتنة اليونانية .

نقد ابن تيمية المنطق الأرسطى وهدمه هدماً قوياً ، فذهب إلى أنه من الخير للإسلام أن لايستعمل مصطلحات الفلسفة والمنطق ، وينكر ابن تيمية استطاعة الحد فى المنطق الأرسطى من الوصول إلى كنه الشىء أو ماهيته . ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ، أما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به .

ونقد ابن تيمية القضايا الأرسطية ، وذهب إلى أن التجربة والاستقراء وقياس التمثيل باطل . وقرر أن القرآن هو الذى يمدنا بمصدر الاستدلال وأنه هو الذى يقدم لنا الميزان ويقدم لنا الأقيسة البرهانية .

ثامناً : أبرز وجوه التعارض بين الفكر الإسلامى والفكر اليونانى وقال : إن أكبر الخطأ هو القول : بأن هناك لقاء ولو جزئياً بين الفلسفة اليونانية الوثنية وبين الفكر الإسلامى القائم على التوحيد ، وذلك يرجع إلى أسباب جذرية بعيدة المدى وإلى خلاف فى الأصول العامة :

١ — فالإسلام يقرر قصور العقل الإنسانى عن التوصل إلى الماهيةوالكنه والشيء فى ذاته . وقد حدد القرآن موقفنا من مسائل ما بعد الطبيعة وطلب إلينا عدم الخوض فيما وراءها . ودعانا إلى أن نترك بحث (الجوهر) الذى لا نستطيع أن نصل إلى حقيقته عن طريق العقل وحده ، وأن نبحث (الخصائص) وأن لا نبحث مطلقاً فى الماهية . . وهذا ما رسمه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا » .

٢ — الميتافيزيقيا اليونانية هى نتاج ذاتى قائم على الفردية والتصور الخاص المخالف لروح الإسلام القائم على مفهومه الجامع لكل معتنقيه . وقد كانت الفلسفة اليونانية عملا ذاتياً لا يتفق والاجتماع .

٣ — الفارق العميق والواضح بين مفهوم القرآن لوحدة الله وفاعليته وبين مفهوم الفلسفة اليونانية ، فالله فى الإسلام خالق كل شيء ، وأنه خلق كل شيء من لاشيء ، وأوجد العالم من العدم ، وأعلن بدء الزمان وأعلن نهايته ، وبذلك هدم مفهوم الفلسفة اليونانية فى القول بقدم المادة وعدم فنائها .

فضلا عن هذا فإن القرآن لم يترك مفاهيمه مطلقة بل وضع أصولها كاملة ، ولقد كان ما قرره القرآن أكثر قبولا فى العقل وأقرب إلى الفطرة .

فالله هو خالق الأرض والسماء والجبال وجعل ذلك كله مسرحاً للإنسان خليفة الله الذى خلقه من تراب ونفخ فيه الروح وعلمه الأسماء ودفعه

إلى اكتشاف الكون ووضعه فى موضع المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والحساب والجزاء الأخروى .

تاسعاً : قدم القرآن الدليل على وجود الله تبارك وتعالى ممثلا فى عديد من أساليب البحث ومناهجه :

١ – الدليل الكونى المبنى على النظر فى هذا العالم .

٢ – ثانياً – الدليل العقلى التحليلى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) .

٣ – دليل استنبطه من الآيات التى تتكلم عن سيدنا إبراهيم وملخصه أن تغير أحوال الأشياء التى نشاهدها يدل على حدوثها وضرورة وجود محدث لها لا يشبهها .

عاشراً : عقيدة الاتحاد وعقيدة وحدة الوجود :

عقيدة الاتحاد لا توافق الإسلام أية موافقة من حلول الخالق فى المخلوق أو استغراق المخلوق فى الخالق . وهو غير طبيعة كل منهما . لهذا أنكر الإسلام على المسيحية فكرة الحلول وأنكر نفس الفكرة على الصوفية . ولا يتفق الإسلام مع عقيدة الوحدة لأن فيها انفصالا من عقيدته الأصلية (**لا إله إلا الله**) ولا عقيدة التصوف الفلسفى (لا موجود فى الحقيقة **إلا الله**) وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مخالفة أشد المخالفة لنتائج الأخرى .

تأثر التصوف الفلسفى بالبحوث الميتافيزيقية : الفيدا الهندية . والإشراقية الفارسية ، والفيض الأفلوطينى .

أما التصوف السنى فقد سار فى طريقه ينكر على التصوف الفلسفى فكرته ، فقد أخذ من القرآن والسنة وانتهى إليهما . وقد وصل الفكر الإسلامى بالتصوف السنى إلى يقظة الحارس الديدبان (الضمير) وهى فكرة لم تصل إليها أوربا إلا حديثاً على يد بتلر الأخلاقى الإنجليزى .

حادى عشر : لا بد من الإشارة إلى الدور الذى قام به رجال الأصالة الإسلامية فى العصر الحديث فى مواجهة خطر تجدد أعصار الفلسفة اليونانية والغربية على التوحيد الإسلامى . وقد بدأ هذا الاتجاه منذ أعلن الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الفلسفة الإسلامية تبدأ من الفقه الإسلامى والكلام

وأن كتاب (علم أصول الفقه للشافعي) هو منطق هذا الاتجاه . وأن الشافعي في الفكر الإسلامي مواز لأرسطو في الفكر اليوناني . واعتبر أن الكندي والفاراني وابن سينا وابن رشد وغيرهم لا يمثلون الأصالة الإسلامية بل يمثلون امتداداً دخيلا للمشائين اليونان . فهم لا يزيدون عن أن يكونوا شراحاً للفلسفة اليونانية ، وأن كتابات علي أصول الفقه والمتكلمين هي فلسفة الإسلام ، وأثبت أن المنطق الأرسطاليسي : منهج الحضارة والفكر اليوناني لم يقبل في المدارس العقلية الحديثة . وأن المنهج التجريبي الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة هو منهج الإسلام وهو مباين لروح الحضارة اليونانية .

ثاني عشر : أن الفكر الإسلامي بطبيعة مصادره وتشكيله وذاتيته الخاصة القائمة على التوحيد والنبوة والربط بين العقل والقلب كان متفتحاً أمام الفكر البشرى ، ولكنه كان قادراً على التماسك دون الانصهار في أى بوتقة ، ومن هنا كان موقفه من الفلسفة اليونانية . فإذا كان الفكر الإسلامي قد تشكل على أساس التوحيد والأخلاق وإقامة منهجه الفكرى على أساس العقل والوحي فقد كان من العسير أن ينصهر في الفلسفة اليونانية القائمة على الوثنية والمجتمع العبودى وإعلاء العقل وعبادة الجسد . هذا فضلا عن أن الفلسفة التي ترجمت لم تكن هي الفلسفة اليونانية ، وأنه قد أصابتها محاذير كثيرة من فساد الترجمة وانتحال الكتب وتحريف النصوص ، خدمة لهدف التبشير بالمسيحية ، ومن هنا فقد قامت المعارضة لها منذ اليوم الأول . وإن كانت طائفة الفلاسفة المسلمين قد حاولت إدخال الفلسفة اليونانية في إطار الإسلام فقد فشلت المحاولة تماماً حدث هذا في نفس الوقت الذى نما فيه تيار معارضة الفلسفة اليونانية واتسع نطاقه حتى أصبح يمثل ضمير الفكر الإسلامي كله وانعزل دعاة الترجمة والتفسير .

كانت هذه المعارضة مقدمة الشجب الكامل للمفاهيم الفلسفية اليونانية التي تتعارض مع الإسلام في التوحيد والأخلاق وفي بناء المجتمع نفسه .

كل هذا يؤكد : أنه ليس صحيحاً ما ذهب إليه طه حسين ولطفي السيد وإبراهيم بيومى مذكور من أن منطق أرسطو سيطر على بعض دوائر الفكر الإسلامي . وفي العصر الحديث كشف الدكتور النشار هذه الحقيقة في كتابه

مناهج البحث عند مفكرى الإسلام وأثبت إثباتاً قاطعاً عدم قبول مفكرى الإسلام للمنطق الأرسطاليسى ومحاربتهم له ونقدهم لجميع عناصره . وتبين عدم صدق الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا المنطق اليونانى واعتبروه منهجاً لأبحاثهم .

وقد زيف هذا الفهم المدعوم بالدليل أحلام الاستشراق وحركة التغريب.

• • •

الباب الرابع

إحياء الفكر الشعوبي والباطني

الفصل الأول : المؤامرة الباطنية .

الفصل الثاني : الدعوة الشعوبية .

الفصل الثالث : إخوان الصفا .

الفصل الرابع : دعاة الباطنية .

الفصل الأول

المؤامرة الباطنية

(١)

الفكر الشعوبي والباطني : هو فكر بشرى تسرب إلى أفق الإسلام بعد عصر الترجمة : فقد ترجمت الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية فاختلطت وتضاربت وحاولت احتواء الفكر الإسلامي والسيطرة على القيم الأساسية الإسلامية ، ولقد كان هذا الفكر البشرى الوثني المادى قد تشكل منذ وقت طويل واستطاع التأثير على المفاهيم التي قدمها دين موسى ودين عيسى (عليهما السلام) وعمل على توجيهها نحو التأويل والتبرير والخروج من الضوابط التي جاء بها الدين الحق. وقد اتجهت هذه المحاولة إلى الفكر الإسلامي ، واستطاعت أن تجد لها سنداً من الدعاة العتاة في مختلف مجالات العقائد والأدب والسياسة ، وتحولت من بعد إلى مؤامرات خطيرة ، ودعوات هدامة هددت كيان الدولة الإسلامية ، وقد ووجهت هذه الحركة بالمقاومة منذ اليوم الأول ، وشمر مفكرو المسلمين لمعارضتها وضربها وكشف زيفها ، واستمرت هذه المواجهة قرنين كاملين حتى صفيت تماماً . وعادت الأصالة الإسلامية إلى مكانتها استمداداً من القرآن والسنة الصحيحة ولم تعد هذه القصة إلا صفحة من صفحات التاريخ . غير أن مؤامرات التغريب والغزو الثقافى منذ بدأت فى العصر الحديث عملت على إحياء هذا الفكر وتجديده مع ما جددت وأثارت من شبهات فى مجال الفكر المعتزلى والصوفى والفلسفى ، فبدأت كتابات من المستشرقين ودعاة التغريب تدافع عن الباطنية والقرامطة والزنج ، وتعتبر هذه الحركات الضالة دعوات إصلاحية ، وتصورها على أنها ثورات قامت باسم الإسلام ، بل إن الاستشراق والتغريب قد ذهبا فى ذلك إلى أبعد مدى : إلى اتهام رأى السنة والجماعة والغض من قدر أولئك المجاهدين الأبرار الذين وقفوا أمام هذه المؤامرة الخطيرة ، وظهر من الكتب ما يجدد هذا الفكر

الباطنى الشعوبى فى إعادة عرضه والدماع عنه وتزيينه لإغراء الشباب المثقف به وتصويره على أنه فكر مستقل منقطع الصلة بأوضاعه وظروفه والردود التى واجهته ، وأن فى الإمكان إعادة طرحه فى العصر الحديث كفكر عصرى تقدمى . وذلك أقسى ما يمكن أن تقوم به دعوات التغريب والغزو الثقافى من التمويه والزيف وإشاعة سموم خصوم الإسلام التى سقطت بعد أن واجهت معارضة ضخمة مع الفطرة والعلم والدين والحق .

ولقد توزع التغريبيون على مجالات الأدب والتاريخ فوجدنا أولئك الذين أعادوا الكتابة عن أبى نواس وبشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ، وأولئك الذين جددوا عرض حركات القرامطة والزنج والراوندية ، والمقنع الخراسانى وبابك الخرمى . على نحو جديد بادعاء أن هؤلاء كانوا دعاة إصلاح .

وهناك من جدد تاريخ الحلاج والسهروردي وبعث كتبهم وكتب ابن عربى المليئة بالسموم . كذلك جدد فكر إخوان الصفا وبعث رسائلهم وقدم ابن سينا والفارابى والرازى وغيرهم على أنهم قمم من أعلام الفلسفة والفكر .

ولا ريب أن إحياء هذا الفكر إنما استهدف إفساد الفكر الإسلامى بغمسة مرة أخرى فى هذه الوثنيات والماديات والإباحيات ، حتى لا يستطيع الإسلام أن يعطى عطاءه الحق بتحرر عقيدته الأصلية . وفى بعث هذا الفكر دعوة للشيوعية ودعوة للصهيونية واليهودية العالمية حاملة لواء الإسرائيليات القديمة والجديدة .

ولا ريب أن هذه المذاهب تحمل للأهواء المضلة وللنفوس التى لم تتعمق فهم الإيمان والدين أهواء شديدة الخطر . فإنها تحمل إلغاء التكاليف وإسقاط الالتزام الأخلاقى ، وإسقاط فرائض الإسلام وإباحة ارتكاب المحرمات والإغراق فى الذات ، وهى نظريات فى أبرز مفاهيمها لا تفرق بين الخير والشر والتقوى والإباحة والفضيلة والرذيلة . كذلك فإنها تقحم على الإسلام عقيدتان لا يقرهما الإسلام وهما عقيدة الجبرية وفكرة الزهد ، وهى تصل إلى ذلك عن طريق تأويل القرآن تأويلا لا يحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا . ومن هنا كانت أهمية التعرض لهذا الخطر وكشف هذا الزيف

(٢)

أخذت المفاهيم الباطنية والشعوبية تتسرب إلى الإسلام بتلك الكلمات التى أذاعها عبد الله بن سبأ اليهودى . الذى دخل الإسلام وأذاع مفاهيم الرجعة والوصية ، فقال إن لكل نبى وصياً ، كما أشاع نظرية الحق الإلهى ، وهى نظرية فارسية لا يقرها الإسلام . وكان هذا أول ما فتح باب التأويل ، ثم كانت مؤامرة مقتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود . نفذها (أبو لؤلؤة) وهو فارسى أسير فى نهاوند أصبح ملكاً للمغيرة بن شعبة . وكان الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس ، من المتآمرين ، كان مقتل عمر مقدمة لمقتل عثمان الذى كان لمفاهيم عبد الله بن سبأ أثرها الخطير فى التمهيد لها . بل وكان لهذه الأفكار التى بثها عبد الله بن سبأ والسبئية من بعده فى أفق الإسلام تلك الآثار البعيدة فى ظهور حركتى الشعوبية والباطنية ، فقد أخذت أفكار المانوية والثنوية تحت أسماء متعددة مختلفة تطرح من جديد فى أفق الإسلام . وبذلك تشكل ذلك الجناح المتآمر من خصوم الإسلام الذى عجز عن هدم الدولة الإسلامية سياسياً . وعمل على هدمها عن طريق ضربها فكرياً وإفساد عقيدتها . واستشرت تلك العقائد فى الفلسفات والأديان السابقة واستطاعت أن تجدد مفاهيم المجوسية والمانوية والزرداشتية . وكان أن حملت أفكار هذه الدعوات إلى أفق الإسلام فأثارت كثيراً من الشبهات والشكوك ، وكانت فى مجموعها دعوة إلى تدمير جوهر الإسلام القائم على التوحيد الخالص وعلى الشريعة الإسلامية ذات الحدود والضوابط والأخلاقيات والإيمان بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروى .

وقد أطلق على هذه الحركة اسم (الزنادقة ، الباطنية . الشعوبية) استمداداً لاسمها من أبرز مفاهيمها . ولكنها فى الحقيقة كانت تمثل مؤامرة ضخمة فى مواجهة الإسلام لها أطرافها المختلفة .

ولقد قدمت هذه الحركة إلى الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى شبهات وسموماً وفكراً هداماً كان بعيد المدى فى إثارة الشكوك وزلزلة النفوس :

أولا : قدمت أحاديث مكذوبة على الرسول يحلون بها الحرام ويحرمون بها الحلال ، حتى يقول بذلك أحد رءوسهم عبد الكريم ابن أبي العوجاء الذى اعترف بذلك قبل موته قال : لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت بها الحرام وحرمت الحلال .

ثانياً : قدمت مفهوماً للعقيدة مغايراً لمفهوم التوحيد الإسلامى ، سواء أكان مفهوم الثنائية المجوسى أو المانوى القائم على إله النور وإله الظلمة .

ثالثاً : قدمت نظرية الشيوعية المطلقة بين النساء والأموال والإباحية بين الناس .

رابعاً : قدمت مبدأ تقديس الحاكم الذى ينبثق عن نظرية الحق الإلهى والتى يرى معتنقوها أن الحاكم يستمد حكمه من الله لأنه ظل الله فى الأرض .

خامساً : دعت إلى إسقاط الفروض الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج . وأباحت شرب الخمر واللذات والشهوات . وإباحة زواج البنات والأخوات .

سادساً : ادعوا أن لكل شىء ظاهراً وباطناً . ولكل تنزيل تأويلا ، وإلى جانب[1] التأويل كان التحايل على الخروج عن الحدود .

سابعاً : أذاعوا بإباحية الكلمة فى شعر بشار وأبى نواس وحماد عجرد ودعبل الخزاعى وصالح بن عبد القدوس وأقاموا للخمر ديواناً فى الشعر يكاد يطغى على سائر فنونه . وكذلك أسرفوا فى إذاعة شعر الغلمان .

ثامناً : إنكار الوحى المنزل على الرسول والقول بأن العقل الإنسانى هو حلقة الاتصال بين المرء وربه ، وكان ابن الراوندى فى مقدمة الداعين إلى تقديس العقل والادعاء كذباً بأن العقل هو الوحى من عند الله . وأنه لا إيمان إلا بما يراه الإنسان .

واستخدمت الباطنية أساليب وألفاظاً أجنبية عن اللغة العربية ، مستمدة

---

(١) التأويل غير التفسير . التفسير شرح أو ترجمة المعنى لكل كلمة ، أما التأول فيقصد به باطن المعنى أو رموزه أو إشارته ، وكل الفرق الباطنية تقوم على التأويل ، وهدف التأويل تغييب المفاهيم الباطنية وتجاهل المفاهيم الظاهرة التى تمثل أصول الأحكام .

من مصادر هللينية وأفلاطونية كما استعارت كثيراً من الطقوس الدينية التي يمارسها الصابئة والأفلاطونية المحدثة .

وكانوا يرمزون إلى الشيء بضده ، ويرون أن الجسم ليس وجوداً حقيقياً فهو مجاز . وأدخلوا عن طريق إخوان الصفا نظرية الإمام ونظرية الصدور . والعقل الكلي ونظرية الفيض . وكلها مما نقلوه من ذلك الركام القديم .

وقد أطلق على هذه الأفكار كلمة الزندقة . ومعناها التعطيل والإلحاد أي نفي وجود إله خالق مدبر للكون . ويقول المؤرخون أن الزنادقة طائفة تظهر الإسلام وتبطن عقائد الفرس ودياناتهم ، وتعمل على إحياء المعتقدات القديمة ومعارضة الديانات . والقول بالرجوع إلى قوانين الطبيعة .

وأبرز من حمل لواء هذه الأفكار بعد ابن سبأ : ابن المقفع وبشار وحماد عجرد ومطيع . واستهدفوا نشر دعوى الإباحية وإسقاط التكليف والسخرية بأصول الدين والخلق والنظم الاجتماعية وإثارة الجدل والشك حول الخمر وغيرها من المحرمات . وحمل بشار لواء نشر الفساد الخلقي وإشاعة الفسوق بالنساء ، واشتهر حماد عجرد بالتهتك واللسان البذيء . وهاجم أهل التقوى والورع ولا سيما النساك وأهل الزهد ، فسبهم بأقذع ألوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم ، وبالغ أبو نواس في الترويج للخمر وحث الناس على شربها متستراً تحت اسم التظاهر بالظرف . وبلغت هذه الموجة أوجها في نفوس البسطاء والضعفاء ، ولكنها وجدت مقاومة صارمة ومعارضة صادقة ، كشفت زيفها وأعادت للنفس طمأنينتها إلى مفهوم الإسلام الحق .

(٣)

أشار الباحثون إلى أن كلمة الباطنية تشمل فرقاً عديدة أهمها : الخرمية والقرامطة والإسماعيلية ، كما أطلقت على المزدكية وهي فرقة مانوية أسسها (مزدك) وظهرت في عهد الملك الساساني قباذ بن فيروز ولهذه الفرقة شأن سياسي هام حيث أنها أخذت الطريق الديني والتأويل في ظاهر الدين سبيلا للدس ، وتغلب عليهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع .

وأخطر أصلين من أصول الفلسفة الباطنية هما :

أولا : التفسير الباطني للكتاب والسنة الذى يهدف إلى تحريف ما اشتمل عليه دستور المسلمين من أفكار وصرفها إلى معان بعيدة عما قصد بها .

ثانياً : فكرة الإمام المعصوم وجعل هذا الإمام محوراً ثابتاً يرتبط به الدعاة بالطاعة الخالصة والانقياد الأعمى حتى يسهل على المتآمرين إقرار خططهم وتنفيذ مآربهم .

ويقول السيد أبو الحسن الندوى : إن فتنة الباطنية نشأت من ثمار الفلسفة اليونانية وكان معظم دعاتها أفراداً وأمماً : شعوباً قد فقدت سيادتها وحكمها فى تيار الفتوحات الإسلامية ، ولا مطمع فى استردادها بالحرب ، أو رجالا يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالإباحة وعبادة النفس ، والإسلام يحد من شهواتهم . أو رجالا يطمحون إلى السيادة المطلقة . وقد اجتمع هؤلاء تحت رابطة الباطنية وقد شعروا بأن الإسلام لا يهزم فى ميدان الحرب وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم : وهو (الفرق بين الظاهر والباطن) مركزين على الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها . وعن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين وماضيهم ومنابعهم الصافية فإذا انقطعت هذه الصلة (بين الكلمات والمعانى) وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين . وتسرب الشك والاختلاف إليها باتت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة . وساغ لكل أحد أن يقول ما شاء .

إن أصول الديانة الإسلامية وعقائدها وأحكامها ومسائلها إنما عرضت فى إطار ألفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها . وكان لا بد من ذلك عند كل رسالة جديدة ، وقد تعينت معانى الكلمات ومفاهيمها وتواتر ذلك عملياً ولفظياً فى الأمة واستفاض وعرفته الأمة الإسلامية ودانت به ؛ فكل كلمات (النبوة والرسالة والملائكة والمعاد والجنة والنار والشريعة والفرض والواجب والصوم والزكاة والحج) تؤدى معنى خاصاً وتفهم منها مفاهيم خاصة لا يشك فيها مسلم ولا يختلف فيها اثنان كما أن الحقائق التى تعبر عنها هذه الكلمات ظلت محفوظة فى الأمة وتتوارثها الأجيال وتنتقل مع الزمان) .

ومن هنا كانت مؤامرتهم فى التفرقة بين الكلمات ومعانيها : يقول ابن الجوزى فى كتابه تلبيس إبليس : قالوا : « إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر وأنها لصورتها توهم الجهال صوراً جلية وهى عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية . وأن من تقاعد عقله عن الغوص فى الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التى هى تكليفات الشرع ومن إرتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه » .

وقد مضت الباطنية فى هذه المحاولة إلى غايتها تمييزاً بين الظاهر والباطن وتفضيلا للباطن واستخفافاً بالظاهر وجعله مصدر سخرية ، واعتباره بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب . ووصفوا الظاهر بأنه متناقض معوج وأنه تقليد محض ولا دليل عليه ولا حياة فيه ويقولون : إن الغاية من الشريعة (التأويل) التى هى من الجسد كالروح وأن (التنزيل) ليس إلا جسما وقد تأولوا آيات القرآن وسنن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا ان من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، وأن جميع ما استبعد الله به العباد فى الظاهر من الكتاب والسنن أمثال مضروبة وتحتها معان فى بطونها ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة تماماً وإنما هى قائمة على مفاهيم الفلسفة اللاهوتية اليونانية . فالباطنية وهى من أخطر الأساليب وأكبرها أثراً فى جماعات الناس رغبة فى إرضاء الشهوات هى فى جملتها محاولة لتدمير لباب الإسلام وجوهره : تستهدف إذاعة ثلاثة محاذير خطيرة ينكرها الإسلام .

أولا : إيجاد الواسطة بين الله والإنسان .

ثانياً : القول بالعصمة للبشر فى أمور العقيدة . والشريعة .

ثالثاً : القول بسقوط التكليف .

(٤)

وقد تبين أن أغلب هذه الفرق كانت ترمى إلى غايات سياسية ولكنها اتخذت هذا الثوب البراق للخداع والتضليل من ناحية وحتى تستطيع أن تهدم القيم الأساسية التى تقوم عليها الدولة الإسلامية ، وقد كان وراء هذه الدعوات مؤامرات القرامطة والباطنية وعبد الله بن ميمون القداح والحسن

الصباح الذى بث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة .

وإذا كانت الحركة الباطنية القديمة تهدف من وراء احتضانها لحركتى الشعوبية والزنادقة إلى قلب نظام الحكم الإسلامى ، مجندة مجموعة من المجوس والثنوية والملاحدة والفلاسفة والحاقدين على الإسلام والعرب تسموا باسم (الرافضة) الشعوبية فإننا اليوم نجد مثل هذه الجماعات تتجمع من جديد تحت لواء الاستعمار والشيوعية والصهيونية محاولة بعث ذلك الفكر الوثنى تحت أسماء جديدة وفى كتب براقة تعمل لخدمة مخططات بروتوكولات صهيون التى كشفت عن ترابط عميق بين الصهيونية والشيوعية والاستعمار ، وقد أطلق على هذه الجماعات نفس الاسم القديم الروافض والشعوبية ، أعداء كل دين وملة ، الذين يعملون على احتواء جماعات الشباب والمثقفين المسلمين فى كل قطر عربى .

وإذا كانت (الشعوبية الباطنية) قد نجحت – مرحلياً فى اجتذاب الناس إلى صفوفها بفضل الخدع والمغالطات المنطقية التى استخدمتها – كما تحدث اليوم – فإنه سرعان ما ينكشف هذا الزيف ويدحض الحق باطلهم ، وقد تبين اليوم بطلان خدعة الفردوس الماركسى الموعود وانكشف فساد الأيديولوجية الديمقراطية والاشتراكية والقومية الغربية التى طرحت فى أفق المجتمع الإسلامى .

وكما يتبين فساد الدعوة الباطنية وارتباطها بالمصالح الأجنبية فقد تبين تماماً أن هذه الأيديولوجيات التى تحمل لواءها التغريب والاستشراق لا تهدف إلا إلى احتواء هذه الأمة وصهرها فى اتون الأممية والعالمية .

لم تستطع هذه الأفكار أن تحدث الأثر الذى كان يتطلع إليه دعاتها وهو تدمير الفكرة الإسلامية القائمة على التوصية كمقدمة لإسقاط الدولة الإسلامية ، فقد كانت مفاهيم الإسلام أكثر أصالة وأقرب إلى الفطرة والعلم والعقل فصدت هذه المؤامرة بقوة وتصدى العلماء المسلمون لهذه الموجة العاتية بقوة فكشفوا زيفها وأدالوا منها ، كما انكشف هدف هذه الدعوات وتبين ما وراءها من مؤامرات سياسية ، وتصدى الكثيرون للرد على هذه الشبهات ، وتتمثل هذه المواجهة فى عديد من الأعمال :

أولا : المدارس التى أنشأها نظام الملك لإقرار مذهب أهل السنة والجماعة

ودحض مزاعم الباطنية . وقد قامت هذه المدارس بدور هام فى هذه المقاومة ، وشارك فى هذه الحملة علماء كثيرون منهم : الغزالى والباقلانى والشهرستانى ، وغيرهم ، وربط كثير من المؤرخين بين الباطنية والمجوس واستدلوا على ذلك من نصوصهم التى تطلق كلمة العقل الأول على الله : **« سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً »** .

ثانياً : ظهرت فرق المتطوعة للنكير على الفساق ، وظهر خالد الدريوس الذى دعا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسهل بن سلامة الأنصارى الذى دعا إلى العمل بكتاب الله – يقول الطبرى : إنه تبعهما خلق كثير وأمكن منع الفساق وكشف عاداتهم ثم جاءت بعد ذلك فرقة الحنابلة فكان لها دورها التاريخى المعروف .

كذلك ظهرت حركة الزهد كرد فعل على حركة اللهو والانحراف التى قادها الزنادقة .

ثالثاً : عقد الخلفاء المناظرات لمناقشة آراء الباطنية والشعوبية ، ونوهضت أفكار بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس ورد على كثير مما أثاره أصحاب العقائد المجوسية . وقد نكل المهدى بالزنادقة وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين وأمر بالرد على ما نشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون ومما ترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس فى تأييد المذاهب المانوية والديصانية .

رابعاً : ظهر عدد كبير من حملة لواء الدفاع عن جوهر الإسلام منهم الحسن بن عثمان الخياط الذى ألف كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى فيما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم . وابن الجوزى الذى ألف فى الرد على الزنادقة والباطنية كتابه (تلبيس إبليس) حيث عرض بشبهاتهم ودحضها ، ورد ابن حزم على ابن النغريلة اليهودى الذى ألف كتاباً يناقض كلام الله ، والجاحظ وله مؤلفاته فى الرد على الشعوبية والباطنية وأهمها الحيوان والبيان والتبيين . وللغزالى فى هذا المجال القدح المعلى ، فقد ألف عدداً من الكتب ألف : المستظهرى ، وحجة الحق ، ومفصل الخلاف ، والدرج المرقوم بالجداول ، والقسطاس المستقيم ، وفضائح الباطنية . وعرض

لنظرية الإمام المعصوم وكشف عن أن هناك معصوماً واحداً وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما رد عليهم الشهرستاني وابن حزم ، وابن تيمية وابن القيم . كما ظهر جماعة من العلماء العادلين في مواجهة هذه التحديات ، كانوا نماذج للإيمان والورع والتقوى من أمثال : عبد الله ابن المبارك وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري والفضيل بن عياض ، وقد هجر هؤلاء مناصب القضاء والسياسة وأقاموا على دعوتهم إلى الله يعيشون من تجارتهم ويرفضون العطاء .

(٥)

وفي العصر الحديث نرى مفهوم الباطنية يتجدد في طبع مؤلفات ابن عربي والحلاج وابن الفارض ، ودراسة أفكارهم ومناهجهم وأساليبهم ورسائل إخوان الصفا . ويحمل رجال الأدب المعاصر مسئولية هذا العمل الخطير الذي يجرى تحت اسم الذوق الأدبي أو الفني . كذلك فإن كتاب العصر الذين يأخذون من هؤلاء دون أن يقدروا الخلفيات الخطيرة التي تحملها أفكارهم فهو انما يحملون إلى مثقفي العصر سموماً وشبهات تتعارض مع أصالة الإسلام وقيمه التقدمية البناءة .

ذلك أن المذاهب الباطنية في أصلها كانت تستهدف العقيدة الإسلامية من أساسها ، وأن تجديد هذه المذاهب تحت اسم الفن أو الأدب أو الفلسفة أو غيرها إنما هو (محاولة) جديدة لطرح هذا الفكر الفاسد المسموم مرة أخرى في أفق الفكر الإسلامي في واحدة من محاولات بلبلة العقيدة وتلويثها ذلك أن ما كتبه الباطنية إنما هو تخطيط شديد الخطر أرادوا به هدم أصالة الإسلام بالشبهات والتأويلات والشكوك القائمة على التأويل والتعطيل والدعوة إلى رفع التكليف . والفلسفة الباطنية في صميمها مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية وعلى الطبيعيات استخدمت مصطلحات الفلسفة اليونانية وعقائدها . قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . ولا ريب أن الفلسفة تنافي النبوة وتعارضها على خط مستقيم منذ النقطة الأولى فهما لا يلتقيان ، وإذا ظهرت الفلسفة بدأ احتقار الناس للدين ورغبتهم في التحرر منه ومن تكاليف عقائدة .

وما ترجم من كتب الفلسفة اليونانية الهلينية إنما هو كتب الإلهيات

والميتافيزيقا وهو ما يسمى علم الأصنام عند اليونان والذى هو وثنيتهم القومية . وقد بلغ خطر الباطنية أن قال عنه مؤلف (الفرق بين الفرق) : إن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم ، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الملحدين .

ولا ريب أن عبد الله بن سبأ هو مؤسس هذا المذهب الباطنى الذى استمده من المجوسية لإفساد الإسلام وإزالة ملك دعاته من العرب . ومن هذا المذهب تفرعت كل النحل المارقة الهدامة كالقاديانية والبابية والبهائية وغيرها من هذه النحل التى ما تزال ترهق الإسلام . وهذا ما يدعو الاستشراق والتغريب إلى التشبث به .

ولقد وضع عبد الله بن سبأ تعاليم هذه الفرقة وألف تلك الجمعية السرية التى بثها فى مختلف أقطار البلاد الإسلامية والعربية . وهو أول من طرح هذه المفاهيم فى أفق الفكر الإسلامى فأنشأ جماعة السبئية الخطيرة التى تولاها من بعده عبد الله بن المقفع ثم كانت تلك الجماعات الخطيرة التى حملت لواء تنفيذ مخطط المؤامرة : كإخوان الصفا والقرامطة والزنج .

(٦)

وفى طريق الانتماء اليهودى يشير بعض المورخين إلى المفاهيم التى أخذ (كعب الإحبار) ينفثها والتى تستهدف تشويه أهداف ركن الجهاد تمهيداً لقتله فى نفس المسلم ، وذلك بإثارة الشبهة حول مقاومة أعداء الإسلام أو مقاومة النفس وجهادها . على النحو الذى تقول به القاديانية اليوم ، ويضيف بعض الباحثين ظاهرة ادعاء بعض اليهود اعتناق الإسلام ومحاولتهم إحداث الفتنة بين المسلمين ، ومن آثار ذلك كله ظهور (الإسرائيليات) بوضع الأحاديث أو رواية الأحاديث التى نسبت إلى عبد الله بن سلام أو كعب الأحبار ، فقد كان ينظر إلى ما يروونه من الأحاديث نظرة ارتياب لما عرف عنهم ، وقد أشار كثير من الدراسات إلى أن هناك من دخلوا فى الإسلام ظاهراً وأبطنوا غيره وكان دخولهم ليفسدوا على المسلمين أمور دينهم ويبثوا فيهم الأفكار المنحرفة .

وقد أظهرت اليهودية فى أفق الفكر الإسلامى القول بالرجعة ودعت بعض

الفرق إلى تقديس الإمام على . فاليهودية قد أثرت فى الفكر الباطنى ، كما أثرت فى فكر المعتزلة .

ودعوة الجبرية دعوة يهودية الأصل ، كذلك فإن ما وضع من قصص فى كتب التفسير هو من تأثير الإسرائيليات . وهو قصص أعاد بعث الخرافات والأساطير التى كانت متداولة فى الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف .

ومن آثار اليهودية مسائل التأويل والمتشابه من القرآن وما يتصل باتخاذ الأقيسة المنطقية والتعليلات الفلسفية وسيلة لإثبات العقائد وهدفها هو إقصاء المنهج القرآنى فى العقائد ، ومن ذلك التصوير المادى فى وصف العرش والملائكة وحياة القبر .

ولعل أصدق ما يمثل دور اليهود فى الحركة الباطنية ما قاله الشعبى لمالك ابن معاوية حين قال : أحذرك الأهواء المضلة وشر الرافضة فإنهم يهود هذه الأمة يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية لم يدخلوا فى الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً لأهل الإسلام ونعياً عليهم ، وقالت الرافضة : لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى ، وقالت اليهود : لا يكون جهاد حتى يخرج المهدى .

ومن امتداد الانتماء اليهودى تجىء البهائية والقاديانية والروحية الحديثة ، وتجىء جماعة الدونمة التى حملت لواء مؤامرة إسقاط الدولة العثمانية ، ويطلق وصف (الدونمة) على يهود من أتراك أزمير وسالونيك حين كانت تابعة للدولة العثمانية اعتنقوا الإسلام فى الظاهر وهم يهود فى الباطن ، وقد تبعوا فى اعتناق الإسلام زعيمهم أو نبيهم (شبتاى) الذى ادعى عام ١٦٤٨ م أنه المسيح الذى ينتظره اليهود ليعمل على إنقاذهم من تشريدهم وليؤسس لهم ملكاً عريضاً ، ثم ادعى الإسلام ليفلت من الإعدام ، وكان قد قبض عليه عام ١٦٦٦ م فى القسطنطينية وحكم عليه بالإعدام فأعلن إسلامه إذ نطق بالشهادتين ، فلما علم السلطان محمد الرابع حاكم تركيا إذ ذاك حملته بساطته إلى الاعتقاد بأنه أسلم حقاً فعفا عن عقوبته ، وقد تبع شبتاى أتباعه فى ادعاء الإسلام وهؤلاء هم من يطلق عليهم وصف الدونمة ، وقد أشارت الموسوعة اليهودية إلى أن هذه الطائفة كانت تدعى الإسلام جهراً ولكنها تقوم بأداء

الشعائر اليهودية سراً ، ولما فشلت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن الماضى فى حمل الخليفة العثمانى عبد الحميد على السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين (التابعة لتركيا) اتجه اليهود ولا سيما الدونمة إلى تحطيم الخلافة العثمانية فى تركيا

ولم يكن من المصادفات أن يتم تبليغ السلطان عبد الحميد قرار البرلمان التركى بعزله على يد النائب اليهودى (قراصو) نائب سلانيك . فقد كان هذا النائب ذاته هو الذى سبق أن أوفده اليهود الصهيونيون لمقابلة السلطان عبد الحميد وإغرائه بقبول هجرة اليهود إلى فلسطين فى مقابل دفع خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية لخزانة الدولة وخمسة ملايين لخزانة السلطان الخاصة وقد رفض السلطان العرض . وكان اليهود ولا سيما الدونمة فى سلانيك وغيرها هم مؤسسو محافل الماسونية والداعون إلى الدعوة الطورانية فى تركيا ، وذلك للتخلص من الإسلام واللغة العربية وفصم عرى الروابط بين الترك والعرب . ولقد كان لذلك أثره فى حكم مصطفى كمال أتاتورك(١) .

* * *

---

(١) مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين .

الفصل الثانى

الدعـــوة الشعوبيـــة

الدعوة الشعوبية هى واحدة من فصائل مخطط المؤامرة على الإسلام وقد انصبت حملاتها على :

أولا : مهاجمة العرب حملة لواء الإسلام وأصحاب الدولة الإسلامية فى تاريخهم وأسلوب حياتهم وطمس ذاتهم وكيانهم ومهاجمة فكرة الشرف العربى والطعن فى نظرتهم إلى المروءة ومهاجمة القيم العربية والفضائل الخلقية التى تتمثل فى مفهوم الشرف والكرامة .

ثانياً : مهاجمة التاريخ الإسلامى . واللغة العربية .

ثالثاً : الطعن فى أصول القيم الإسلامية وجذورها .

رابعاً : تفسيخ القيم الخلقية العربية الإسلامية .

وقد عمدت الشعوبية إلى مهاجمة الثقافة العربية بصورة عامة لإحياء الثقافة الفارسية القديمة وتقليل شأن الثقافة العربية وإظهارها وكأنها غير وافية بحاجة العصر ، وقد ركزت الشعوبية فى هجومها على اللغة العربية بحسبانها وعاء الثقافة العربية بعد أن سيطرت على شعوب عالم الإسلام واللغات القديمة ، وأصبحت لغة الثقافة ولغة السياسة معاً . ولذلك فقد اتجهت حملتهم إلى تحريض أصحاب اللغات بالعودة إلى الإنتاج والتأليف بلغتهم .

كذلك عمدت الشعوبية إلى إذاعة المجون والشراب والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى واعتبرت ذلك نوعاً من التحرر والظرف .

ونحن نجد اليوم نفس الأسلوب يتكرر بظهور الشعوبية الحديثة التى تطعن فى العرب ومقوماتهم وعقيدتهم وتحمل لواء الإباحية والإلحاد وتستخف بالقيم الأخلاقية فى بناء الأسرة والجماعات . فنجد الدعوة إلى مظاهر الخلاعة

والمجون والانغماس فى الشهوات الجنسية وشرب الخمر تحت اسم الانطلاق والتحرر والعصرية .

وقد تركزت حملة الدعوة الشعوبية فى تزييف التاريخ وظهر ما أطلق عليه كتب المثالب . وقد حملت هذه الكتب صوراً مشوهة وزائفة للعرب بهدف استنقاص تاريخ العرب وقيمهم وحمل الأجيال الجديدة على التنصل من ماضيهم واحتقار أمتهم .

وكذلك قامت على بعث الأساطير والخرافات القديمة والتراث الوثنى لإبعاد المجتمع الإسلامى عن تاريخه الأصيل .

وهذا العمل قد تكرر فى العصر الحديث عن طريق كتابات المستشرقين والمبشرين وأتباعهم من دعاة التغريب . وقد عاش الدكتور طه حسين عمره كله يجمع صور الفحشاء والانتقاص من تاريخ العرب والمسلمين ، ويذيع بها ، وتابعه على هذا الطريق عدد كبير من التغريبيين أمثال : لويس عوض وأدونيس ويوسف الخال وحسين فوزى وزكى نجيب محمود وسلامة موسى ومحمود عزمى .

ولقد واجه الثعالبى والجاحظ فى العصر الأول سموم حملات الشعوبية ودافعوا عن اللغة العربية وأظهروا مزاياها وكشفوا عن مظهر حيويتها ، ونشط الكتاب والمفكرون العرب لربط التراث الثقافى العربى قبل الإسلام بالأدب العربى بعد الإسلام . كما عمد البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان) إلى الكشف عن الدور الضخم الذى قام به العرب فى سبيل نشر الإسلام وتكوين الدولة الإسلامية .

واليوم نجد عشرات من كتاب حركة اليقظة يواجهون حملات الشعوبية على اللغة العربية والقيم الإسلامية العربية فى الجيل الأول من أمثال : مصطفى صادق الرافعى والغمراوى ومحب الدين الخطيب وحسن البنا . وتواصل الأجيال حمل لواء المقاومة .

قال السيد المرتضى : نشأت جماعة تتستر بإظهار الإسلام وتظهر شعاره وتدخل فى جملة أهله وهم زنادقة ملحدون . وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ لأنهم يوغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط

ورأى جامع ، والزندقة تعادى الإسلام والعروبة معاً ، تبدأ بالتهجم على العرب إلى مهاجمة العربية وتنتهى بالهجوم على الإسلام . وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة قال : (فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فإن التجاوز عن الدين يؤدى إلى تجاوز كافة القيم) .

ويوضح ابن قتيبة أن الشعوبية تدفع أصحابها إلى الغلو فى القول والإسراف فى الذم ، وهم حين يركزون على الأمة العربية إنما يتطلعون منها إلى هدم الإسلام نفسه ، ولذلك فقد عمدت حركة المواجهة الإسلامية إلى تأصيل دور العرب الذين حملوا راية الإسلام إلى الشعوب الأخرى وأعطوا الإسلام نطاقه الجغرافى الأول بالفتوحات ، وصحب انتشار الإسلام توسع العربية إذ نزل القرآن بلسان عربى مبين وجاء الحديث بالعربية الفصحى وقام العرب بالدور الأول فى وضع خطوط اللغة وفى رسم المذاهب الفقهية ، فعربوا الدواوين والإدارة فى صدر الإسلام . وهم الذين عملوا بجد وحماسة لتكوين العلوم العربية والإسلامية ورسم إطارها العام إلى أن جاء دور الشعوب الأخرى لتشارك فى هذه الثقافة ، فلما ساهمت تلك الشعوب فعلت ذلك باللغة العربية .

وكذلك ركزت حملات الشعوبية على الجذور والأصول فهى تهاجم العرب قبل الإسلام وتتهمهم فى كل شىء : فى أسلوب حياتهم وفى فصاحتهم وخطبهم وفى أنسابهم وفى علاقاتهم الاجتماعية وفى مقاييسهم الخلقية .

وقد واجهت الأصالة العربية الإسلامية هذه الحملات فكشفت عن زيفها وأظهرت السجايا العربية الحميدة وكشفت عن المروءة العربية ودافعت عن أنساب العرب وكيانهم الثقافى .

وكانت من أخطر محاولات الشعوبية فى القديم . التى تجددت فى العصر الحديث الدعوة إلى العودة إلى اللغات المحلية ، وقد ساعد على ذلك نفوذ الاستعمار والتبشير الذى حال بين كثير من أجزاء العالم الإسلامى وبين اتخاذ اللغة العربية لغة أساسية بعد أن فرض عليهم إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية وعمد إلى لغاتهم الإقليمية فدفعهم إلى كتابتها بالحروف اللاتينية .

وقد دافع الجاحظ والثعالبى عن اللغة العربية لأنها لغة القرآن ولغة الثقافة العامة وفى العصر الحديث دافع كثير من رجال حركة اليقظة عن اللغة العربية وكشفوا زيف خصومها (اقرأ كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية) .

الفصل الثالث

إخوان الصفا

كانت (إخوان الصفا) هي أولى ثمار الحركة الباطنية فهي الجماعة السرية التي مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية لتخرج للناس مذهباً جديداً ، يمزج إلهيات اليونان ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ، وفيثاغورس وغيرهم بالعقيدة الإسلامية في خليط متضارب فاسد .

وقد أنتج هؤلاء العشرة (رسائل إخوان الصفا) التي أذاعوها بعد أن كتموا أسماءهم واستتروا وراء تلك الرموز الخفية التي وضعوها هنا وهناك من فصول كتاباتهم واستهدفوا منها وضع برنامج للعمل السري الذي يستهدف القضاء على الإسلام ودولته وتأسيس دولة أخرى على أنقاض الدولة الإسلامية تضم العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية التي نسقوها من جماع ركام الفكر البشري الزائف الممتد من فارس إلى الهند إلى اليونان والذي اختلطت فيه الهلينية الإغريقية بالغنوصية الشرقية .

وصفهم أبو حيان التوحيدي في كتابه (الامتاع والمؤانسة) بأنهم (عصابة) تألفت بالعشرة وتصادفت بالصداقة فوضعوا مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنعوا خمسين رسالة (٥١ رسالة) في جميع أجزاء الفلسفة علمياً وعملياً وأفردوا لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفا) وكتموا فيها أسماءهم وبثوها في الوارقين ووهبوها الناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة .

(وهذه الرسائل تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والإلهيات والعقليات يعوزها التعمق والنظام ويظهر فيها الإغراق فى الخيال والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص ولا انتقاد وبحث فى كل علم عن غير إشباع وإقناع ، فهى مبثوثة من كل قيد بلا إشباع ولا كفاية . ينكرون فيها البعث بالأجساد ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلافاً لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية ويذكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويقولون : هى النفوس الشريرة الهائمة فيها فلك القمر مع أخواتها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ، ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً ويشتمل على كثير من الآراء الخيالية بعضها متلقف من اليونان وبعضها وليد الأذهان وبعضها تراث الكهان كأسرار الأعوام والتنجيم والفال والزجر . والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الأفلاك ونغماتها ويشتمل كذلك على عقيدة الوحى والإمام المستور والتقية . وفيها إعداد النفوس والقول لدولة جديدة تقوم على أهل البيت . وإخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها . وبالاختصار فهى مجموعة غريبة من الحكم والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة . تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانهيارها وليست لها أهمية كبيرة . ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود العالم فى القرن الرابع والخامس وإجلال كل ما يظهر من الصنعة الفلسفية لما نالت هذا الاهتمام) .

وهكذا نرى بوضوح أن الرسائل كانت مقدمة لتحويل الدعوة الباطنية إلى مؤامرة خطيرة لتدمير الدولة الإسلامية والفكرة الإسلامية معها . أو كما قال أحد الباحثين : محاولة لوضع نظام جديد خلقى إلهى علمى يحل محل الشريعة الإسلامية التى يعتقد إخوان الصفا أنها بشكلها الحاضر قد أصبحت عتيقة لا تؤدى رسالتها وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً فلم تنتج نظاماً علمياً ولم تنشىء مجتمعاً جديداً يقوم على أساسها وأصبحت فى مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ولا محل لها إلا فى المتاحف والمكتبات .

ويرى الدكتور عبد اللطيف محمد العبد : أن إخوان الصفا وخلان الوفا كانوا يضعون السم في العسل لخدمة أهدافهم وأن هذه الرسائل كانت سجلات لمحافلهم السرية . وأنها تمثل المذهب الباطني الإسماعيلي في دور الستر ، لما تقوم عليه من تأويلات باطنية عديدة . ولقد كان للمذهب الأفلاطوني المحدث تأثير بالغ في هذه الرسائل فلم يختلف إخوان الصفا عن أفلوطين في القول : بأن العالم وحدة حية متكاملة نابضة بروح سارية في كل أجزائه (وهو ما يسمى مذهب وحدة الوجود الذي ينكره الإسلام إنكاراً شديداً ويعارضه معارضة تامة) .

كذلك فهم في أبحاثهم عن الإنسان (صديقاً وفيلسوفاً ونبياً ورسولا) يطبقون تعاليمهم الباطنية وينفثون سمومهم الهدامة .

وهم في مفهوم للإمام يعارضون مفهوم الإسلام الصحيح حين يرون أن الإمام إلهي الذات وأنه معصوم . بينما لا يقر الإسلام عصمة إلا لرجل واحد هو محمد بن عبد الله رسول الله . وبذلك فقد كانت هذه الرسائل هدماً لمفاهيم الإسلام الأساسية وهدماً للنبوة وحرباً للإسلام وطعناً في الصحابة.

وقد استغل الباطنية التشيع في نشر دعوتهم . كما استغلوا التصوف التصوف الفلسفي وتستروا وراء أهل البيت والصوفية .

وكانت دعوتهم إلى وحدة الأديان وإلغاء التعصب لدين ما علامة على انحرافهم وخروجهم على مفهوم الإسلام الأصيل . كذلك فقد كان أشد آرائهم فساداً هو قولهم : إن الخاصة لا حاجة لهم إلى الشرائع ، ودعوتهم إلى التحلل من الفرائض وقولهم : إن الشرائع للعامة وحدهم ولا ريب أن ما سموه علم الباطن إنما يعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من الوحي عن عامة الناس وحاشا لله أن يكتم صلى الله عليه وسلم شيئاً .

(٢)

أشكل منذ وقت بعيد معرفة مؤلفي رسائل إخوان الصفا فذهبت طائفة من الناس إلى أن الذي ألفها أحد متكلمي المعتزلة أو الإمام جعفر الصادق (جاء ذلك في منهاج السنة النبوية لابن تيمية) وذكر ابن حجر في فتاويه أن الذي ألفها هو المجريطي وأيده في ذلك صاحب كشف الظنون ، وذهب

البعض إلى أن جماعة لا شخصاً واحداً هم الذين ألفوا هذه الرسائل فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى . وأشار أبو حيان التوحيدى إلى أن وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة أخبره عام ٣٧٣ هـ أن من جماعة إخوان الصفا أبا سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالقدسى . وأبا الحسن هارون الزنجانى . وأبا أحمد المهرجانى والعقوفى وزير بن رفاعة .

وهناك من نسب الرسائل إلى أحد أئمة العلويين . لكون الرسائل مملوءة بالتعاليم الإسماعيلية . ويقول الباحث الذى نقلنا عنه هذا (مجلة الكلية مايو ١٨ سنة ١٩٣١ م) : إن الرسالة الجامعة هى خلاصة الرسائل والتعاليم الباطنية اختص بقراءتها أقطاب الدعوة الإسماعيلية دون غيرهم . وقد كان — لبول كازنوفا الفضل الأول فى إظهار هذه الرسالة للعالم الغربى سنة ١٨٩٩ م .

ولا ريب أن اهتمام الاستشراق والتغريب بهذه الرسائل كان بالغاً ولذلك فإن جماعة منهم (نيكسن — جولدزيهر — أوليرى) بالإضافة إلى كازنوفا قد وضعوا عدداً من الأبحاث حولها وإن كانت كتابات هؤلاء المستشرقين لم تستطع أن تنكر نسبتها إلى الحركة الباطنية فقال كازنوفا :

(إننى على أتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هى برمتها آراء الإسماعيلية . ومحور هذه الآراء هو الاعتقاد بعودة الإمام وقد اتهم القرامطة والحشاشون من قبل أعدائهم بالكفر ولكن ليس لهذه التهمة ظل من الحقيقة) .

ويقول أوليرى : هناك ما يغرى بالظن بأن حركة إخوان الصفا كانت حركة إصلاح من جانب بعض الإسماعيليين الذين أرادوا الرجوع إلى تعاليم الإسماعيلية .

ويقول جولدزيهر : أعتقد أن رسائل إخوان الصفا كانت الأساس الذى بنيت عليه معتقدات الإسماعيلية .

ولا عجب أن يدافع المستشرقون عن إخوان الصفا .

ويقول أديب عباسى (الرسالة م عام ١٩٣٤) معلقاً : « إن أول ما يلحظ فى أوجه الشبه بين الإسماعيلية وإخوان الصفا الأسلوب الذى جروا عليه فى نشر دعوتهم والدعاية لمذهبهم . وهو أسلوب الإسماعيلية المعهود (أسلوب التدرج فى بث الفكرة والتلطف فى عرضها على الناس) ومن أبواب التشابه

بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقاً كلياً فى مذهب الحلول فهو فى رسائل إخوان الصفا كما فى تعاليم الإسماعيلية المحور الذى تدور حوله هذه الرسائل والتعاليم »:

ووجه آخر : هو تفسير القرآن تفسيراً مغايراً لما يدل عليه ظاهر اللفظ وهذا هو الأسلوب الباطن . ووجه ثالث هو التشيع لآل البيت والدعوة إلى الإمام المنتظر أو المهدى . ويرى أن المعنى فى كلام إخوان الصفا للفاطميين وقرائن الأحوال تدل على أن لهم بهم صلة .

ويقول ماكدونالد : إنه مما يثبت علاقة إخوان الصفا بالإسماعيلية ومن تفرع منهم وجود قسم من رسائلهم فى كتب الحشاشين المقدسة .

وقد ألقى بعض الباحثين أضواء أخرى على موقف إخوان الصفا تشير إلى أن المثل الأعلى فى رسائلهم ليس مثلا أعلى إسلامياً (وإنما هو عبرانى فى مخبره مسيحى فى منهجه يونانى فى علمه) (مجلة الرسالة الإسلامية العراقية عام ١٩٧٢ م) وأخطر ما يدمغهم هو أنهم لم يقفوا عند عقيدة واحدة . وإنما أخذوا من كل دين وعلم وفلسفة ومذهب دون إطار ثابت هو فى حد ذاته دليل على مؤامرتهم ضد الإسلام .

وكونهم لم يعلنوا عن أسمائهم على أنهم دعاة لا علماء .

كل هذا يكشف أن لهم غاية سياسية يخفونها كالوصول إلى الحكم أو القضاء على الدولة القائمة . ولذلك فهم يكثرون من ذكر رموز وإشارات معينة لها تفسيرها الخاص . وهذه الظاهرة واضحة فى كتابات ابن سينا الذى يستعمل الرموز والإشارات .

ولا ريب أن تفهمهم للدين مخلوطاً بالفلسفة هو فى حد ذاته خروج عن مفهوم الإسلام الصحيح .

وقد ذكر السيد محب الدين الخطيب (مجلة الفتح ١٨ م ١٢٦٧ هـ) عن أغاخان فى كتابه (نورمبين حبل متين) أن مؤلف إخوان الصفا من أئمة الإسماعيلية وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويقول الدكتور حسين الهمذانى أحد دعاة الإسماعيلية : إن الإسماعيلية يرون القرآن كتاب العامة ورسائل إخوان الصفا . كتاب الأئمة .

كان من أبرز أعمال التغريب والغزو الثقافى ممثلا فى الاستشراق والتبشير إعادة طبع وإحياء رسائل إخوان الصفا من جديد بعد أن دفنت وماتت وكشف زيفها أكثر من ألف سنة فقامت المطبعة الكاثوليكية فى بيروت بإعادة طبع هذه الرسائل . ثم جاء الدكتور طه حسين من أوربا عام ١٩٢٩ م ليعيد طبع رسائل إخوان الصفا ويقدم لها ، وليس هذا عيباً فى ذاته إذا ما روعى فيه أصول البحث العلمى ووضعت هذه الرسائل فى موضعها الحقيقى من حيث أن جماعة إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع الهجرى فى البصرة على هيئة جماعة سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية .

وقد كان هدفهم من هذه الرسائل وضع مخطط لتقويض المجتمع الإسلامى لو أن الدكتور طه كشف عن هذا الهدف لكان صادقاً فى النصح لقومه ولكن الدكتور طه كذب على الناس وادعى أن إخوان الصفا قوم مجددون مصلحون قدموا للمجتمع الإسلامى الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية لانشاء ثقافات جديدة وهى الثقافة التى يجب على الرجل المستنير أن يظفر بها .

وهكذا خدع طه حسين قومه وهو يعلم فى أعماق نفسه أنه إنما يعمل على هدم القيم الإسلامية بإعادة إذاعة هذه الرسائل كجزء من مخطط التغريب والغزو الثقافى .

وينضم إليه زميله زكى مبارك ليقول : من الذى يصدق أن رسائل إخوان الصفا هى أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية ؟ . هكذا علمهم المستشرقون ، أما المطبعة الكاثوليكية فهى تقول أن من أسباب عظمة هذه الرسائل أن كتب عنها طه حسين وفروخ وجبور والدسوقى وصليب والهمذانى والعوا وماسينيون ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا فى درجة واحدة فى الإعجاب برسائل إخوان الصفا ، وفيهم من كشف عن علاقة إخوان الصفا بالمؤامرة الباطنية .

ولقد كان حقاً على هؤلاء جميعاً أن يكشفوا حقيقة رسائل إخوان الصفا بالنسبة لمفهوم الإسلام الأصيل . وأن هذه الرسائل تعارض هذا المفهوم فى عدة أصول أساسية :

أولا : إنكار البعث بالأجساد .

ثانياً : تفسير الجنة والنار والآخرة تفسيراً مخالفاً لما تواتر عند المسلمين

ثالثاً : تفسير الكفر والعذاب تفسيراً باطناً معنوياً .

رابعاً : فساد نظريتهم القائلة : بأن النبوة يمكن أن تكتسب عن طريق الرياضة وصفاء القلب .

خامساً : فساد قولهم : بأن من ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

ومن أشد فساد عملهم محاولتهم صهر الأديان والعقائد كلها فى صورة زائفة . ومن ذلك قولهم : الرجل الكامل يكون فارسى النسب عربى الدين عراقى الآداب عبرانى المخبر مسيحى النهج شامى النسك يونانى العلم هندى البصيرة صوفى السيرة ملكى الأخلاق .

وهذا يعنى وحدة الأديان . وهى دعوى اليهودية التلمودية التى حاولت على مدى العصور أن تكيد للإسلام . وهى دعوى تتجدد فى العصر الحديث حيث نرى دعاة التغريب يقولون بالتقاء الأديان والثقافات فى وحدة الثقافة العالمية التى تستمد أصولها من الفكر التلمودى الذى احتوى الفكر الغربى والحضارة العالمية .

ولا يبعد هذا عما كان يقوله إخوان الصفا فى رسائلهم حين يقولون : (ينبغى لإخواننا ألا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب . لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها . أما مفهومنا الإسلامى فإن الإسلام له ذاتيته الخاصة وأصالته المفردة التى تجعله قائماً بذاته مستمداً من طوابعه وقيمه وحدها . ولا يقبل الانصهار فى الفكر البشرى أو الأممية والعالمية القائمة على الوثنية والمادية) .

وقد وصف أبو حيان التوحيدى رسائلهم : بأنها مبثوثة فى كل فن

بلا إشباع ولا كفاية . وهي خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات ، حملتها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه . فنظر فيها أياماً وتبحرها طويلا ثم ردها على وقال :

تعبوا وما أغنوا . ونصبوا وما أجروا . وحاموا وما وردوا . وغنوا وما أطربوا . ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا . ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع . ظنوا أنهم يمكنهم أن يدرسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وأثار الطبيعة ، والموسيقى التي هي معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان والمنطق الذى هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات في الشريعة . وأن يضموا الشريعة للفلسفة وهذا مرام دونه حدود . وقد توفر على هذا — قبل هؤلاء — قوم كانوا أحد أنياباً وأعظم أقداراً وأرفع أخطاراً . وأوسع قوى وأوثق عرى . فلم يتم لهم ما أرادوه . ولا بلغوا منه ما أملوه . وحصلوا على لوثات قبيحة ولطخات ناضحة . وألقاب موحشة وعواقب مخزية . وأوزار مثقلة .

ويقول أبو سليمان المنطقي بعد ذلك : (وكما لم نجد في هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهي النصارى وكذلك المجوس . ومما يزيدك وضوحاً ويريك عجباً . أن الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافاً فيها ومزقا كالمرجئة والمعتزلة والخوارج فما فزعت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلسفة ولا حققت مقالتها بشواهدهم وشهاداتهم ولا اشتغلت بطريقتهم ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها . وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام . منذ أيام البدر الأول إلى يومنا هذا لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم ولا قالوا لهم أعينونا بما عندكم أو اشهدوا لنا أو علينا بما قبلكم) .

وهكذا نجد أن هذا العمل قد وجد من علماء المسلمين معرفة لهدفه وكشفاً لزيفه بما أسقطه في نظر المثقفين . حتى جاء دعاة التغريب فجددوه في العصر الحديث وادعوا أنه علم وفهم وثقافة وما هو إلا سموم عرفها أهل الأصالة الإسلامية . وضلال كشفوا عنه وأبانوا فساده . وكان خليقاً بأهل عصرنا أن يعرفوا هذا فلايتردوا في خطر النظر أو المتابعة لهذه الأعمال الضالة المضلة .

الفصل الرابع

دعاة الباطنية

حظى دعاة الباطنية الذين حملوا سموم هذه النحلة المضلة بتقدير كبير من رجال التغريب والغزو الثقافى وكان لهم القدح المعلى لدى حركة الاستشراق والتبشير . فكتبت الأبحاث الطوال حول عبد الله بن سبأ وعبد الله بن المقفع وابن سينا والفارابى وابن الراوندى والرازى والمأمون ، ووضعوا جميعاً موضع التمجيد والتقدير ، واحتفل بهم فى ميادين مختلفة منها ميادين الأدب والتاريخ والفلسفة . وألف الدكتور طه حسين كتاباً ضخماً تحت اسم الفتنة الكبرى ، ليبرئ اليهودى ابن سبأ من المؤامرة التى قام بها والطائفة التى تشكلت باسم السبئية والتى كانت تقول بألوهية على بن أبى طالب . بينما تجمع المصادر التاريخية الإسلامية كلها على أنه يهودى من اليمن يلقب بابن السوداء أظهر الإسلام ورحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة ودخل دمشق فى أيام عثمان فأخرجه أهلها فانصرف إلى مصر وهو فى كل مكان يؤلب على عثمان ويدعو إلى خلعه .

وقد كان عبد الله بن سبأ هو أول من أدخل فى أفق الفكر الإسلامى مفاهيم الوصية والرجعة والتناسخ وقد قال برجعة النبى ودعا بألوهية على ، عن ابن عساكر أنه لما بويع على قام إليه ابن سبأ فقال له :

أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق . فنفاه إلى ساباط المدائن حيث القرامطة وغلاة الشيعة ، وقيل أنه قال أن محمداً خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . قال ابن حجر العسقلانى : إن ابن سبأ من غلاة الزنادقة .

وقد بث عبد الله بن سبأ فى البلاد الإسلامية دعاته وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والطعن فى الأمراء فأخذوا يثيرون الناس على ولاتهم تنفيذاً لخطة زعيمهم ويضعون كتباً فى عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصرهم من الأمصار . ونتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين

بتحريض السبئيين وقدومهم إلى المدينة وحصار أمير المؤمنين عثمان فى داره وقتــاله .

وتكشف كتب التاريخ الإسلامى عن دور عبد الله بن سبأ الواضح فى إثارة الفتنة وتنظيم الاتصال بين الثوار فى مختلف المدن والأمصار .

وقد نقل الطبرى (٥ – ٦٦) وأكثر المصادر الإسلامية أن اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ ورد الشام فلقى أبا ذر فقال له : يا أبا ذر ألاتعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله . إن كل شىء لله . كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين . ويمحو اسم المسلمين . فأتى أبو ذر معاوية فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مالله ؟ فقال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر . ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ وأتى ابن السوداء الصحابى الجليل فقيه أهل الشام أبا الدرداء فقال له ما قال لأبى ذر فأجابه أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهودياً . وأتى ابن سبأ الصحابى المجاهد عبادة بن الصامت فتعلق بــه معاوية فقــال هذا والله الــذى بعث عليك أبا ذر » .

وكان للسبئيين موقف آخر خطير . فإنهم عندما رأوا المسلمين قد بايعوا علياً وخرج طلحة والزبير إلى البصرة لحرب الجمل . ووجد السبئيون أن رؤساء الجيش أخذوا بتفاهمون وأنهم إن تم ذلك سيأخذون بدم عثمان فاجتمعوا ليلا وقرروا أن يندسوا بين الجيشين ويثيروا الحرب بكره دون علم غيرهم . فاستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فناوش المندسون من السبئيين فى جيش على من كان بإزائهم من جيش البصرة ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما وظن كل بخصمه شراً .

قال رشيد رضا : من راجع أخبار واقعة الجمل فى تاريخ ابن الأثير فلابد أن يرى مبلغ تأثير إفساد السبئيين لذات البين دون ما كاد يقع من الصلح

وقد وصف ابن سبأ بأنه كان مبشراً متجولا يغرى المسلمين ويوردهم مورد الخطأ . وألقى عصا الترحال فى مصر بحيث استقر هناك يدعو الناس إلى الاعتقاد بالرجعة .

ويشير الأستاذ محمد سعيد الأفغاني أن الجمعية التي أنشأها عبد الله بن سبأ كانت تعمل لحساب دولة أجنبية هي دولة الروم التي انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام ، يقول : اقطع بأنه أحد أبطال جمعية سرية مختلفة غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام . وأن هذه المؤامرة كانت منظمة محكمة سهر عليها أبالسة خبيرون وتعهدوها في جميع الأقطار حتى أتت ثمرتها ، وأن هذه المؤامرة لم تلق من عامة المؤرخين ما يستحق من التوضيح والاهتمام . وعنده أن عبد الله ابن سبأ أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين هما الرجعة الوصاية في قوله (العجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً صلى الله عليه وسلم يرجع) ،وقد قال الله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ومحمد صلى الله عليه وسلم أحق بالرجوع من عيسى عليه السلام فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت في المجتمع . ثم قال لهم بعد ذلك : إذا كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد ومحمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء (تاريخ الطبري ٣ — ٣٧٨) وجمع بين إفساد الميدان الديني والسياسي في إذاعة قوله (فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة) ثم قال إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر . ثم طاف الأقطار العربية قطراً قطراً وبدأ بالحجاز باثاً ضلالة ثم انعطف إلى الشام يومئذ فبصر بأمره معاوية الذى فطن إلى خطره فأبعده إلا أنه على ضرره أصابه رشاش من إفساد . وزعم الطبري أن ابن السوداء لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر ، والصحيح أنه قدر وزرع وحرك على معاوية صحابياً جليلا أذعن عامة الشام لأقواله حتى اضطر معاوية الداهية الحليم أن يطلب إلى الخليفة عثمان إخراجه من الشام : ذلك هو أبو ذر الغفاري وحادثه معروف .

واستقر في مصر ، بؤرة الناقمين — إذ ذاك — وأحكمت هذه الجماعة أمرها وأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاعوا من شكوى واستنجاد

بأهل الأمصار وتحريض لهم على الثورة والخلع . وجعلوا هذه الكتب على لسان علي وطلحة والزبير وعائشة . وملا ابن السوداء البلاد نقمة وفساداً وسالت جموع الثائرين على مدينة الرسول فقتل الخليفة عثمان وبعد أن سقط الخليفة عثمان وضج الناس من هول الفاجعة بدأ حلقة أخرى : وأخذ يتحفز لإحكام مؤامرة أكبر وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها كارثة عثمان فقد انضم هو ومن تابعه إلى علي ابن أبي طالب حين خرجت السيدة عائشة للمطالبة بدم عثمان .

وقال لهم : إذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأي وتفرقوا عليه .

(الطبري ج ٣ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ حديث هذه المؤامرة)

خرج مضريهم إلى مضريهم وربيعيهم إلى ربيعيهم ويمانيهم إلى يمانيهم فوضعوا فيهم السلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بغتوهم وحيرتهم الصدمة . وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ، فقالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلا . فقالا : قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة . وأنه لن يطاوعنا . واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم وقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة . والتحم الناس بعضهم ببعض وبدأت المعركة ثم انحسرت عن خمسة عشر ألفاً من القتلى وما لا يحصى من الجرحى وكان ممن قتل رءوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .

وجملة ما قام به ابن السوداء وأخلافه في مختلف الأعصار والأمصار :

١ — الدس في الدين .
٢ — تفرق الكلمة .
٣ — الاستهانة بالتاريخ .
٤ — الاستخفاف بالتقاليد والمقومات .
٥ — الوضع في شأن اللغة .

٦ – إفساد الأخلاق .

٧ – التهوين من سلامة النظم .

٨ – الإشادة بكل مذهب أجنبي .

ويعلق محمد سعيد الأفغاني على ذلك فيقول : إن هذه المؤامرة ترجع إلى توسيد أمورنا الصغيرة والكبيرة إلى الذين كانوا مطايا للاستعمار وجواسيس للأجانب وأجراء لكل دعوة هدامة .

والواقع أنه يمكن الآن الرجوع في كل نظريات التغريب والغزو الثقافي إلى أفكار عبد الله بن سبأ .

ومن هذه الإدانة الشديدة لعبد الله بن سبأ يتابع طه حسين رأي اليهودية التلمودية في إنكار وجوده . والادعاء بأنه شخصية خيالية حيث يقول أنه ليس لهذا اليهودي (عبد الله بن سبأ) يد فيها وأن ليس لليهود عمل في تأريث نارها .

راجع هذه القصة في كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية) .

يقول : هناك قصة أكثر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم يمح آثارها بعد وهي قصة عبد الله بن سبأ ويقول : لست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن . ولكني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون في عصر عثمان ليبعث بقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان .

وقد دحض دعوى الدكتور طه حسين الأستاذ محمود محمد شاكر حين قال : إن قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه إيهام شديد وتعمد . فإن الطبري ليس من الرواة المتأخرين . وأن سيف بن عمر الذي روى عنه الطبري هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء فهو شيخ الطبري والبلاذري وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبري أنهما من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه حسين أن يوهم قارئه . وأن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف . فإذا لم يكن كتاب

الطبرى من المصادر المهمة التى بين أيدينا . وإن كان من حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله ابن سبأ اليهودى اللعين أن البلاذرى لم يذكره (وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) . ثم عاد فنفى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر . مع أن البلاذرى ذكره وأطال ، وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره . ولا ندرى كيف يستقيم أن نجعل عدم ذكره خبراً ما حجة فى نفيه ثم ينفى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ولج فيه .

ثم يشير محمد محمود شاكر إلى اعتماد طه حسين فى إنكار عبد الله ابن سبأ على الجزء الذى طبع من كتاب البلاذرى (أنساب الأشراف) الذى قام بطبعه رجل من طغاة الصهيونية ويقول : ليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك فى ذمة هذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية فى أورشليم . نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى قد يترك المؤلف منها شيئاً فى مكان ثم يذكره فى مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر فى المكان الأول ، أفلا يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة عمار بن ياسر أو محمد بن أبى بكر أو محمد ابن حذيفة أو رجل ممن اشترك فى هذه الفتنة . وهو يعلم أن الذى وجد فى كتاب البلاذرى قسم ضئيل جداً طبع منه جزء فى ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان عام ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر عام ١٩٣٨ ، وقال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعربية أن هناك حوادث جرت فى عهد يزيد بن معاوية هى واقعة كربلاء وموت الحسين ، أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذرى قد أدمج أمر عبد الله ابن سبأ فى مكان آخر كما فعل فيما لاحظه هذا اليهودى . كل هذا جائز . ولكن الدكتور حين يريد أن ينفى شيئاً لا يبالى أن يجتاز كل هذا ويغضى عنه ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نسى الدكتور أن من يروى خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ، بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحقيقاً له . أن الدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله حين نفى خبر عبد الله بن سبأ

وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه فى البحث العلمى .

لقد خالف الدكتور سنة العالم فى نفى الأنباء وتكذيبها بلا حجة من طريق أهل التمحيص ، بل تحكم بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذرى وتقدمه على الطبرى . وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها . كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً .

إن الهدف هو أن ينفى عن اليهود الشركة فى دعم عثمان والتحريض على قتل الإمام . فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء فى جرح الأخبار وكذب الرواة فى شىء بغير برهان وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان .

وهكذا نجد أن الدعوى الشعوبية والباطنية الحديثة قد وجدت طريقها من احياء مادة الدعوات الباطنية القديمة لزلزلة العقائد وإفساد المفاهيم تحت اسم إحياء التراث أو النقد الأدبى .

(٢)

ويمثل عبد الله بن المقفع الحلقة الثانية فى ذلك المخطط الذى رسمه عبد الله ابن سبأ . وهو اسم لمع فى العصر الحديث واهتم به دارسو الأدب العربى ، أعلوا من قدره وحاولوا أن يجعلوه على رأس البلاغة العربية متجاهلين الدور الحقيقى الذى قام به بلغاء الصحابة الذين سبقوه على الطريق . وقد جرت إحاطة اسمه بهالة من التقدير والإعجاب لبس بوصفه صاحب الأسلوب البليغ بل وبأنه الرجل الذى ترجم عديداً من ثمرات الأدب الفارسى إلى الأدب العربى . ولا ريب أن ابن المقفع كان ماكراً شديد المكر . فقد سار فى طريقه بخطوات دقيقة متتبعاً خطة المؤامرة الشعوبية الكبرى وإن كان أمره قد انفضح من بعد ونال جزاءه . ولكن دعاة التغريب فى العصر الحديث استطاعوا عن طريق فصل قطاع الأدب عن جسم الفكر الإسلامى وقيمه . أن يذيعوا به كثيراً من أعمال الشعوبية الخطيرة ، ولقد كشف الباحثون عن خطره وتآمره وعرفوا موضعه فى مطالع هذه المؤامرة الشعوبية الضخمة حتى وصف بأنه أكبر أعداء الإسلام على الإطلاق ، وقد قضى أكبر سنى حياته فى عهد الدولة الأموية . وكان زرادشتيا فى قول لاشتهاره بالقيام بطقوس

المجوس عامة . وكان فى قول آخر مانويا أو مزدكيا . وقد قام بترجمة كتاب مزدك المعروف باسم ديستاو إلى العربية لنشر العقائد المزدكية فسرعان ما تكونت فى أول العصر العباسى فرق مزدكية كثيرة ، كما أنه كتب (الدرة اليتيمة) فى معارضة القرآن ، وترجم كتاب كليلة ودمنة . وضمنه باب برزويه أخطر الأبواب يعارض فيه الأديان ويثير الشبهة بعدم إمكان التوصل إلى اليقين . ويعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة ، وما زال كتاب كليلة ودمنة فى أيدى شبابنا فى مطالع دراستهم يثير هذه الشبهات منذ قرره الدكتور طه حسين على طلاب المدارس الثانوية ، وهو موجود فى أيدى الشباب تحت اسم البلاغة العربية مع ما فيه من سموم ، وكان ابن المقفع يرمى إلى نشر الإلحاد والتحلل من الإسلام بالذات قاصداً تشكيك ضعيفى العقائد فى الدين ودعوتهم إلى مذهب المانوية . وقد أشار العلامة البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) إلى مانوية ابن المقفع . وقد سجل ما قاله الخليفة المهدى عن ابن المقفع حين قال : ما وجدت كتاباً زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٩ ص ١٧٨) .

يقول البيرونى : وبودى لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (رينج تنتر) وهو المعروف عرفاً بكتاب كليلة ودمنة فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله ابن المقفع فى زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضعيفى العقيدة فى الدين وكسبهم للدعوة إلى مذهب مانى . وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل .

والمعروف أن حركة الترجمة التى قامت فى صدر الإسلام كانت تستهدف ترجمة الإيجابيات من العلوم اليونانية القديمة . ولكن المجوس الذين تولوا هذا العمل فى مقدمتهم ابن المقفع . حولوا الاتجاه نحو الفلسفة الإلهية التى هى علم الأصنام عند اليونان . ويعد ابن المقفع فى نظر المؤرخين هو أول من ترجم من إلهيات اليونان وفلسفاتهم . ثم تولى الترجمة بعد ذلك النصارى من النساطرة واليعاقبة (حنين إسحاق وآله) ، كما ترجم ابن المقفع من

الفارسية أيضاً كتب أديانها القديمة . ثم لم تلبث الترجمة أن انحرفت نحو الوثنيات والإباحيات من الفلسفات القديمة . ومن أبرز من عملوا فى هذا المجال عبد الله بن المقفع . وآل نوبخت وموسى بن خالد والحسن بن سهل والبلاذرى وزادويه بن هاشويه وكلهم من المجوس ، وقد قاموا بترجمة كتب المجوسية والأساطير .

ويقول الدكتور على سامى النشار فى كتابه (مقدمة مناهج البحث عند مفكرى الإسلام) : إن (روزبه) القديم (عبد الله بن المقفع) وكان أكبر ضاغن على الإسلام فى القديم قدم أول ما قدم للقضاء على نظام الإسلام الاجتماعى كتاب (مزدك) ثم كتاب (برزويه) ليثبت تناقض الأديان وبخاصة الإسلام، وعدم يقينيتها وما يظهر فيها من تناقض بينما يؤكد يقينية الفلسفة ووصولها إلى الحق . ثم قدم أو دفع ابنه محمد بن عبد الله بن المقفع ليقدم أول ترجمة لعلم ظن أنه الصورة الكبرى لليقين قانون بدهى فى نظره فى أفق فوق الخطأ فإذا أعلن المسلمون أن كتابهم المقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أشار لهم إلى (باب برزويه) الذى يقرر خطأ الكتاب وتناقضه . وأن طريق الفلسفة هو طريق اليقين . ثم يدعى كل هذا بصورة المنطق الارسططاليسى المتكامل البناء اليقينى فى نظره . لقد غرس روزبة مجوسية الفرس وأتى ثمرة منشآت مجامع الغنوصية الخطيرة على أثر روزبة . كما تناول المنطق متفلسفة ظهروا فى الإسلام ومجدوه ورفعوه فوق كل يقين . وحاولوا مزجه بكل علم إسلامى ولم تكن الجماعة الإسلامية غافلة عن كل هذا فسرعان ما تناولت المنطق الأرسطى بالدراسة والتمحيص ممزقة إياه كل ممزق وأنشأت منهجها . بل كان المنهج منذ البدء مستنداً على القرآن والسنة والعودة إلى قانونها .

ويقول الدكتور على سامى النشار : إن خلفاء روزبة كثيرون فى عصرنا وقد تعددت أشكالهم وتنوعت صورهم ولكنهم هم جميعاً نسخ مشوهة منتنة لابن المقفع الكريه . لقد فشل ابن المقفع من قبل وهم أيضاً فاشلون .

وقد تصدى كثيرون لابن المقفع وكشفوا زيفه وفضحوا سمومه بالإضافة إلى ما أورده البيرونى وابن خلكان فقد قام القاسم بن إبراهيم الزيدى المتوفى

عام ٢٤٦ ه بوضع كتاب (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) وقد أشار القاسم إلى مانوية ابن المقفع .

وقد وصف دعاة التغريب ابن المقفع بأنه علم من أعلام الفكر الحر ، وأنه مصلح اجتماعى ، وهذا كله من الزيف الذى يراد به إضفاء صورة البطولة على هذا الشعوبى الخطير ، الذى تؤكد المراجع كلها على أنه بقى أميناً لعقيدته المجوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن على عم المنصور ، قال لعيسى بن على : قد دخل الإسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك . قال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فإذا كان الغد فاحضر ، ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ قال : أكره أن أبيت على غير دين ، ويروى البعض أنه مر ببيت النار بعد إسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يا دار عاتكة التى أتغزل ... حذر العدا وبك الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى ... قسما إليك مع الصدود لأميل

وهكذا نجد أنه كان مخادعاً فى إسلامه ، ويقول الجاحظ : إنه كان يجتمع على الشراب مع مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وبشارد بن برد ، وأبان اللاحقى فيهجو بعضهم بعضاً وكل منهم متهم فى دينه ، وقيل : إنه عارض القرآن .

وقد اتهم بالزندقة فى آخر أيامه فقتله سفيان بن معاوية والى البصرة ، وقد كشف الأستاذ جريدى الإيطالى فى كتاب إبراهيم أبو القاسم الذى نشره وهو كتاب (الرد على اللعين عبد الله بن المقفع) كشف فى هذا الكتاب عن فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد كان يكتب باسم النور الرحمن الرحيم ، يمدح النور ويقول : إنه منبع الخير من حيث أنه منزل على محمد ، وأشار إلى ما نقله ابن المقفع من الفارسية من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون .

ولقد حاول الدفاع عن ابن المقفع فى العصر الحديث كثيرون من دعاة التغريب من أمثال طه حسين وأحمد أمين وبطرس البستانى ورأيهم مردود إزاء هذه الوثائق التى لا شبهة فيها .

ولا ريب أن مؤلفاته التي ترجمها تكشف وجهته : ترجم خداى نامة أو سير ملوك الفرس ، وآيين نامة أو كتاب المراسيم والتقاليد وكتاب (التاج) في سيرة أنو شروان ، كما ترجم كتاب مزدك في الأدب ، والمثل الأخلاقية المجوسية مما لا يأتلف والمفاهيم الإسلامية ، وكتاب كليلة ودمنة الذى أضاف إليه باب (برزويه) قاصداً تشكيك ضعفاء العقائد في الدين فضلا عما يقال من أنه ترجم كتب أرسطو المنطقية الثلاثة وكتاب إيساغوجى لفرفوريوس الصورى وكلها كتب تشكك في العقيدة الإسلامية .

وقد أشار هلال ناجى إلى أن عبد الله بن المقفع الذى سبق أن ترجم كليلة ودمنة هو الذى نقل هزار إنسانه (ألف خرافة) إلى العربية والتى كانت نواة كتاب ألف ليلة ، ولا ريب أن ما قدمه عبد الله بن المقفع في كتاب ألف ليلة ما زال قائماً حتى اليوم يثير الشبهات في النفوس حول وثنيات المجوسية وفساد الصور التى قدمها والقصص المليئة بالسموم والإباحيات .

وقد حاول البعض أن يصفه بالبطولة في نقد نظام الحكم والملك وأنه كتب نص الأمان الذى سيمنحه الخليفة لعمه الثائر عبد الله بن على ، فوضع ابن المقفع في الأمان الشرط الشديد التالى (فإن لم يف أمير المؤمنين عما جعل له فهو برىء من الله ورسوله والأمة فى حل وسعة من خلعه) .

والباحث في كتاباته عن نظام الحكم والملك في الدرة اليتيمة والأدب الكبير والصغير يجد الهدف الواضح من التآمر على نظام الحكم الإسلامى بغية هدمه وإضعافه لحساب المؤامرة الباطنية والقرمطية التى كانت ترسم وتدبر .

قال المقريزى : إنه كتب أماناً تعدى فيه ما يكتبه الخلفاء من الأمانات وقد جمعت هذه الوقائع كلها لتكون في صفحة اتهامه :

١ — ما قاله الخليفة المهدى فيما روى ابن خلكان أن كل كتاب زندقة يعود في أصله إلى ابن المقفع .

٢ — باب برزويه الذى أضافه إلى كتاب كليلة ودمنة قاصداً به تشكيك ضعفاء العقيدة في الدين .

٣ — ما قاله حين مر بعد إسلامه ببيت من بيوت النار مبدياً حنينه إلى ديانته القديمة .

٤ — ما أورده القاسم بن إبراهيم فى كتابه المرسوم (الرد على الزنديق اللعين) عن معارضته للقرآن وقلة احترامه له .

٥ — ما أورده المسعودى فى مروج الذهب من أن ابن المقفع وآخرين من الملاحدة ترجموا مؤلفات مانى وابن ديصان ومرقيون . كما أن ابن المقفع ترجم كتاب مزدك . ويعلق الصفدى بأن كتب الزنادقة الممنوعة تحوى كثيراً من آراء ابن المقفع .

٦ — ما أشارت إليه روايات عديدة وأكيدة عن اتصال ابن المقفع بخلفاء الشعوبيين والمجان المتهمين بالزندقة من إقبال البقلى (الذى أنكر البعث والقيامة) وعمار بن حمزة وأبان اللاحقى وسهل بن هارون وحماد عجرد .

٧ — ارتباط اسم ابن المقفع بتهمة الزندقة عند المسعودى وابن خلكان والبيرونى والصدفى . وقول جويدى : إنه كان قليل الاحترام للقرآن الذى حاول أن يعارضه .

وفى كتاب ابن المقفع للمستشرق جبريللى هذه العبارة التى تدين ابن المقفع حتى فى نظر المستشرقين رغماً عنهم فقد أشار جبريللى إلى أن الفقرات التى تنتقد الدين فى باب برزويه هى من وضع ابن المقفع التى حشرها دون أن يسفر بوضوح عن عقيدته الإلحادية . وقال : إن القطعة كلها بما فيها من جرأة فى التفكير ومغزى تهكمى لاذع لا يمكن أن تكون قد كتبت وانتشرت باسم مؤلفها فى دوائر بلاط فارس الساسانية ودينها الرسمى هو المزدكية أو فى المجتمع الإسلامى فى القرن الثامن الميلادى . ولكن من المحتمل جداً أن عقلا يسوده الشك كما كان عقل ابن المقفع قد أظهر فى هذه القطعة آراء ناسباً إياها إلى شخص أجنبى . إن علينا أن نرفض أن يكون ابن المقفع وهو فى سن الرجولة والنضج قد تعلق بالمجوسية وآمن بها إيماناً عقلياً . ولو أنه من الممكن أن يكون ابن المقفع مع ذلك يميل إلى دين الفرس القديم من ناحية العاطفة والحضارة . ويؤكد جبريللى عقيدة ابن المقفع المانوية وصحة نسبة (باب برزويه) فى كليلة ودمنة إليه وكذلك الكتاب الذى رد عليه القاسم بن إبراهيم ويقول : بأن ابن المقفع رد على مادة القرآن بطريقة فلسفية جدلية وبراهين عقلية أثارت الإمام القاسمى أيما إثارة فحملته على الرد بنفس الأسلحة التى

صنعتها المعتزلة فى تلك الفترة وتعنى مقالة ابن المقفع : خلو المعارف الدينية من اليقين وتناقض الأديان فيما بين بعضها البعض .

ويقول المستشرق كروس : إن النسخة الأصلية الفهلوية لنفس النص تتضمن أقوالا شكوكية عن الأديان جعلها ابن المقفع أساساً لما دونه من إضافات . بالإضافة إلى هذا كله فإننا نجد الإجماع على اتصال ابن المقفع بالمانوية ودفاعه عن أعداء الدولة وانتقاده سياسة الخلافة فى رسالة الصحابة ودعوته لتعليق واقتباس النمط الفارسى للحضارة .

(٣)

ولا ريب أن « ابن سينا » من ألمع الأسماء التى حاولت حركة التغريب والشعوبية فى العصر الحديث دفعها إلى أفق الشهرة والتبرز فى محاولة إحياء الفلسفة القديمة وتجديدها . ونحن نشهد بأن ابن سينا الطبيب لا غبار عليه وأنه رائد فى مجاله وأن الأمر لو اقتصر على هذا الجانب العلمى فى حياته لما وجد عليه من ملام . ولكن المستشرقين والمبشرين ينفخون فى آراء ابن سينا الفلسفية ويعلون من شأنها ويضعون شخصيته فوق كل الشخصيات ويحجبون به الأعلام ذوى الأصالة من أمثال البيرونى وغيره .

بينما تثبت الوثائق أن ابن سينا كان على طريق إخوان الصفا والباطنية ، وأنه قد أودع كتاباته تلك الأسرار والرموز التى يعرفها أصحاب المخططات السرية لقلب الإسلام . ولقد أعلى ابن سينا من شأن العقل علواً شابه به المعتزلة وزاد عليهم ، فقد دعا إلى ما أسماه سلطان العقل وتقديس العقل مما هو باطنى فى النظرة الإسلامية الصحيحة . وليس هذا الذى يقوله ابن سينا إلا متابعة لمناهج الهلينية اليونانية وليس له أساس إسلامى ما . وهذا هو موضع اتهام ابن سينا وهو فى نفس الوقت موضع تقدير الاستشراق والشعوبية له . ولم يكن ابن سينا متورطاً فى اتجاهه هذا وإنما كان قاصداً إليه قصداً يقيناً لأنه كان من دعاة الباطنية وزعمائها المستورين .

ولقد كانت محاولة ابن سينا فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين الإسلام — من الأعمال التلفيقية المغرضة التى لا تصدر عن مؤمن بالإسلام — إذ كانت تستهدف إخضاع العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد للفلسفة

اليونانية الوثنية الإباحية . ولقد كانت تلك كبرى مقاتله . لأن هذا الاتجاه الذى سار فيه هو والفارابى إنما كان الطريق الذى رسمته الباطنية ودعت إليه وأشار إليه إخوان الصفا . وقد اعتبره الإمام الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) كافراً خارجاً عن الإسلام بسبب قوله بقدم العالم وعلم الله بالكليات دون الجزئيات ونفى البعث والمعاد .

وبالرغم من أن ابن سينا حاول الدفاع عن نفسه ونفى تهمة اتصاله بالمؤامرة الباطنية فإن وقائع حياته تكشف هذا الانتماء . كما تؤكد المصادر الإسماعيلية على باطنيته . فقد تأثر بفلسفة المعتزلة التى انكمشت على نفسها شرقى فارس بصورة خاصة أثر الضربة التى تلقتها على يد المتوكل .

ويتحدث الأستاذ إبراهيم الخال عن باطنية ابن سينا (مجلة الرسالة العراقية : أيلول عام ١٩٧٢ م) فيشير إلى أنه أضاف إلى الفلسفة نظرية الفيض الأفلوطنية التى ورثها من الفارابى وإخوان الصفا ويقول : إن فلسفة ابن سينا كانت ثمرة شجرة غرسها مؤسس الدعوة الإسماعيلية فى أرض يونانية .

ويفصل القول فى هذا الصدد فيقول : إن الذى يظهر من سيرة ابن سينا عام (٣٧٠ — ٤٢٨) أنه رجل دنيا وسياسة كما كان فيلسوفاً فى عصر كانت فيه السياسة والدين وجهين متلازمين للدولة والحكم . تولى منصب الوزارة لبعض الأمراء البويهيين .

وكان هؤلاء زيدية وتعرض للسجن والقتل غير مرة لأسباب سياسية وأصبح طبيباً ونديماً لعلاء الدولة الذى اتهم بالزندقة لملازمته إياه .

وكان الناس فى أصبهان ينظرون إلى ابن سينا كزنديق . لحياة اللهو التى كان يحياها ، فقد كان من أصحاب الكأس والطأس . وكان ينزع فى حياته الشخصية نزعة ابيقورية مغرقة فى اللذة والحس والشهوة . وقد وصفه ابن خلكان فى أيام حياته الأخيرة بالإفراط فى الشهوات والأكل . ولقد كان ابن سينا من أكبر أعداء السلطان محمود الغزنوى . وكان الغزنويون أعداء الاعتزال والباطنية والفلسفة الإلهية . ولو كان السلطان عثر عليه فى الرى لقتله على وجه التحقيق . وقد هرب ابن سينا من الرى قبل وصول السلطان وكان دائم الهروب من كل أرض يمتد إليها يد الغزنويين . وكان

الغزنويون على ولاء للدولة العباسية ومسنودين من دار الخلافة. وكان ابن سينا بذلك من أعداء الدولة العباسية. ولم يكن ابن سينا من الشيعة الاثنى عشرية إذ كان والده باطنياً إسماعيلياً كما أن البيت الذى نشأ فيه كان مفتوحاً للدعاة الإسماعيليين أى لرسل الفاطميين الذين حكموا مصر ويطمحون إلى حكم الشرق الإسلامى وكان ولاء ابن سينا للفاطميين الإسماعيليين سراً وكان ابن سينا قد وجه منذ مطالع صباه وجهة إسماعيلية باطنية صرفة عندما دفعه أبوه إلى دراسة الرياضيات والفلسفة وكان ذلك بدافع عقائدى من أبيه وهى القاعدة الأساسية للعقيدة الإسماعيلية وهى الوجه الثانى الذى يقابل الوجه الروحانى لها.

فالباطنيون يعتقدون عن إيمان بأن تراث الفكر اليونانى إنما هو تراثهم الخاص. وأن الفلاسفة (سقراط — أفلاطون — فيثاغورث — أرسطو — أفلوطين) وهم فلاسفة إسماعيليون فعلا. فالباطنية من إحدى نواحيها فى معتقداتهم فلسفة ومدرسة فلسفية نما فيها وازدهر الفكر اليونانى (عارف تامر — أربع رسائل إسماعيلية — دار الكشاف). إنهم يفسرون الطبيعة وما يتعلق بها من حرارة ورطوبة ويبوسة ومن جهات أربع وفصول السنة ومكونات جسم الإنسان. ثم ما فيها من كواكب وبحار ومعادن على أساس من خواص الأعداد كالعدد ٤ / ٧ / ١٢ طبقاً لما جاء فى نظريات إخوان الصفا المستوحاة من الفلسفة الفيثاغورثية فى الرياضة والحساب تاريخ الدعوة الاسماعيلية.

وتؤكد هذه المراجع الباطنية أن رسائل إخوان الصفا قد وضعت من قبل علماء إسماعيليين بأمر من الإمام الإسماعيلى (أحمد الوفى) الذى كان مستترا أيام المأمون وأنهم لا يذكرون أسماء مؤلفيها.

أما بخصوص ما وراء الطبيعة (الإلهيات) فإنهم يعتمدون نظرية الفيض التى ورثها ابن سينا عن الفارابى وعن إخوان الصفا ونظرية الفيض تعود بالأصل إلى أفلوطين ومدرسة الإسكندرية. وخلاصتها عند ابن سينا أن الله عقل محض وأنه يعقل ذاته ودائم التأمل فيها وحيث أن التعقل هو علة الوجود فقد فاض عن الله بالضرورة موجود واحد هو العقل الأول وعنه فاض ثان له خواص خاصة حتى العقل العاشر وهو العقل الفعال الذى فاض عنه عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه.

وهذه العقول المفارقة للمادة كانت عند الفلاسفة اليونان أكثر من خمسين عقلا ولكن الفارابى ثم ابن سينا أوقف الفيض عند العقل العاشر ليتفق ذلك مع مراتب الدعوة والدين لدى الفاطميين .

وهم يرون أن العقل الأول هو رتبة التنزيل (الناطق) .

والثانى : رتبة التأويل (الأساسى) .

والثالث : رتبة الأول (الإمام) .

والرابع : رتبة فصل الخطاب (الباب) .

والخامس : رتبة الحكمة (الحجة) .

(راجع مؤلف تاريخ الدعوة الاسماعيلية فقد ذكر المؤلف أسماء الدعاة : ابن حوشب . الكرمانى . ناصر خسرو . ابن سينا . الفارابى . إخوان الصفا . الرازى . السجستانى . والذى يظهر من ذلك أن ابن سينا لم يكن باطنياً عادياً وحسب وإنما كان داعياً من أقطاب دعاة الباطنية .

فابن سينا عندما تفلسف إذن كان يخضع الفلسفة لمفاهيم العقيدة الباطنية الإسماعيلية حيث أنه كان يقابل نتائج بحوثه الفلسفية مع مراتب الدعوة التى كانت موجودة ومقررة قبل الفارابى ومنذ أيام إخوان الصفا فى عصر المأمون على أقل تقدير .

ونظرية الفيض الأفلوطينية هذه هى أخطر النظريات الميتافيزيقية التى تحتويها العقيدة الباطنية لكونها تتعلق بالإمام الباطنى المعصوم الذى كان يصل بمنزلته لدى القائمين على العقيدة أحياناً إلى درجة ينبوع المبدعات أو مبدع الذات أى العقل المحض ودرجة الربوبية .

وفى كتاب إسماعيلى محفوظ بعنوان كتاب المحصول : إن الإمام إلهى الذات ، سرمدى الحياة ، غاية الغايات ، ومبدع الذات ومخترع الصفات وهو مبدع الإبداع .

وقولهم : إذا ظهر الإمام بصورة الجسم مكان اسم من أسماء الله وصفة من صفاته .

وإذا تحدث العليا كان هو الله فى الحقيقة .

أما (نظرية الفيض) فهى عماد نظرية العقيدة الباطنية .

ومن هنا كان ابن سينا باطنياً بل داعية باطنياً كبيراً على وجه التأكيد .

ويرى ابن سينا أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات وأنه إذا علم الجزئيات فإنه يعلمها بمعانيها وليس بأعيانها وشخوصها وهذا يخالف مفهوم السنة ويعارضه تماماً .

والرجل باطني النشأة والتربية توجه في دراسته الأولى وجهة باطنية ولم يكن مخلصاً للبويهيين ومن أعداء الغزنويين والدولة العباسية التي ناصبها الفاطميون الباطنيون العداء . إنه يتفق في فلسفته كل الاتفاق مع العقيدة الباطنية في وجهها الميتافيزيقي والروحاني . وهو إضافة إلى المصادر الباطنية الموثوقة التي تؤكد كونه من كبار دعاة الباطنية .

ولا ريب أن هذه المادة التي استخلصها الأستاذ إبراهيم الخال من كتب الباطنية والتي اعتمد فيها على كتاب تاريخ الدعوة الإسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين . هذه المادة كافية لتوضيح موقف ابن سينا وعدائه للفكر الإسلامي القرآني وإيمانه بغير ما يؤمن به المسلمون . ولا ريب أن هذه الفلسفات التي تتعلق بالعقول العشرة وهي من الفكر الأفلوطيني الفاسد ما تزال تدرس في جامعاتنا ومدارسنا على أنها نظريات فلسفية بينما هي سموم معارضة لمفهوم التوحيد ومناقضة للإسلام الصحيح .

ويجب أن تحاط في دراستها بالخلفية التي تكشف تطورها التاريخي ومحاولة مؤامرة الباطنية الكبرى لوضعها واستغلالها لإفساد العقلية الإسلامية والتأثير عليها وقد تجدد هذا الفكر الوثني المضلل في العصر الحديث بواسطة الاستشراق والتبشير ودعاة التغريب دون أن يتنبه أحد إلى أخطاره ومحاذيره .

° ° °

وتتركز فلسفة ابن سينا الخاصة حول مسائل ثلاث :

مسألة الفيض ، والنفس الإنسانية ، ونظرية المعرفة الإشراقية وما تتضمنه من نظريات خاصة عن النبوة والمعجزات والتصوف .

أولا : نظرية الفيض : لم يكن هو الذى ابتكرها وإنما سبقه إليها أبو نصر الفارابي ، ولكن ابن سينا وضحها ودعمها بحيث ينظر إليه أحياناً على أنه هو الذى ابتدعها وهي محاولة لتفسير صدور العالم وتعتمد على أساس

من التوفيق من عناصر أفلاطونية وأرسطوطالسية وإسلامية وبها مسحة من التصوف . فعن أرسطو أخذ كل من الفارابى وابن سينا أن الله « **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً** » . عقل محض يدرك نفسه ، وعن أفلوطين فكرة مراتب الوجود . وعن المتكلمين التفرقة بين الواجب والممكن ، وعن الصوفية فكرة الاتصال بالعقل الدائم وبالذات الإلهية . ويرى الغزالى أن ابن سينا استخدم نظرية الفيض لتقرير قدم العالم . ويرى ابن رشد أن نظرية الفيض عند الفارابى . ثم عند ابن سينا دخيلة على الفلسفة الحقة ويتهم كليهما بالكذب ويصف الفارابى وابن سينا بأنهما أول من قال هذه الخرافات فقلدهما الناس وهذه كلها خرافات وأقاويل أضعف من أقاويل المتكلمين .

ثانياً : فى موضوع النفس الإنسانية استرشد ابن سينا بآراء الفارابى فى النفس مع إدخال كثير من التعديل والتفصيل عليها وتكشف قصيدة النفس لابن سينا عن تأثره الكبير بآراء أفلاطون .

ثالثاً : أما فى الفلسفة الإشراقية الخاصة بآرائه فى النبوة والوحى والمعجزات والنصوص فإنه ربط نظرية الفيض بنظرية مادية هى وحدة الوجود التى تقول بأن الله يتجلى وأنه يتحد بكل مخلوق من مخلوقاته : « . . . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » . ويرى أن كرامات العارفين كمعجزات الرسل . وأن العارف متى وصل ذهل . ومن هنا لا يكلف والتكليف لمن يعقل التكليف .

وهذا القول باطل ومعارض لمفهوم الإسلام الأصيل الذى لا يقر سقوط التكليف عن أى واحد من المسلمين ولا عن النبىّ .

ويقترب ابن سينا فى هذا من أسلوب الباطنية وأن ألبسه ثوباً صوفياً براقاً ، ومن أخطر آرائه التسوية بين المعجزات والكرامات والسحر التى يستشهد عليها بتجارب الكهان من الوثنيين . وهو مادى فى نظرته حيث يرجع المعجزات والسحر والكرامات إلى تأثير القوى النفسية للأجرام السماوية .

ويكشف ابن سينا فى ختام كتابه (الإشارات والتنبيهات) عن هويته التى أخفاها كثيراً عن الناس فى أبحاثه وبدا وكأنه العالم المتخصص ، فهو

يسجل فى الوصية التى يوصى بها أتباعه روحاً باطنية واضحة . ويقدم منهجاً باطنياً صريحاً شبيهاً بمنهج إخوان الصفا والفلسفة الإسماعيلية . ويوصى أتباعه بأن لا يذيعوا أسرار الحكمة الشرقية إلا لمن يثقون بنقاء سريرتهم واستقامة سيرتهم ، وطلب من خلصائه أن يقرأوا فى حلقة مغلقة ، وأن يدرسوا الحالة النفسية لمن يريدون ضمهم إلى مذهبهم مع أخذ العهد على المريدين أن يسلكوا مسلكهم مع الذين سيوكل إليهم فيما بعد مهمة جذبهم إلى هذا المذهب السرى الباطنى وهذه الوصايا تشبه وصايا الباطنية .

وقد تحدث الدكتور محمود قاسم عن ابن سينا وكشف القنـــاع عن حقيقته فقال : إنه حرص على تأويل النصوص الدينية تأويلا باطناً حتى يجعلها على وفاق مع فلسفته الخاصة وهى فلسفة إشراقية فى المقام الأول ، وهى تلك الفلسفة التى انتقلت إلى أوربا وأشار إلى حياته الخاصة فقال : إنه خصص أمسياته للسمر والشراب والسماع وطلب المتعة . وكان مسرفاً على نفسه فلم يعن بعلاج المرض الذى أصابه ولم يتحفظ فى شرابه وطعامه ولم يقتصد فى متعته فاشتد عليه المرض ومات فى السابعة والخمسين . وقال : إن نظريته فى الفيض مأخوذة مما أورده بطليموس عن العقول كما تأثر فى قصيدة النفس بآراء أفلاطون .

(٤)

ولا يخلو الأمر من توجيه نفس الاتهام إلى « الفارابى » فقد كان باطنياً عميق الباطنية وآية ذلك أنه فسر النبوة على أساس تعاليم الشيعة الإمامية ، ويعد الفارابى أول من أقام نظرية صوفية فلسفية فى الفكر الإسلامى ، وصوفية الفارابى لا تقوم على مجاهدة النفس أو البعد عن اللذائذ لترفيه النفس ، بل هو تصوف نظرى يعتمد على الدراسة والتأمل ، وطهارة النفس فى رأيه لا تصدر عن طريق الجسم والأعمال البدنية . بل عن طريق العقل ، والسعادة عنده أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود بحيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة وهذه المفاهيم جميعاً من مفاهيم الفلسفة الهلينية وليست من مفاهيم الإسلام .

• • •

ولقد أثمرت دعوة الباطنية نماذج خطيرة من الدعاة من أمثال ابن الراوندى الذى هو ثمرة أكيدة للفلسفة اليونانية ، وقد ادعى ابن الراوندى أنه لا يقبل من الأفكار إلا ما يخضع لمنطق العقل البشرى ، وعنده أن رسائل الأنبياء لا تحتاج إلى وحى من السماء لأن كل ما قال به الأنبياء لا يشق على العقل ولا يمكن أن تستغنى البشرية عن دعوتهم لأن ما يطالبون به الناس من عبادات وشعائر لا يستسيغها العقل ولا يوجد مبرر منطقى يلزم بأدائها ، وأن معجزات الرسل لا يصدقها العقل ، ويحتمل أن رواتها تواطئوا على الكذب وأن آيات القرآن ليست خارقة للعادة ويصح أن يتفوق فرد بمهارة أدبية على ناطقى اللغة العربية .

هذه السموم والأضاليل التى أوردها ابن الراوندى هى التى حفزت دعاة التغريب على بعثه فى هذا العصر الحديث وتجديده وإعادة الحديث عنه حتى توضع هذه الشبهات تحت أنظار الشباب المسلم فتجرى على ألسنتهم وتكون موضع حديثهم ظانين أنهم بذلك سيفسدون حركة اليقظة التى يمر بها الإسلام اليوم ، ومن هنا عنى بابن الراوندى كثير من الباحثين وفى مقدمتهم عبد الرحمن بدوى الذى أذاع هذه الآراء ، وحسنها . والواقع أن هذه الآراء فى جملتها ليست إلا شبهات باطلة يستطيع كل مغرض أن يجمعها وأن يذيعها ولكنها لا تخدع أحداً وخاصة من يدرس حياة — ابن الراوندى ويعرف أنه رجل فارسى الأصل من أصل يهودى كان أبوه يهودياً ثم أسلم وما زال هو متصلا بالمجوسية الفارسية ، وله ارتباط بالمؤامرة الباطنية . وقد عرف بالنفاق وباع قلمه لكل الفرق والمذاهب والأديان ، فقد ألف لليهود وللرافضة وأجرأ كتبه (الزمردة) الذى يحاول به أن يقول ببطلان رسالة الأنبياء ، وقد وضع أبو الحسن الخياط كتاباً فى الرد عليه وكشف زيفه وأثبت إلحاده ولقد اتصل ابن الراوندى ثمة بالمعتزلة وتعلم منهم الجدل المنطقى المضلل وعرف كيف يستغله فى إثارة الشكوك حول الإسلام .

قال الحافظ ابن الجوزى : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى وأبو حيان وأبو العلاء ، وروى أن بعض اليهود كان يقول لبعض المسلمين

بشأن ابن الراوندى : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا » فقد انشق أبوه لأمر ما عن أهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة . كما كان ابنه يفعل فيما بعد . فإذا لم يتم له ما أراد انقلب مسيحياً نكاية فى بنى دينه اليهود .

قال البلخى : إنه كان فى أول أمره حسن السيرة حميد المذهب . ثم انسلخ عن الدين وأظهر الإلحاد والزندقة وطردته المعتزلة لوضع الكتب الكثيرة فى مخالفة الإسلام .

وكان ابن الراوندى ملحداً فى شبابه ولكنه كان أعرف بإعجاز القرآن وسحره من أكثر المؤمنين . وقد وضع كتاباً لليهود يرد فيه على المسلمين . ثم رام نقضه بنفسه فنقضه ووضع كتاب (الإمامة) للرافضة لقاء ثلاثين ديناراً ووضع كتباً غيره فى التوحيد وأصله . عارض نظم القرآن بنظم من وضعه . وضع للرافضة ضد السنة وللسنة ضد الآخرين . قال عنه أبو العباس : إن ابن الراوندى كان لا يستقر على مذهب ولا يثبت على حال حتى أنه صنف لليهود كتاب (البصيرة) لقاء اربعمائة درهم أخـذها فيما بلغنى من يهود سامرا . فلما قبض المال رام نقضه حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض .

وقيل : كانت طريقة ابن الراوندى فى حياته المذهبية التلاعب بالفرق والملل وبأهل كل منهما يمدح اليوم مذهباً ويحقر آخر ، ومما ألف كتاب يطعن فيه فى نظم القرآن نقضه عليه الخياط وأبو على الجبائى وسهل بن نوبخت ونقضه على نفسه . وكان صديقاً لابن عيسى الوراق وأبى حفص الحداد وغيرهما من مشهورى ملاحدة ذلك الزمن الذين تستروا بالرفض ومن كتبه : كتاب (التاج) يحتج فيه على قدم العالم . وكتاب (الزمردة) يحتج فيه على الرسل ويبرهن على إبطال الرسالة . وكتاب (الفرند) فى الطعن على النبى . وكتاب (اللؤلؤة) فى تناهى الحركات . وقد أعيد منذ قريب طبع كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد فيما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم) بقلم الحسين بن الخياط بتعليق الدكتور ينبرج بجامعة ابسالة بالسويد صدر عام ١٩٢٥ .

ويمثل ابن الراوندى قمة موجة الإلحاد التى أثارتها الدعوة الباطنية فى محاولة إنكار الأديان كلها ويقصد بها الإسلام .

وقد كتب عنه كثيرون منهم سليم خياطة (المقتطف عام ١٩٣١ م) وعنه نقلنا بعض هذه النصوص . وقد أشار هذا الكاتب المسيحى إلى تلك الظاهرة التى عرفها الإسلام ولم تعرفها الأديان ولا الأمم . تلك هى حرية الرأى والسماح لكل صاحب نحلة بأن يتكلم بها دون مصادرة ، فى اعتقاد بأن الفكرة الفاسدة لابد أن تسقط مهما حشدت لها الجهود . نقول : وإن ماتحشده حركات التغريب من تجديد هذه الآراء سوف يلقى نفس المصير : إنهم « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » . ويقول سليم : لا نود أن نختم هذه النظرة العجلى من غير أن نبدى إعجابنا بهذه المدنية الإسلامية السمحة التى كانت تأذن لأمثال صاحبنا ابن الراوندى بهذا الاجتراء على عقائدها . وبهذا التهجم والتنقص من تفكيرها ودينها وهى ساكنة هادئة تؤلف الكتب رداً عليه ودحضاً لما انهال به عليها من حامى اللطمات ، وأن تاريخ المدنيات القديمة لا يروى لنا سيرة أى جرئ متهور بلغ تهوره إلى الحد الذى بلغ بصاحبنا .

(٦)

ويأتى محمد بن زكريا الرازى ، كواحد من أتباع هذا التيار فقد انحرف هذا الكيماوى الطبيب وراء ابن الراوندى ووجه نفس انتقاداته إلى الأديان فقط دون العلوم ، وأنكر النبوة وقال : إن الناس يتساوون فى المواهب والاستعدادات ، وأنه لا حق لأحد أن يزعم أنه يمتاز على بقية البشر بميزة عقلية أو خاصية روحية مثل النبوة . وأن المعجزات ما هى إلا أساطير خرافية قصد بها تغرير العامة ، وأن تعاليم الكتب المقدسة يعارض بعضها بعضاً فقامت الحروب بينها وأن لو اعتمد الناس على العقل الإنسانى فى تصريف شئونهم ما اختلف اثنان فى أمور حياتهما . ولو اهتدوا بالفلسفة والعلوم ما احتاجوا إلى عقائد الدين وتعاليم الأنبياء . وهكذا لم يجد الرازى من ضروب الثقافة ما يستحق إخضاعه لمنطق العقل إلا الدين . ولم يلتفت إلى أن العلوم التى اشتغل بها من كيمياء وطب لا تخلو من عناصر تتعارض

مع أبسط قواعد العقل . فقد كانت الفلسفة اليونانية قد مهدت طريقها إلى العقول وجعلت الأقيسة المنطقية منهجاً للوصول إلى الحقائق فزودت هذا الفكر الشاك بطرق عقيمة تدعم شكه وتؤكده . وكانت هذه التطورات مجتمعة مقدمة لظهور آراء ابن الراوندى والرازى . فادعى ابن الراوندى أنه لا يقبل من الأفكار إلا ما يخضع لمنطق العقل البشرى .

وجاءت هذه المقولة المبطلة خادعة لبعض البسطاء الذين جروا وراء هذا البريق وجهلوا أن وحى السماء ورسالات الأنبياء لا تخضع لهذه المقايسات العقيمة . وأن العقل وحده قاصر وعاجز عن فهم كل الأمور وأن له مجاله الخاص الذى يعمل فيه ولا يستطيع أن يتجاوزه .

وقد مزج الرازى بين علم الكلام والفلسفة كما تكلم فى مختلف دراسات المنطق والجدل والأدب والبلاغة والنحو والفقه والأصول والتفسير والتاريخ والطبيعة والطب والفراسة والسحر وله كتب ثابتة وكتب منحولة وكتب مشكوك فيها .

وقد تعرف الباحثون فى آثاره على أمر خطير . وهو أن أقواله كثيراً ما تختلف من كتاب إلى آخر خلافاً يجعل بعضها فى أقصى اليمين وبعضها فى أقصى الشمال . بل أن له آراء متعارضة يضمها كتاب واحد .

وقد أشار الكثيرون إلى أن الرازى رجل مشكوك فيه وليس موضع الثقة العلمية وأنه يمثل الثقافة الإغريقية وأعمال فلاسفتها . هذا وقد أعلن براءته من هذه الآراء عند موته .

(٧)

ويتصل بهذا شعراء مجان أمثال بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وأبو نواس وغيرهم من الشكاك الإباحيين . وقد تصدى واصل بن عطاء للرد على بشار بن برد وتابع رسالته فى الرد على الزنادقة وتفنيد سائر أعمالهم سواء من دعاة المانوية أو المجوسية . وله كتاب فى الرد على المانوية اشتمل على أكثر من ثمانين شبهة لهم والرد عليها — قال عمرو بن عبيد : ليس أحد بأعلم بكلام الباطنية ومارقة الخوارج وبكلام الزنادقة والدهرية وسائر المخالفين

من واصل . وقد اشترك تلاميذ واصل فى الرد على رؤساء الزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس . وأرسل واصل الوفود إلى مختلف الأنحاء لتفنيد أقوالهم . كما ظهر الهذيل بن العلاف الذى تعمق أساليبهم الملتوية وخدعهم العديدة . وكان بشار بن برد يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة فى الغزل المشهر ومذهب الحطيئة فى الهجاء الفاحش . وقد واجهه المهدى فقال له: أتحض الناس على الفجور وتقـذف المحصنات ؟ . وكان يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة . وهو ممن صوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة . وإبليس فى رأيه خير من آدم وقد سخر بشار بالأذان وأنكر البعث والحساب وفضل شعره على القرآن وكان إباحى النزعة يقال : إن له مجلساً يدعى البردان وكانت النساء تحضره . قال واصل بن عطاء : إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعمى . وكان متعصباً للفرس مدخولا بالمجوسية يكره العرب ويشتمهم شتماً مقذعاً ، وقد ضرب بالسياط حتى مات وألقى فى البطيحة لإفحاشه فى الهجاء والغزل القبيح .

ومع وضوح هذه الحقائق لكل من يدرس حياة بشار بن برد فإننا نجد كتاباً يعنون به فى العصر الحديث ويكتبون عنه دراسات أدبيه واسعة حافلة بالإعجاب به وتقديره مثل ما كتب عبد الرحمن صدقى وإبراهيم عبد القادر المازنى وكذلك ظفر أبو نواس وهو أشد إباحية من بشار وأشد عنفاً على الإسلام والعرب بمثل ذلك من أمثال العقاد وعبد الرحمن صدقى وغيره ، بل لقد أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عنه استكتبت فيه عدداً كبيراً من أعلام الأدب العربى المعاصر مع الأسف دون أن يلتفت أحد إلى مدى الخطر الكامن وراء هذا الاهتمام البالغ ، والمعروف أن أبا نواس شغل نفسه بوصف الخمر والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم وله هدف عميق أبعد من هذا الهدف . هو خدمة مخططات المؤامرة الباطنية التى كانت تستهدف إزالة الدولة الإسلامية . وكان أبو نواس ذكياً واسع الحيلة يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة . وقد عده المؤرخون والباحثون من كبار الثنوية وبث فى تضاعيف شعره تأثره بالمانوية والمزدكية ،

وقد كان داعية عصره إلى التحرر من القيود والتمتع باللذات . وكان يقول : إنه لا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس وينكر البعث ، ومن مبادئ المانوية إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة جميع الأديان ، وكان الغزل بالمذكر الذى أوغل فيه أبو نواس جزءاً أساسياً من المانوية .

كما ذكر ذلك البيرونى : يقول حمزة الأصبهانى جامع ديوان أبى نواس . أن أبا نواس هو الذى ابتدع غزل الذكر وهو الذى أدخل إلى الأدب العربى افتتاح القصائد بالخمر بدلا مما كانت تفتتح به من البكاء على الأطلال والدمن .

وفى شعره مظاهر واضحة من المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة الدين والإباحية المطلقة والغزل بالمذكر . فضلا عن تعصبه للفرس واحتقاره للعرب . وقد تناولنا أبو نواس وبشار بتفصيل أوسع فى مكانهما فى كتابنا (خصائص الأدب العربى) .

• • •

الباب الخامس

الجماعات الهدامة



الفصل الأول

مؤامرة القرامطة

تجيء الجماعات الهدامة ثمرة أكيدة للمؤامرة الخطيرة التي رسمها القوى المضادة للإسلام ودولته . وأثراً طبيعياً لذلك الركام الضخم الذى طرح فى أفق الفكر الإسلامى عن طريق المعتزلة والفلاسفة والتصوف الفلسفى والفكر الباطنى ، وقد تعددت هذه الجماعات وتنوعت ولكنها كانت جميعها تهدف إلى غاية واحدة هى اقتلاع هذا الكيان الإسلامى أو تمزيقه أو احتوائه أو صهره فى أتون الفكر البشرى الوثنى المادى . أو تدمير مقوماته وقيمه وإخراجه عن أصالته . وقد تمثلت عمليات الهدم فى حركات القرامطة والزنج والراوندية والخرسانية والبابكية وحركة المازيارد والأفشين وكلها حركات حاولت أن تشكل وجودها خارج الرقعة العربية مستهدفة إسقاط الدولة وتدميرها بوصفها الإطار الحافظ للدعوة الإسلامية ، وأن فى إسقاطها إسقاطاً للإسلام نفسه ، وقد كانت حركة الزنج مقدمة لمؤامرة القرامطة ومدخلا إليها فلم تكن حركة الزنج إلا نتيجة تحريض خارجى حاول أن يلتمس مدخلا له فى جماعة ساءت ظروف حياتها الاجتماعية ، وقد ادعى صاحب الزنج أنه من الخوارج وأن له نسباً علوياً . وبالرغم من الصورة الخادعة المزورة التى حاولت بعض المصادر أن تصور لها هذه الحركة بأنها تستهدف المطالبة بالعدل الاجتماعى الإسلامى ، فإن تصرف صاحب الزنج وجماعته يكشف بوضوح عن أنها مؤامرة تستهدف زعزعة الوجود الإسلامى ، ولو كانت حركة إسلامية أصيلة لا لتمس القائمون عليها منهجاً إسلامياً غير هذه الصورة البشعة التى كانت قتلا وتدميراً وإفساداً فى الأرض دون أن يبدو من رواها المتجهم أى صورة من صور العدالة الإسلامية . وغاية ما يقال فيها أنها لم تسفر عن نتائج حاسمة غير قتل المسلمين والإبادة . كما يقول فيصل السامر فى كتابه ثورة الزنج . الذى يرى أن ثورة الزنج لم تكن خروجاً على الدولة والنظام

القائم بل كانت خروجاً على الدين ولذلك تطوع آلاف الناس لحرب الزنج من العراق وفارس والبحرين ، فسرعان ما فقد الزنج كثيراً من قوتهم نتيجة مقاومة أهالى جنوب العراق فضلا عن مقاومة الدولة . كذلك فإن الأضرار التى تمت على أيدى قادة حركة الزنج والتى تعرض لها أهل المدن زادت من ضراوة مقاومتهم لهذه الحركة وزاد من عداء الأهلين لها .

ولا ريب أن دراسة حركة الزنج فى ضوء التفسير الإسلامى للتاريخ تكشف عن الحقائق الآتية :

أولا : أنها حركة متآمرة تحت تأثير هدف خارجى وليست صادرة عن مشاعر حقيقية .

ثانياً : أظهرت الحركة بعد القائمين بها عن المنهج الإسلامى ، وأنهم إنما كانوا يصدرون عن حقد وتآمر ، إذ قاموا بفظائع ومنكرات لا يقدرها إلا من تصفح كتابة الطبرى عنها .

ثالثاً : دمر أصحاب حركة الزنج كثيراً من المدن الهامة منها البصرة والأبلة ، ولو كانوا دعاة إصلاح لما هدموا المدن ولأعلنوا منهجهم القائم على العدالة الإسلامية وهو ما لم يحدث مطلقاً .

رابعاً : خلت هذه الحركة من برنامج اجتماعى فى نطاق الإسلام فقد عجزت عن أن تكون حركة عدل اجتماعى فى نطاق الإسلام ، إذ حرص العبيد الذين حرروا أنفسهم على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم .

خامساً : أقاموا سوق رقيق للحرائر من نساء العرب وكان ثمن الرقيق يرتفع ارتفاعاً ملحوظاً إذا كانت أولئك النسوة من أسرى بنى هاشم بصفة خاصة وهذا يكشف هوية الحركة وغايتها .

ومن هنا أيضاً نعرف كيف فشلت هذه الحركة فإن فشلها نتج عن كثرة فظائعها وخلوها من منهج شامل فى طريق أصيل . ولقد تفرغ الموفق شقيق الخليفة المعتمد لمكافحة ثورة الزنج فأنزل بهم الضربة وراء الضربة حتى حاصرهم فى عاصمتهم المختارة وقطع عنهم الصلة وسقطت عاصمتهم عام ٢٧٠ هـ ، وقتل رئيسهم .

ولا ريب أن هذه الخطوط العامة كافية فى كشف زيف ما جرت محاولات دعاة التغريب وكتاب الماركسية وغيرها فى العصر الحديث من وصف هذه الحركة بأنها دعوة عدالة وحرية . ومن عجب أن الدكتور طه حسين كان من أوائل من تحدث عن هذه الحركة ووصفها بالعدل الاجتماعى جرياً وراء مخطط الاستشراق والتبشير الذى حاول أن يفسد معالم التاريخ الإسلامى لخدمة مؤامرة جديدة .

* * *

ثم جاءت حركة القرامطة امتداداً لحركة الزنج . كانت حركة الزنج فى الساحة الممتدة بين البصرة وواسط ، وكان القرامطة ينشرون دعوتهم بين سكان جنوبى العراق من العرب والنبط . وقد بدأت بالتقاء عبد الله بن ميمون القداح مؤسس الحركة الباطنية مع حمدان قرمط الذى قاد الحركة التى سميت باسمه ، وكان عبد الله ميمون القداح : قال لأبنائه أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر ليسو أهلا لفهم هذه المبادىء ، وكان الباطنية تنشر دعوتها باسم التشيع لآل البيت ثم أصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها . فقد قامت باغتيال كثير من رجال الدولة الإسلامية وفى مقدمتهم نظام الملك الطوسى أبرز وزراء الدولة العباسية فى ذلك الوقت . وفخر الملك . وقد بحث القداح عن أنصاره بين الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية .

يقول بلاشير : أن القرامطة استطاعوا أن يتغلغلوا فى صفوف العامة ويجدوا لهم أنصاراً يعتنقون نحلتهم ويتحمسون لمبادئهم ، وكانوا يلبسون حركتهم السياسية ثوباً روحياً يعظم أمرهم ، وقد أسسوا إمارة مستقلة فى بلاد البحرين ، وكان الوزير نظام الملك قد قهر هذه الحركة ثقافياً وليس عسكرياً وسياسياً فقط ، فقد جابه نشاطهم بنشاط مماثل فأنشأ مراكز ثقافية تقف أمام ذلك النشاط ومعاهد علمية تخرج رجالا يستطيعون الوقوف أمام الدعوات الباطنية ، وكانت تلك المعاهد تحمل اسم المدرسة النظامية فى بغداد وقد استطاعت المدرسة النظامية أن تقف أمام الدعوات التى كان يشنها أعداء السنة على أهلها .

وقد كشف القرامطة عن أنهم ليسوا بتجربة إسلامية أصيلة وأنهم كانوا يكرهون الإسلام ويحقدون عليه . ودليل ذلك استهانتهم بالمقدسات الإسلامية وكرامة البيت الحرام فقد أغاروا على مكة ونهبوا الحجيج عام ١٣٨ هـ وقتلوهم وقلعوا باب البيت . وسرقوا الحجر الأسود .

ولعل هذا الحادث وحده يكفي لأن يزيف ما يقول به دعاة التغريب والمستشرقون والماركسيون من أمثال جارودى وغيره من أن هذه الحركة تجربة إسلامية صحيحة .

وقد حاول جارودى أن يصف القرامطة بأنهم دعاة عدل اجتماعي ، وكشف زيف هذه النظرية الدكتور محمود قاسم وأبان أن عمل القرامطة لم يكن سعياً إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركة انفصالية تمت فى عصر تحلل الدولة العباسية إلى دويلات متصارعة . ولعل جارودى رجع عن هذا الرأى بعد أن تبين له الحق .

وكان هذا التحلل دخيلا على روح الإسلام . يقول الدكتور قاسم : كانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التى قامت قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى : تلك الثورة التى نشأت لتحرير العبيد لكنها لم تكن حركة عدل اجتماعى بل كانت نوعاً من الأخذ بالثأر فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم أن يعملوا على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم . أما حركة القرامطة التى قامت فى الشمال الغربى لبلاد العراق ثم اتخذت مراكز لها فى منطقة الكوفة وفى بعض بلاد الشام وفى سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج الفارسى ثم استقرت آخر الأمر فى البحرين .

نقول إن هذه الحركة التى توصف بأنها اجتماعية كانت على صلة وثيقة بالحركة الاسماعيلية فى دور الستر ، وإن اختلفت معها فى دور الظهور . فإن الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم فى الغرب أن يستقلوا بتوجيه السياسة فى ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية فى المغرب العربى .

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الحلاج المتصوف المشهور كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صلة بالقرامطة .

ويقول الدكتور قاسم : يكفى أن الأستاذ جارودى نفسه يعترف ضمناً

بأن حركة القرامطة حركة طائفية . أقر القرامطة شيوع المال فى مجتمعهم الثائر وحققوا المساواة بينهم على حد ما يقوله جارودى (فإن كل شخص يعمل بأكثر قدر ممكن من الجهد والمنافسة حتى يحصل على مركز ممتاز بما يقدمه من خدمات للطائفة) .

يلاحظ أن صاحب هذه الحركة كان من الموالى وأنه نشر مبادئه فى طائفة العمال والصناع والعبيد والفلاحين والأجراء من الموالى ثم انضم إليهم عدد من الغرب . وقد قامت الحركة فى مكان قريب من المكان الذى قامت فيه ثورة الزنج ووجدت مكاناً خصباً فى الكوفة وتظاهر أصحاب هذه الحركة بالتشيع والميل إلى البيت العلوى وإن كانوا يسلكون من الناحية العملية مسلكاً آخر إذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه .

وقد كان هذا المجتمع (الاشتراكى) مجتمعاً طبقياً فبقدر ما يقدم العضو المنتمى إليه من المال كانت ترتفع طبقته . كانت هناك شيوعية فى المال ولكن طبقة العبيد التى تتكون من الأسرى لم تكن تعامل على قدم المساواة مع الآخرين .

يتساءل : كيف هاجم طائفة القرامطة موسم الحج وقتلوا نحواً من ثلاثين ألفاً من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج ، كل هذه الوقائع تؤكد وجود صلة بين هذه الطائفة وأمثالها وبين الحلاج الذى كان معاصراً لحركة القرامطة : ومن الطريف أن الحلاج قد أدين وقتل بتهمة صرف الناس عن الحج . وقد ورد فى تاريخه أنه كان يستعيض عن الحج بكعبة مصغرة فى بيته يطوف بها أتباعه طوافاً يغنيهم عن الذهاب إلى مكة .

كذلك أشار الدكتور قاسم إلى الصلات الخفية والظاهرة بين الباطنية وبين الصيليبيين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وهى تكشف بوضوح عن ظاهرة فكرية عميقة بدأت فى القرن التاسع الميلادى وانتقلت إلى أوربا فى القرن الثالث عشر . فقد انتقلت أفكار القرامطة والباطنية مع الصليبيين إلى أوربا وأدت إلى ظهور الماسونية . وهذا يفسر لنا فكرة محاربة الأديان عن طريق ضرب بعضها ببعض عند الماسونية وعند من ارتبط بهم من الداعين إلى الثورة الفرنسية .

ومن هنا فإن الماسونية يصفون الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الاسماعيلية الشرقية فى القرن الخامس الهجرى بأنه من أسلافهم ويقولون عنه أنه كان الأستاذ الأكبر للماسونية فى العالم الإسلامى ، ومن هنا يمكن أن نعرف كيف اتخذ (جارودى) من حركة القرامطة عنصراً من عناصر الحركة الاشتراكية ا. هـ.

(٢)

ولا ريب أن من درس حركة القرامطة يجد أنهم اتخذوا أساليب لا تتفق مع مفاهيم الإسلام : أبرزها العنف والتدمير والقيام بالفظائع ، كما أنهم طبقوا فى مجتمعهم آراء مزدك فى شيوعية الأموال وإباحة النساء ، فكيف يمكن أن يقول مؤرخ مغرض أو باحث تغريبى أن هذه الحركة أو أخرى من نوعها يمكن أن تنسب إلى أنها حركات إصلاح إسلامية ، وقد حمل لواء الدعوتين القرامطة والزنج خصوم الإسلام من الوثنيين والثنوية والمجوس الذين ادعوا كذباً وتضليلا الانتساب إلى أهل البيت وهدفهم تدمير الإسلام بالقضاء على دولته .

ولا ريب أن مختلف المفاهيم التى طرحتها هذه الحركات فى نظامها السياسى والاجتماعى مستمدة من المجوسية والوثنية ، فهم يؤمنون بأن الجنة هى الدنيا ونعيمها ، فلا يؤمنون بالبعث والجزاء ، كما يعارضون مفهوم الإسلام فى التنظيم الاجتماعى والسياسى ، فقد وجهت الخصومة بوضوح إلى الإسلام كعقيدة ونظام واعتبرته هذه الدعوات مصدر الشقاء ، وحاولت أن تحل مفاهيم الباطنية بديلا عنه ، وقد طبقت فعلا مثل هذه المفاهيم التى هى ركام الفكر البشرى الوثنى والمادى ، وتبين من التجربة أنها لم تحقق إلا الظلم والفساد والإباحة والهدم ، وبقى الإسلام قوياً عملاقاً صامداً ، وذهبت هذه الدعوات وبقى الإسلام .

ذلك أن هذه الحركات لم تصدر عن منهج أساسى يتيح لها صفة البقاء وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية فى العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لا حد لها وقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب إلى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

ولقد استمدت هذه الحركات مفاهيمها من التنظيم السرى الباطنى الذى رسمه إخوان الصفا وغيرهم . وهى تستهدف فى الأساس تدمير الدولة الإسلامية وإرجاع مجد فارس المجوسية القديم ، والعودة إلى الوثنية والثنوية والمانوية .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة فى العراق والبحرين والحشاشين والباطنية فى سوريا وإيران واتخذت من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتناق مذهبها وخداعهم برفع التكليف واستباحة المحرمات .

وقد حاول المستشرق دوذى أن يمجد هذه الحركة فقال إنها أسفرت عن نتائج مدهشة هى أن جمهوراً كبيراً من أناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية . نقول (وما هى الغاية إلا التآمر على الإسلام وما جمع هذه الجموع إلا الأهواء والشهوات والإغراء والخداع ولكنها عجزت عن أن تصلح اعوجاجاً أو تقيم مائلا . وثبت فشلها فى اتجاهها نحو الإفساد والظلم) .

ولم يلبث أثرها إلا قليلا حتى انكشف وتبين أنها حركة معادية للإسلام ناشئة بين قوى أجنبية تريد أن تدمر هذا الكيان القائم . ولم يجدهم أن جمعوا جموعاً لا يربطها رابط إلا إباحة الملذات والخمر والشهوات وتقديمها لهم للاستعانة على تحقيق غاياتهم البعيدة .

ولم تزد دعوتهم على أن عمدت إلى نهب أموال الأغنياء وإباحة الخمر ونكاح المحرمات من البنات والأخوات والغلمة والفتك برجال الدولة وزلزلة الأمن فى المجتمع .

ولقد تآمرت تلك النحل من المجوس واليهود والنصارى والصابئة والوثنيين والبراهمة وكلها دعوات تنكر وجود الله وتحقد على الإسلام النامى الممتد ، أولئك هم الذين جمعتهم قيادات القرامطة والحركات الباطنية باسم الأهواء والأحقاد ، فما استطاعت أن تحقق شيئاً إلا الدمار ، وما استطاع مؤرخ منصف واحد أن يصف هذا الفساد بأنه حركة إصلاح إلا اليهودية العالمية التى عقدت مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٨ فى الولايات المتحدة وقد جمعت له بعض المبشرين والمستشرقين لوضع خطة ترمى إلى إحياء هذه الحركات وإعادة طرحها فى المجتمع الإسلامى على أنها حركات إصلاح ونهوض ومعارضة

للنظام الإسلامى ، وقد تمكنت هذه الدعوة من تجنيد بعض الكتاب الذين وصفوا القرامطة والباطنية بأنها ثورات الإسلام . ولكنهم لم يخدعوا أحداً فقد تعرف المسلمون الآن على مصادر الشبهات التى تحيكها اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية .

(٣)

ولم يتوقف الأمر عند حركة الزنج والقرامطة . بل تعددت الحركات كحركة المقنع الخرسانى وحركة بابك الخرمى وحركة المازيار وحركة الأفشين وحركة الراوندية وكلها مؤامرات تحمل نفس الولاء الباطنى والاتجاه المجوسى الحاقد الذى يحاول هدم النظام الإسلامى وتدميره ، فقد كانت هذه الحركات السرية تتظاهر بالإسلام ومحبة آل البيت لتعمل على هدم السلطان العربى الإسلامى مقدمة لهدم الإسلام نفسه . وأنها كانت تجمع الناس فى مناطق فارس بالمؤامرة والإغراء والشهوات على أساس الحقد والكراهية والمطمع ، ولذلك فإنها ظلت بالرغم من صورتها المرعبة التى كانت تشير إلى القوة والسلطان . كانت هشة ، وأنها عندما ووجهت بقوة حقيقية سقطت كأنما كانت حصونها من الورق المقوى ، ولم تستطع مؤامرة الباطنية بتجميع ظلمات المجوسية والمزدكية والزرادشتية والمانوية أن تواجه ضوء الإسلام ولم يبق من بعد منها إلا هذا الركام الفاسد الذى بحث عنه المستشرقون والمبشرون وخصوم الإسلام فى العصر الحديث لتجديده وبعثه ووضعه مرة أخرى فى أيدى المسلمين ليفرقهم ويمزق وحدتهم وليصرفهم عن حقيقة الإسلام وليورث الخلافات مرة ثانية بين العرب والفرس وبين الفرق المختلفة التى ماتت وانطوت .

(٤)

كان أقوى نفوذ الباطنية وأشد بأسهم حين ظهر (الحسن بن الصباح) وقد ادعى أنه ينتسب إلى ملوك حمير القدماء وقد ظفر بالحصن الجبلى المعروف بألموت عام ٨٤٣ قرب بحر الخزر . وكان نظام الملك يخشى الحسن ويتوجس خيفة منه وقصته معه معروفة حين ألحقه ببلاط ملك شاه فقد بدا الحسن يدس على نظام الملك نفسه إلى أن دبر له نظام الملك تدبيراً ألجأه إلى الهرب .

ومن حصن ألموت قامت دولة الحشاشين إلى أن قضى عليها جنكيز خان وهو فى طريقه إلى بغداد، وكان الحشاشون قد اعتصموا بمجموعة من الجبال وكانوا يقطعون الطريق فلم تستطع قوى الدولة الوصول إليهم أول الأمر فاستطاعوا إحداث الاضطراب بالتعاون مع الصليبيين واستغلال انشغال الدولة فى مواجهة الحملة الصليبية . ومع ذلك فإن السلاجقة استطاعوا إسقاط أكثر حصونهم وكانت الضربة القاضية هى التى وجهها إليهم — الظاهر بيبرس .

وقد كان الحشاشون يعمدون إلى الاغتيال كوسيلة لتحقيق أغراضهم ، كما كانوا يستعملون الحشيش لتخدير الأعضاء الجدد وحملها إلى حدائقهم الجميلة لإقناعهم أنهم فى الجنة . وزادت قوة الحشاشين فى جميع أنحاء الدولة فى فارس والعراق . . .

ولكنهم ظلوا — رغم المدة التى قضوها — يعيشون على هامش المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية .

وقد استغلوا هذه المرحلة من ضعف الخلافة وتمزق الدولة وانسلاخ بعض الولايات وغلبة القوى العسكرية المختلفة على سلطان الدولة وقيادتها وتعيين الأمراء الذين تولوا الإدارة والمال والجيش ولم يبق للخليفة إلا الاسم .

وكان ذلك كله مقدمة لسقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ وزحف القوى الصليبية إلى القدس ، ولقد تكشفت حقائق كثيرة فى هذه الفترة ردت المخدوعين إلى فهم الأمور ، فقد تبين أن كثيراً من هؤلاء الذين خدعوا الناس بالحيل والكرامات من أمثال ابن عربى والحلاج والسهروردى أنهم من تلاميذ الباطنية وأنهم يستترون تحت أسماء لامعة وكلمات براقة بينما هم على صلة بالمتآمرين سياسياً متفقون معهم على هدم الدولة وتقويض وجودها .

كما تبين أن الحركة الباطنية هى ثمانى فرق أو تسع من المتآمرين تنتظم مجموعة الأقطار العراقية والفارسية وتضم بقايا المجوسية والمزدكية والبابلية ولها شاراتها ورموزها وأسرارها التى تخفى وراءها مقاصدها وغاياتها وأن هذه الدعوات أصبحت ملجأ لكل ناقم وحاقد ولكل صاحب شهوة وهوى .

* * *

ولقد تعددت فى العصر الحديث كتابات الشعوبيين والشيوعيين التى تحاول إحياء هذه النحل الباطلة مفسرة إياها فى ضوء التفسير المادى للتاريخ ، أو فى ضوء المفاهيم العنصرية والقوميات الضيقة عندما يحاول البعض أن يدعى أنها كانت حركات إصلاحية ترمى إلى تحقيق العدل الاجتماعى أو أنها انتفاضات قومية ، ولقد ادعى أحد هؤلاء أن حركة بابك الخرمى هى انتفاضة الشعب الأذربيجانى ضد الخلافة العباسية ، وفى هذا من المبالغة وانتقاص الحقائق التاريخية ما فيه ، بينما لم تكن البابكية إلا واحدة من حركات هدم ما بناه الإسلام وتفتيت الصرح الذى أقامه الفكر القرآنى الربانى الأصيل. ويشهد بذلك ما يقوله المؤرخ العباسى صاحب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق : (بأنه لم يكن فى الإسلام حادث أضر بالإسلام والمسلمون من ظهور بابك الخرمى بتلك المقالة التى تفرع عنها القرامطة والباطنية) .

ومما ردده دعاة التغريب سواء فى إطار الفكر الغربى أو الماركسية من أن الباطنية قد حاولت أن تعيد للمرأة حقوقها وحريتها ، وكذلك وصفت المشاعية والدعارة التى دعت إليها وأقرتها هذه الجماعات بأنها حركة — تقدمية للمرأة .

ولقد كانت حركة بابك واحدة من الحركات الباطنية ، وقد قامت على ما قامت به حركة القرامطة من ترك العبادات والتحلل من الالتزامات الأخلاقية . وتؤكد وثائق التاريخ (المسعودى : مروج الذهب) وغيره أن بابك تحالف مع امبراطور الروم ثيوفيل ووقع اتفاقاً مكتوباً للقضاء على الجيوش العباسية وتحطيم السيادة العربية .

وتقول المصادر : إن امبراطور الروم ثيوقيل قدم مساعدات ضخمة لبابك والخرمية لمهاجمة المسلمين وأنه قبل الخرميين الفارين إلى الأراضى البيزنطية وأن فلول البابكيين انضمت بعد اندحارها إلى الامبراطور البيزنطى ، واعترف المازيار وهو أيضاً من المتآمرين تحت لواء الحركة الباطنية بعد أسره ، اعترف باتفاق المتآمرين على أخذ الامبراطورية من

العرب وإعادتها لأكاسرة الفرس ، كما اتفق الأفشين والمازيار على إحياء مذاهب المثنوية والمجوس ، فكيف يمكن أن يجيء اليوم من يستخرج هذا الفكر ويقدمه مرة أخرى للمسلمين على أنه فكر تقدمي أو اشتراكي . وكيف يمكن أن توصف مثل هذه الحركات المتآمرة التي انكشفت مؤامراتها بأنها حركات عدل اجتماعي كما صورها طه حسين وجماعة المستشرقين ودعاة التغريب :

ولقد حاولت الباطنية خداع الجماهير بالمغالطات المنطقية والإغراءات الكاذبة عن الفردوس الموعود ، ثم تبين من بعد أن ذلك ليس إلا مثيلاً لخدعة الماركسية العصرية ، ولقد هزمت هذه الحركة وتحطم مضمونها الفكري تحت سنابك الأصالة الإسلامية التي لم تلبث أن سيطرت وعلت وانتصرت على ركام الفكر البشري المضلل .

كما تبين أن نشاط هذه الفرق الهدامة لم يهدد أبداً الحضارة الإسلامية ولم يهددها خاصة بالزوال كلياً في أي منطقة إن لم يكن قد زادها قوة وكذبت ادعاءات المبطلين من المستشرقين .

• • •

الباب السادس

تجديد الفكر البشرى

الفصل الأول : تجديد الفكر البشرى .

الفصل الثانى : الإسرائيليات الجديدة فى التاريخ والعقائد .

الفصل الثالث : كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية ؟

الفصل الرابع : الفلسفة المكتوبة باللغة العربية .

الفصل الخامس : تجديد التفسير الباطنى للقرآن .

الفصل السادس : صاحب الزنج والحلاج .

الفصل السابع : الشعوبيون .

الفصل الثامن : الوحى والنبوة .

الفصل التاسع : المؤامرة اليهودية للقضاء على أصالة الإسلام .

الفصل الأول

تجديد الفكر البشرى

كان الفكر البشرى قد لقى مواجهة أصيلة صادقة ردته و صدته وكشفت زيفه وأدالت منه على النحو الذى قضى عليه وكشف عن جوهر مفهوم الأصالة الإسلامية الذى أطلق عليه مفهوم أهل السنة والجماعة ، غير أن النفوذ الأجنبى بأجهزته من الاستشراق والتبشير والغزو الفكرى والتغريب والشعوبية قد عمد إلى إحياء هذا الفكر الإسلامى لإثارة الشبهات وتمزيق وحدة الفكر الإسلامى من جديد . وقد تحركت هذه المحاولة تحت اسم (تجديد الفكر العربى) بدعوى أن الفكر العربى المعاصر قائم بذاته ومنفصل عن الفكر الإسلامى ، وأنه يتشكل من جديد منقطعاً عن امتداده المتصل خلال أربعة عشر قرناً ومتصلا بالفكر الغربى على النحو الذى يدعو إليه رجال الإرساليات والمبشرين وذلك حتى يتشكل فكر جديد تحت اسم الفكر العربى ، يكون محاصراً من الفكر الغربى ينظر إلى الإسلام وإلى عقيدته وتراثه نظرة منفصلة وتقوم النظرة على منهج النقد الغربى الوافد الذى ينظر إلى الأدب على أنه نتاج العصر والبيئة وحدهما بينما تقوم النظرة الإسلامية العربية على أن الأدب العربى يستمد جذوره وعوامل حياته من الأصل الأصيل : القرآن ، وأن الأدب ليس إلا قطاعاً من الفكر العربى الجامع المتكامل لا ينفك عنه ، ويقوم على أساس المسئولية الفردية والجزاء الأخروى وأخلاقية التعامل الاجتماعى .

ولقد توزعت هذه المحاولة الخطيرة على دراسات الكلام بالدعوة إلى إحياء الاعتزال وتصوير الدعاة إلى تجديد الفكر الإسلامى بأنهم معتزلة ورجال كلام جدد ، وبالدعوة إلى تجديد الفكر الفلسفى فى الجوانب التى هاجمها الغزالى وقضى عليها ابن تيمية وبالدعوة إلى إحياء التصوف الفلسفى القائم على الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وبالدعوة إلى إحياء الفكر الباطنى الشعوبى .

وقد سارت حركة تجديد الفكر البشرى فى هذه الميادين الأربعة . تحت لواء ما أطلق عليه (الفكر الحر) .

وقد بدأ الاستشراق هذه الخطة . بإحياء هذا الركام القديم وإعادة طبعه ونشره .

بدأت هذه المرحلة عام ١٩٠٩ بكتاب لويس ماسنيون حتى حمل لواءها طه حسين عام ١٩٢٧ بعد سقوط الخلافة ، ثم جددها عبد الرحمن بدوى عام ١٩٤٦ ، ثم جاء زكى نجيب محمود منذ عام ١٩٦٧ وفى ظل النكسة لإحياء هذا التراث على نحو جديد :

١ - نشر لويس ماسنيون كتابات الحلاج والسهروردى وفريد العطار وابن سبعين .

٢ - نشر جولد زيهر كتابات صالح بن عبد القدوس .

٣ - نشر كريمسكى عن أبان بن عبد الحميد اللاحق .

٤ - نشر فرنسسكو جبريلى وباول كراوس عن ابن المقفع .

٥ - نشر باول كراوس عن ابن الراوندى .

٦ - نشر فرنسسكو جبريلى عن بشار بن برد .

٧ - نشر باول كراوس عن محمد بن زكريا الرازى .

٨ - ما كتبه أسين بلاسيوس عن ابن عربى .

ثم جاء دور التغريبيين العرب فقاموا بدور كبير :

١ - كتب طه حسين عن الزنادقة : بشار بن برد وأبو نواس وحماد وأبان بن عبد الحميد ، وجدد طبع آثار ابن المقفع ورسائل إخوان الصفا .

٢ - كتب عبد الرحمن بدوى كتابيه : (شخصيات قلقة) و (من تاريخ الإلحاد فى الإسلام) تناول فيهما الحلاج والسهروردى وابن المقفع . وابن الراوندى والرازى ، وقدم شطحات الصوفية عن أبى زيد البسطامى ورسائل ابن سبعين وترجم ما كتبه اسين بلاسيوس عن ابن عربى .

وبذلك أحيا قدراً كبيراً من ذلك التراث الغنوصى المجوسى القديم وإن كان قد قدمه كترجمات لآثار المستشرقين .

٣ ـ أما الدكتور زكي نجيب محمود فى كتابه (تجديد الفكر العربي) والمعقول واللامعقول فى التراث العربي . فقد أعاد صياغة الفكر البشرى الوثنى الغنوصى صياغة جديدة .

وتتمثل حركة تجديد الفكر البشرى فى عدة ظواهر :

أولا : إعادة كتابة تاريخ القرامطة والزنج والباطنية على أنها حركات عدل وحرية أو ثورات إسلامية ومن ذلك ما كتبه محمود إسماعيل عن الحركات السرية فى الإسلام وحسين الوزير عن انتفاضة الشعب الأذربيجانى .

ثانياً : إعادة الدعوة للاعتزال والراوندية على النحو الذى حاوله الدكتور زكى نجيب محمود .

ثالثاً : إعادة طبع كتب وحدة الوجود والحلول والاتحاد كمحاولة طبع كتب ابن عربى والحلاج .

رابعاً : محاولة فرض منهج التفسير الماركسى للتاريخ كما فعل أحمد عباس صالح فيما أسماه اليمين واليسار فى الإسلام .

خامساً : محاولة لطفى السيد التى صورها فى ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو من أن فلسفة أرسطو هى مصدر النهضة العربية الحديثة . وترجمة تمام حسان لكتاب (مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب) تأليف أوليرى ، وكتاب الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام لإبراهيم بيومى مدكور وكلها تحاول أن تجعل من الهلينية سيادة على الفكر الإسلامى .

وهناك لعبد الرحمن بدوى فى هذا الركام : كتابه شطحات الصوفية لأبى زيد البسطامى والأفلاطونية المحدثة عن العرب والخوارج والشيعة ورسائل ابن سبعين .

وهكذا تتجمع الروافد كلها (فلسفية ، وصوفية ، وكلامية) لتشكل جبهة خطيرة قوامها مفاهيم الفكر البشرى فى متابعة للعمل الذى قام به ماسنيون وباول كراوس .

ولقد جدد عبد الرحمن بدوى أعمال الاستشراق ونقلها إلى العربية ،

ففى كتابه تاريخ الإلحاد فى الإسلام يتحدث عن الزنادقة ويترجم لهم

بتوسع ويؤرخ لهم ويضع فكرهم مجدداً أمام المثقفين العرب ، يتحدث عن طالوت ونعمان وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء وأبو عيسى الوراق وبشار وحماد وأبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية .

ونجد أمثال سيد حسين نصر فى إيران يؤلف عن ابن سينا والسهروردى وابن عربى كتاباً تحت اسم حكماء مسلمين مجدداً هذه الدعوة رابطاً بينهم وبين زرادشت ومانى ومبتعثاً علم الحروف والجبر والرموز والأسرار فيغرب إغراباً شديداً ويبعد عن مفهوم الأصالة الإسلامية كثيراً .

وهكذا اتسع نطاق دائرة المؤامرة على الإسلام فى هذه الجولة وكانت التجربة الأولى واضحة أمام قادة المؤامرة (التغريب والشيوعية واليهودية العالمية) فقد رأى أصحاب المؤامرة كيف أغرق ركام الهلينية الفارسية الباطنية الوثنية الفكر الإسلامى فى دوامة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر فجددوا هذا العمل بهذه الأبحاث الواسعة المتعددة فى كل اتجاه التى تحمل الملامة والمؤاخذة للفكر الإسلامى لأنه قصر فى مجال الفلسفة وأقفل بابها وعارض الاعتزال وأن هذا كان من أسباب تأخر المسلمين . وكانت الحملة شديدة على الإمام الغزالى وكان الإغضاء والتجاهل لأصحاب حركة المقاومة والمواجهة أولئك الذين حملوا لواء الأصالة الإسلامية من أعلام مع أعلاء وإبراز وتلميع كل الأسماء التى حملت لواء الباطنية والفلسفة والزندقة قديماً مما يسمونه (المشاءون) أو (الشراح) فكتبت عشرات الأبحاث عنهم وجلهم لا يسلم فى مقياس الأصالة الإسلامية للحكم عليه وأخطر من تصوب إليه أسهم الاتهام الفارابى وابن سينا .

وكان من أخطر دعوات المؤامرة فصل الفكر الإسلامى الحديث عن الفكر الإسلامى فى مراحله المتصلة منذ بزوغ الإسلام تحت اسم الفكر العربى ، وذلك لعزله وانتقاصه واحتوائه ، ولكن حركة اليقظة الإسلامية استطاعت أن تواجه هذه المؤامرة وتكشفها وظهرت أبحاث كثيرة وكتابات متعددة لكشف هذا الزيف ونسف هذه الشبهات وكتب عديد من مفكرى الإسلام عن هذه المخططات .

* * *

الفصل الثانى

الإسرائيليات الجديدة فى التاريخ والعقائد

لم تكن الإسرائيليات الجديدة إلا صورة مجددة من الإسرائيليات القديمة غير أنها وضعت فى صورة المناهج العلمية وألقى عليها ظل من براعة التعبير وصنعت من نظريات مستحدثة ولقد كشف كثير من الباحثين الجذور التلمودية فى :

- مذهب التحليل النفسى لفرويد .
- مذهب ليفى بريل عن القول بتطور الأخلاق .
- مذهب دوركايم عن القضاء على المسئولية الفردية وتغليب المسئولية الجماعية .
- مذهب ماركس فى إعلاء التفسير الاقتصادى للتاريخ .

وفى مجال هدم (إسلامية) الثقافة العربية والأمة العربية كانت المحاولات والمؤامرات تدور حول تزييف التاريخ وتصوير حملات الباطنية والقرامطة على أنها حركات ثورية إصلاحية .

وقد ظهرت هذه الحركة فى أفق الفكر الإسلامى المعاصر بعد أن صدرت توصية مؤتمر بالتيمور الذى عقد فى عام ١٩٤٢ والذى دعا إلى الاهتمام بدراسة وابتعاث الحركة السرية فى الإسلام ومن ثم بدأت كتابات (عربية) كثيرة فى هذا المجال ، تحاول أن تصور حركات الانتقاض على الإسلام ودولته على أنها حركات إسلامية أصيلة .

وفى السنوات الأخيرة تركز الحديث حول القرامطة ووصفهم بأنهم حركة تقدمية وجاء الدعاة إلى الشرق ليصفوا القرامطة بأنهم دعاة العدل فى الإسلام ، من أمثال جارودى وغيره ووصفهم الدكتور طه حسين كذلك عام ١٩٥٠ تقريباً فى بحثه فى مجلة الكاتب المصرى اليهودية المصدر .

ولم تكن حركة القرامطة فى الحقيقة حركة إسلامية ولكنها كانت إحدى الحركات المتصلة بالمؤامرة التى دبرت ضد الإسلام ودولته . هذه المؤامرة المتصلة التى اشترك فيها اليهود والمجوس والقوى الشعوبية لحساب الدولة الرومانية الشرقية .

ويمكن أن تصدر فى تقييمها التحفظات التالية :

أولا : لم تكن حركة القرامطة إنسانية الطابع أو تعمل على تحرير الإنسان أو تكريمه وقد استخدمت الإسلام ستاراً لها لتحقيق أغراض المؤامرة ، بل كانت حركة طائفية محضة .

ثانياً : ارتبطت حركة القرامطة بثورة الزنج ولم تكن ذات طابع إسلامى بل كانت بمثابة الأخذ بالثأر على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : (فقد حرض هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم) .

ثالثاً : لم تكن هذه الحركة إسلامية لأنها لم تستطع أن تحقق نهج الإسلام فى الحكم ولو ليوم واحد . وإنما حققت مناهج الشيوعية فى المال والعرض وقام مجتمعهم على المنافسة وكان التقدم فيه قائماً على الثروة المالية فكان مجتمعها مجتمعاً طبقياً .

رابعاً : كذلك ينفى عنها طابع الحركة الإسلامية اعتداؤها على الأراضى المقدسة وتجريح الرسول وصحابته . وقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحو ثلاثين ألفاً من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج .

خامساً : تؤكد النصوص التاريخية تلك الصلة الوثيقة بين حركة القرامطة وبين الحركة الباطنية الاسماعيلية فى دور الستر وإن اختلفت معها فى دور الظهور .

سادساً : كان المجتمع القرمطى مجتمعاً طبقياً فيه طبقة السادة وفيه طبقة العبيد التى كانت تتكون من الأسرى ولم يكن لها أى حق فى أى حرية أو مساواة مع الآخرين . ومعنى هذا انقلاب الوضع فقد عمد العبيد إلى الاستيلاء على السلطة ووضعوا أصحاب البلاد فى موضع العبيد .

سابعاً : كشفت الوثائق أن هناك صلات ظاهرة وخفية كانت قائمة في ذلك الوقت بين الباطنية والصليبيين .

ثامناً : يعد الحلاج من أمثلة هذه الروابط بين الحركة الباطنية وأعداء الدولة الإسلامية . وقد كان الحلاج من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صلة بالقرامطة وقد روى عنه أنه أقسم فى أحد أحاديثه القدسية التى كان يزعمها لنفسه(١) بعام ٢٩٢ هـ .

وهذا العام هو الذى شهد الثورة الكبرى للقرامطة وقد سجل هذا كله ماسنيون فى كتاباته عن الحلاج .

وهذه التحفظات تكشف عن زيف دعوى المدعين بأن حركة القرامطة ثورة إسلامية أو حركة إصلاح . كذلك فإن بعض كتاب العرب قد أولى اهتمامه للحلاج ووصفه بأنه داعية تحرير الإنسان من الظلم ، والحقيقة أن الحلاج لا يستطيع الثبات فى مجال الزعامة الإسلامية لحظة واحدة .

فقد وصفته كتب التاريخ التى بين أيدينا بأنه (رجل مجوسى الأصل ، اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ، ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر العباسى لينفذ بهم إلى تحقيق غايته فأدى ذلك إلى قتله) .

وذكر إمام الحرمين فى كتابه الشامل أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاقاً سرياً على قلب الدولة ، وأن هذا هو السبب الحقيقى لقتل الحلاج ، فالحلاج لم تقتله الكلمة مهما كانت مغرقة فى الشك والوثنية وإنما قتل حين ثبتت عليه مراسلات إلى القرامطة وتبين أنه كان وكيلا لهم ، وكان القرامطة قد أزاحوا النظام الإسلامى وسفكوا الدماء وخربوا البلاد وأنشأوا لهم عاصمة فى هجر حملوا إليها الحجر الأسود فظل بها ثلاثين عاماً .

ولقد قيل أن دعوى الحلاج فى الحلول والاتحاد والإشراق ووحدة الوجود كانت منطلقة إلى تمزيق الفكر الإسلامى وإفساده وهدم تعاليم الإسلام تمهيداً لتحطيم سلطته السياسية ، وهو نفس المنهج الذى سلكته الباطنية فقد

---

(١) رجعنا فى هذا إلى بحث الدكتور محمود قاسم (الهلال - يناير سنة ١٩٧١ م) .

رأى خصوم الإسلام إزاء عجزهم عن هدم الدولة ، أن يلجأوا إلى تقويض عقيدة التوحيد التى جمعت شمل المسلمين وتذرعوا إلى ذلك بنظريات التصوف الهندى والمجوسية الفارسية والفلسفة الوثنية اليونانية ، وكانت مقدمات ذلك السخرية بالشريعة الإسلامية والترخص فى الحدود وإباحة المحرمات ، وقد جرى الحلاج فى ذلك شوطاً طويلا فادعى الألوهية واتهم بمعارضة القرآن وأنه يحيى الموتى وأن الجن يخدمونه وأنه يعمل من الخوارق ما يشبه المعجزات ، وأنه كان يدعو إلى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت الحرام فى مكة وله مع أصحابه كتابات بالشفرة لا يفهمها إلا هو ومن أرسلها إليه .

وقد أشار الدكتور قاسم إلى أنه مما يثبت إدانة الحلاج بالعمل مع القرامطة أنه كان يصرف الناس عن الحج وكان يستعيض عنه بكعبة مصغرة فى بيته يطوف بها أتباعه طوافاً يغنيهم من الذهاب إلى مكة .

ومن الظاهرات الجديدة فى أفق البحث ظاهرة (وحدة الوجود) وهى ذات مصدر دينى قديم لا يقول بالتوحيد ويتصل بالتعدد حتى يمكن القول : إنها إحدى ركائزه الأساسية ، وقد وجدنا من أمثال الدكتور حسين فوزى وغيره من يفخر بأنه يؤمن بها .

ومذهب وحدة الوجود دخيل على الفكر الإسلامى وهو من المذاهب الفلسفية القديمة المرتبطة بالوثنية والمجوسية وفلسفات الإغريق والهنود والفرس التى تحرر منها الإسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها

وتعنى وحدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو « الله » جل جلاله .

وهى دعوى تتناقض مع جوهر العقيدة الإسلامية تناقضاً مطلقاً بحيث لا يمكن التوفيق بينها وبين دين عقيدة التوحيد بأى وجه من الوجوه .

ومفهوم الإسلام فى مواجهة وحدة الوجود : هو أن الموجود اثنان :

واجب الوجود وممكن الوجود .

أما واجب الوجود فهو صانعها الواحد الأحد الفرد الصمد .

وأما ممكن الوجود فهو هذه الكائنات التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

كذلك أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد ، أى حلول الخالق فى المخلوق ، أو استغراق المخلوق فى الخالق .

والإسلام يميز طبيعة كل منهما ولا يقبل وحدة الوجود لأنها تتعارض مع **« لا إله إلا الله »** .

ومن هنا نرى كيف أن الاستشراق وهو مادة التغريب والتبشير جميعاً يركز على هذه القضايا :

١ - قضية التصوف الفلسفى وفكرة وحدة الوجود فى مجال العقائد .

٢ - قضية الثورات المضادة للإسلام ويحاول أن يصفها بأنها ثورات إسلامية كالقرامطة والزنج وغيرها .

ولقد أغرى بعض الذين يكتبون بهذا منذ وقت بعيد ، وما تزال أجيال الشعوبيين تتوالى وتجدد دعواها : « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

• • •

الفصل الثالث

كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية

إن هذه الدعاوى التى ما تزال تتردد عن صلة الفكر الإسلامى بالإغريقية أو الهلينية فى حاجة إلى أن تواجه دائماً بالحقيقة القاطعة التى تكشف موقف الإسلام من الإغريق وكيف حطم هذا القيد وحرر الفكر الإسلامى من آثاره وآثامه .

لقد وجه المستشرقون والمبشرون الغربيون همهم ، دون توقف ، ودون يأس حول هذا المدخل إلى الإسلام فى محاولة تصوير الفكر الإسلامى أنه من صناعة الفكر اليونانى الإغريقى ، أو إلقاء ظل التبعية الكامل عليه ، كأنما لم يكن للمسلمين فكر قبل القرن الثالث الهجرى منذ نزل كتابهم وجاء رسولهم وتشكلت أمتهم ودولتهم وتكون فكرهم خلال مائتى عام كاملة . استوفى فيها الفكر الإسلامى كيانه ووجوده قبل أن يلتقى بالفكر اليونانى . وفيه تشكلت كل الركائز العلمية من تحقيق السنة وإنشاء النحو وبناء الشريعة واللغة وكتابة التاريخ وانطلاق شرارات العلم والبحث وبناء المنهج الإسلامى للمعرفة المستمد من القرآن الكريم ، لقد تم كل ذلك قبل أن يلتقى المسلمون بالهيلينية ، لقد تكونت ركائز الفكر الإسلامى وتشكلت وثبتت قبل هذا اللقاء ، فلما جاء الفكر اليونانى المترجم نظر المسلمون فيه وأخذوا منه ورفضوا .

ولقد كان المسلمون فى تطلعهم إلى التراث اليونانى إنما يقصدون العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ، ولم يكونوا فى حاجة إلى الفكر اللاهوتى الذى يسمونه الفلسفة الإلهية فقد كانت هى مما استغنى عنه المسلمون بالإسلام ، ولكن موجة الترجمة ما لبثت أن خرجت عن قواعدها التى رسمت وسيطر عليها بعض النساطرة الذين تدافعوا إلى ترجمة هذه الآثار فأحدثوا ذلك الأثر الخطير من البلبلة والاضطراب الذى تدافع المفكرون المسلمون حوله ، فى محاولتين :

الأولى : الملاءمة بينه وبين التوحيد وهي محاولة فاشلة قام بها الكندى والفارابى وابن سينا ، لأنها لم تحقق شيئاً ولأنها حين قامت لم تكن النصوص التى فى أيدى أصحابها هى الأصول الحقيقية للفكر اليونانى .

أما المحاولة الثانية : فهى محاولة رد هذا الفكر اليونانى فى مجال الإلهيات رداً كاملا ورفضه والتماس منطق الفكر الإسلامى من القرآن على النحو الذى استطاعه الإمام الجليل ابن تيمية .

ومن الحق أن يقال : إن النساطرة والسريان كانوا مزيفين مضللين ، وأنهم لم يكونوا خالصى الوجه للعلم ، فقد ثبت (أن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية . ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الإسلامى شيئاً) ، وأن هذه المترجمات (كانت تكسباً للمال لا حباً للعلم . بالإضافة إلى استغلال الترجمة فى الدعوة التى نحلتهم ونصرة مذاهبهم) .

ومن هنا وقع الخطر . خطر نسبة بعض الكتب إلى أرسطو وهى لغيره أو لأفلاطون وهى ليست له . ومن هنا فقد فسدت الدراسات التى حاول بها أمثال الفارابى الملاءمة بين فكر ليس هو فى الأصل لصاحبه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن النساطرة واليعاقبة كانوا يحرفون الأصول التى بين أيديهم ، فيما يرونه مخالفاً لدينهم ، وأن بعضهم الآخر كان يتصرف بالزيادة والنقص فى النصوص . يبدلون فيها ميلا مع أهوائهم أو نصرة لمذهبهم ، عرفنا إلى أى حد كانت قيمة ذلك التراث المترجم .

(٢)

ولقد كان أرسطو هو قمة هذا التراث وهو الذى أحيط بهالة ضخمة من الاهتمام ، هذا الاهتمام الذى جدده (الهيلينيون الجدد) فى العصر الحديث .

ولقد كان هناك قول أصبح من المسلمات : إن منطق أرسطو هو قمة ما أخذ الفكر الإسلامى من اليونان .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً ، فإن منطق أرسطو مستمد من المجتمع

اليونانى الذى يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع الإسلامى ، ولذلك كان منطقه لا يطابق مجتمع الإسلام بل يتعارض معه .

(إن منطق أرسطو يعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليونانى العبودى المنقسم إلى سادة يتأملون وعبيد يعملون ، السادة هم الصورة والعبيد هم المادة) ولكن المجتمع الإسلامى كان يختلف عن المجتمع اليونانى اختلافاً كبيراً ، دولته تقوم على الأخوة والمساواة وينطلق من نقطة النظر فى السموات والأرض والعمل والتجريب ، ومن هنا اختلف منهج المجتمع الإسلامى عن مجتمع اليونان ، من جملة جوانب أهمها التوحيد ، وإلغاء العبودية ، والممارسة فى مجال العلم وبذلك بدأ ذلك التعارض الواضح والتباين العميق بين مجتمع ومجتمع وفكر وفكر .

خرج الفكر الإسلامى عن النظرة الأرسطية التى ترى أن العلم لا يكون إلا بالكلى . أما العلم الجزئى فليس علماً ، فتقدم الفكر الإسلامى فحطم هذه القاعدة وبدأ النزعة التجريبية من الجزئيات . وبذلك خرج المفكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطى للحد والتعريف واستطاع رجال الأصول والفقه أن يقيموا نظرة جديدة للتعريف تقوم على أساس الواقع ، وأدى ذلك الخروج عن حدود القياس الأرسطى إلى الحصول على نتائج عملية ، وأصبح طابع الفكر العلمى الإسلامى هو طابع التجريب . ونقد المفكرون المسلمون قياس أرسطو وقال عنه ابن خلدون : إنه قياس ذهنى . أما المسلمون فقد عرفوا ما لم يعرفه اليونان وخطوا أخطر خطوة فى تاريخ البشرية وهى بناء قاعدة العلم الحديث نفسه تلك هى التوحيد بين التأمل والممارسة العملية . وأولى المسلمون اهتمامهم بالرابطة العلية بين الأشياء ، وعلى هذه الرابطة بين الأشياء قامت التجارب وعلى هذه الرابطة العلية (البحث عن العلة) أقام البيرونى والرازى وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم العلمية ، وفى نفس الوقت قام المنهج العلمى فى الفكر حيث فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقة البشرية(١) :

(١) راجع : على سامى النشار ومحمود أمين العالم وعبد الرحمن مرحباً وتوفيق الطويل فى دراساتهم عن العلم عند المسلمين .

(وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان ، اختلف الفكر الإسلامي العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ولم يكن هذا الاختلاف عارضاً أو طارئاً ، وإنما كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعي للدولة العربية وللحضارة اليونانية) .

وبذلك ظهر الفكر الإسلامي في جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق أرسطو وأطل على التجربة العلمية رابطاً بين التأمل النظري والممارسة العلمية وخرج بذلك على الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية ، خرج بالعقل التجريبي والمنهج العلمي الأصيل(١) .

ولقد صور كثير من الباحثين أثر منهج أرسطو فوصفه الدكتور قاسم بأنه (كان منهجاً عقيماً وأنه ضلل كثيراً من مفكري العرب ثم وقف حائلا دون ازدهار الحضارة العربية ، ويرجع عقمه إلى أنه كان خلواً من الخيال وإلى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضايا العامة المجردة منه لدراسة التفاصيل ، والجزئيات ، يستدل على صدق دعوانا وتواضعها بتاريخ النهضة الأوربية فإنها لم تتحرر من الجمود الذى فرضه عليها منهج اليونان إلا بعد أن عرفت مناهج العرب في العلم والفلسفة ، ولنا أن نستشهد برينان نفسه ، ذلك أنه يصف (روجر بيكون) بأنه الأمير الحقيقي للفكر الأوربي في القرن الثالث عشر ، ويجب أن تعلم كيف جاءته إمارة الفكر ، إذ ليس في هذا المجال خلق من العدم ، ومن اليسير أن نكتشف سر أصالته ، إذا نحن بينا أنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطوطاليسي في أوربا ودعا إلى اصطناع نهج العرب ، فهو يأخذ على معاصريه بأنهم يصبون لعناتهم على الرياضة مع أنه من الممكن أن يبرهن بالرياضة على كل ما هو ضروري لفهم الطبيعة ، ولولا الرياضة لاستحال علينا أن نعرف أشياء هذا العالم معرفة صحيحة ، تعود علينا بالنفع في الأمور الإنسانية والأمور الدينية أيضاً ، كذلك يأخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا إلى القوانين الكلية) .

---

(١) انظر : معارك فكرية للدكتور علي سامي النشار .

وهكذا انتصر المنهج الإسلامى على المنهج الأرسطى وحطمه فى عقر داره بعد أن حطمه فى مجال الفكر الإسلامى نفسه .

فضلا عن ذلك فإن هناك التناقض الواسع العميق بين الإسلام والفلسفة اليونانية . لقد احتقر اليونانى التجريب والتجربة وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان . ولم يشغل المسلمون بالجوهر والماهية والتصورات التى شغلت بها الفلسفة اليونانية وإنما اشتغلوا (بالخواص) وإدراج الخواص فى نسق منهجى متكامل . ومع ذلك فما زال هناك من أهل التبعية الفكرية الغربية من يقول : إن الإغريق أول من أوجد التفكير العلمى . وهو كلام براق غير علمى .

والحقيقة إن الإسلام هو الذى وجه تيار الفكر نحو الخواص ، ونحو التجريب وعبارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد بعيدة الأثر والمدى : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا » .

ومع ذلك فإن الإسلام هو الذى حفظ الفلسفة اليونانية من الضياع فإن النصرانية لما دخلت اليونان خافت على الدين فمنعت تدريس الفلسفة ودفنت كتبها فى دهاليز فى باطن الأرض حتى كشف عنها المسلمون .

ولقد صحح المسلمون أخطاء جالينوس فى الطب اليونانى وأخطاء بطليموس وأبقراط وأقليدس فى الرياضيات وعارضوا أخطاء أرسطو فى المنطق ، وبالرغم من أثر الإغريق فى التاريخ الفلسفى إلا أنه لم يستطع أن تحدث تغيراً فى مفهوم الإسلام للإنسان ، ورفض المسلمون رأى أرسطو ومفهومه فى الألوهية وما وصل إليه من زيف ، واعتبر الكندى والفارابى وابن سينا — فى مجال الفلسفة — بالرغم من الجهد الكبير الذى بذلوه لإقرار مفهوم التوحيد والتنزيه وإقرار النبوة — اعتبروا بالرغم من ذلك كله مجرد امتداد للروح الهلينية فى العالم الإسلامى .

واعتبر الباحثون أن الفلسفة الإسلامية قد نبعت من صميم البيئة الإسلامية وأنه بعد معاناة علوم القرآن والحديث نشأ علم إسلامى أصيل هو (علم أصول الفقه) الذى أقامه الإمام الشافعى أول معارض لتيار الهلينية ، وأول من نبه

إلى هذا الخطر حين قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس .

ولقد قدم الإمام الشافعي (مباحث الأصول) لأول مرة ، كعلم متسق الأجزاء له منهج عام يحدد للفقه الطرائق التي يسلكها لاستنباط الأحكام .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب هذا الفهم لأصالة الفلسفة الإسلامية : إن هذا الاتجاه من الشافعي هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعني بالجزئيات والفروع ، بل يعني بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها. لقد دعا كل ذلك إلى اعتبار (الشافعي) في العالم الإسلامي وفي الدراسات الإسلامية مقابلا لأرسطو في العالم الهليني والدراسات اليونانية .

(كان الشافعي يعرف اليونانية وقد هاجم المنهج الأرسطي مهاجمة شديدة لا من الجانب السلبي فقط ، بل إيجابياً بوضع منهجه في الأصول الذي كان أساساً للمنهج الاستقرائي والتجريبي ، الذي تميزت به الثقافة الإسلامية وحضارتها والذي لولاه لسقط العلم في العالم الإسلامي ، ولتأخرت نهضة أوربا العلمية الجديدة) .

« كان الشافعي يرى (فكر الدين) في اللغة العربية وفكر (الفلسفة) في اللغة اليونانية ، كما يرى أن المنطق الأرسطي الذي يستند إلى اللغة اليونانية مخالف للمنطق الذي كشف عنه علم الأصول الذي يستند إلى اللغة العربية وخصائصها . ولقد تبين له أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغة العربية يؤدي إلى كثير من التناقض ، ولذلك هاجم المنطق الأرسطي الذي أخذ بعض علماء المسلمين كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد إلى حد التحريم وتابعه في ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين على رأسهم — ابن تيمية(١) .

ومن هنا فإن المنهج الاستقرائي (العلمي والتجريبي) على حد قول الدكتور النشار — هو المعبر عن طبيعة الإسلام ، والإسلام في آخر تحليل

---

(١) الدكتور النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام .

هو تناسق بين النظر والعمل ، هذا المنهج بما فيه من روح الإسلام ونظرته قد أدخله العرب إلى العالم الأوربى وبذلك فإن المسلمين هم مصدر هذه الحضارة القائمة على المنهج التجريبى » .

(٣)

جاء الإمام ابن تيمية خاتمة لهذا الخط الواضح القوى الذى ظل المفكرون المسلمون يعملون له دون توقف فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الفلسفة الهلينية ، لقد كان شغل المسلمين الشاغل هو رفض السماح لشخصية الإسلام الحضارية أن تذوب أو تتلاشى فى شخصية حضارية أخرى ، وهو ما مكن المسلمين من الصمود فى وجه القوة الغازية .

ولقد وصل ابن تيمية إلى قمة من القمم فى هذا المجال فى كتابه (الرد على المنطقيين) ويعتبر ابن تيمية فى رده على مناطقة اليونان أكثر ممثل لروح الإسلام تجاه الهلينية ، فنقد المنطق الأرسطاليسى ولم يقف عند هذا بل استخلص للإسلام منطقاً يعبر عن خصائص العقلية ويحمل طابع حضارته .

ويعد الباحثون (ابن تيمية) الرائد الأكبر لكل الاتجاهات الحديثة والغربية فى نقد (منطق أرسطو) من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد تتبع ابن تيمية المنهج الإسلامى الاستقرائى منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ، ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الإسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة ، وكشف عن عقم عملية التلفيق التى قام بها الفارابى وابن سينا ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل ، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة ، وكشف عن ضعف أدلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين ، وأهل البدع .

ووصل إلى نتيجة صريحة هى أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح النقل ، ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا ، وعنده أن فى ذلك خروجاً على أصل من أصول الإسلام ، وأعلن بأن مهمة العقل هى تفسير الوحى والتعبير عنه .

وبعـــد :

فإن الحقيقة الواضحة الصريحة أن الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تسيطر على المسيحية واليهودية ، ولكنها عجزت عن أن تفعل ذلك بالنسبة للإسلام ، وأن منهج اليونان مخالف لمنهج المسلمين ، وأن اليونان اقتصروا على التأمل . أما المسلمون فقد اقتحموا مجال التجربة ، وأن القرآن هو الذى هداهم إلى بناء المنهج العلمي التجريبي .

ومن هذا فقد كان على الأصوات التى تدعى أن للهلينية فى الفكر الإسلامى مكاناً أن تخرس وأن تتوقف بعد أن تكشفت الحقيقة على أيدى الباحثين فى الفلسفة أنفسهم . إن خصومنا يحملون اسم الفلسفة على أنه معلم من معالم الحرية . ولكنهم فى الحق إنما يريدون به تحطيم مفهوم الإسلام الصريح القائم على الفطرة والتوحيد والذى ليس فى حاجة إلى سلاح الفلسفة إلا على النحو الذى فهمه الإمام ابن تيمية .

* * *

الفصل الرابع

الفلسفة المكتوبة باللغة العربية

هل عرفت طريق الأصالة ؟

ما زال أرنست رينان يردد فى كتبه التى ما زالت تدرس فى بعض الجامعات العربية : إن الفلسفة العربية ما هى إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ، ومنذ أن وصل أول باحث مستشرق لتدريس مادة الفلسفة فى الجامعة المصرية القديمة : كونت دى جلارزا فقد فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين بأنه لا توجد فلسفة عربية وإنما هذه الفلسفة المنسوبة إلى (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية .

وقد أزعج هذا القول الكثير من الغيورين وحملوا على هذا القول وقالوا : بل هناك فلسفة عربية وأن دور الكندى والفارابى وابن سينا ، وابن رشد لم يكن مجرد النقل وإنما كان لهم دور بناء .

وقد سار على هذا المنهج أحمد لطفى السيد حينما ترجم باسمه كتاب (علم الأخلاق) لأرسطو طاليس ترجمة بارتلمى سنهيلر(١) الذى يقول فى المقدمة :

(مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصوراً على كتب أرسطو فإن فلسفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها . والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئاً غير فلسفة أرسطوطاليس طبعت بالطابع العربى وسميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الأوربية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين أى فلسفة أرسطو) .

---

(١) ما يزال العاملون فى دار الكتب المصرية يذكرون كيف قامت هيئة الترجمة بالدار بترجمة هذا الكتاب يوم كان لطفى السيد متولياً منصب مديرها عام ١٩٢٥ م .

وقد علق الدكتور صروف فى المقتطف (يناير عام ١٩٢٥) على هذا المعنى فقال : (إن ما قاله الأستاذ — يعنى لطفى السيد — يؤيده الكتاب الأوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية واستشهد بما قاله الإسكيس وليم ولسن) إن ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة فإنه فكر يونانى منظم عبر عنه بلغة سامية وحور بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الإسلام بموازرة الواسعى الصدر من خلفائهم . وبقى حياً بجهد جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من المجاهرة بآرائهم . على أن أمتهم أساءت بهم الظن واضطهدتهم . ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سبباً فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين إلى فلسفة أرسطو فقال : (وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحاً للتفكير العصرى الذى أخرج كثيراً من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لا سيما أنها أشد المذاهب ائتلافاً مع مألوفاتنا والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية) .

وقال : (إن فلسفة المعلم الأول خالدة ما حدها وطن ولا أخنى عليها زمن فقد بنت عليها كل مدنية صروح مجدها العلمى حتى مدنيتنا الجديدة) .

هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الأهلية إلى جامعة رسمية وجيء بلطفى السيد فوصفه تلاميذه وأتباعه بأنه أستاذ الجيل . رئيساً للجامعة وجاء طه حسين وغيره يدعون إلى اليونان وأرسطو

فهل كان حقاً (لطفى السيد) أستاذ الجيل صادقاً فيما قال وفيما دعا إليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقاً إلى النهضة الجديدة ، وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعد دعوة ملحة إلى هذا الطريق أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة ؟

هل حقاً كان أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة وما بعدها أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قروناً حتى جاء منهج التجريب الإسلامى الذى أطلق الطاقات إلى عصر

العلم الحديث ؟ ندع هذا للباحثين ، لقد كان علماء المسلمين انطلاقاً من القرآن هم الذين أنشأوا المنهج التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة : درابر وبريفولت وجوستاف لوبون فى القديم ، وسارتون وهونكة وغيرهم فى العصر الحديث ، وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه : (شمس الله تشرق على الغرب) وكتاب (أوربا ولدت فى آسيا) .

إذن لم يكن لطفى السيد صادقاً ولم يكن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أميناً حين نقلا إلينا هذا المعنى . ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ثم جاء الغربيون فنقدوه فى ضوء العرب ورفضوه والتمسوا منهج المسلمين الذى دفعهم إلى ذروة التكنولوجيا الآن .

إذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل عن هذا الاستشراق والاستعمار ، ذلك فإنهم على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) .

ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المغلقة ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب الذى أنشأوه ونماه الغرب .

وهكذا نجد أن هذا المنطق على يد الدكتور طه حسين وجماعة من أتباعه يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ولما كان الفكر الغربى الحديث هو ثمرة فكر اليونان فإن تبعية المسلمين والعرب له لا تعد شيئاً جديداً ولا غريباً لأنهم كانوا تابعين لليونان فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفاد اليونان . لم يكن أستاذ الجيل صادقاً إذن ، ولم يكن الدكتور طه حسين صادقاً فى هذا ، فإن المسلمين لم يقبلوا أرسطوا ، ولم يعتنقوا فكر اليونان وإنما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن .

ولقد تصدى لهذا كثيرون من أبرزهم الغزالى وابن تيمية .

وإذا كان الخلاف ما زال واسعاً حول ما كتبه الفارابى وابن سينا وهل هو فلسفة إسلامية أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين فإن رجلا

كريماً ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب هو الشيخ مصطفى عبد الرازق قد فصل فى هذا الأمر على نحو صحيح ومن خلال دراسات الجامعة نفسها وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الآداب ، حين قال : إن الفلسفة الإسلامية إنما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء وأن الإمام الشافعى واضع (أصول علم الفقه) هو أول الفلاسفة فى الإسلام وأن مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسطو فى اليونانية .

وبذلك نشأت مدرسة الأصالة فى مجال الفلسفة وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها محمود الخضيرى . ثم محمد عبد الهادى أبو ريدة ، وعلى سامى النشار .

ومنذ ذلك الوقت وقد صدر كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية) عام ١٩٤٧ وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل فقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فيها وهو ما يزال عسيراً فى مجال الأدب والنقد الأدبى فإن التبعية لمذاهب النقد الغربى الوافد ما تزال قوية .

ولقد أثبتت مدرسة الأصالة فى الفلسفة الإسلامية (عبد الرازق — أبو ريدة — النشار) أن المنطق الأرسططاليسى — منهج الحضارة والفكر اليونانى — لم يقبل فى المدارس العقلية ، وأن المنهج التجريبى الإسلامى هو الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة مع مباينته للحضارة اليونانية ، وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر روح الحضارة الإسلامية ، فالحضارة الإسلامية حضارة عملية تجريبية تتجه إلى تحقيق العدل الإنسانى فى ضوء نظرية حية ملموسة .

كذلك فقد كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحباً : (أن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الإسلامى شيئاً) .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية ومذهب أرسطو بالذات قد بدأت منذ أن قامت الترجمة وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الأول، ذلك أن الفكر الإسلامى قد تم تشكله قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ومن الربط بين الوحى والعقل ، ولذلك فإنه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها وخاصة أنها فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية وإعلاء العقل وعبادة الجسد فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف نصوص ، وإن كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم المشائين المسلمين قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة لإدخال الفلسفة اليونانية فى إطار الإسلام فإن المحاولة فشلت تماماً . وكانت وقفة الغزالى فى وجه الفلسفة الإلهية اليونانية وقفة صارمة ردت السيف إلى صدور أصحابه فقد كشف عن الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية وبين الفلسفة الإلهية ورفض الأخيرة لأنها معارضة مع التوحيد وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى أما فى الإلهيات فهو تخمينى .

وفى الفلسفة الإلهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليونانية وتختلف مع مفهوم الإسلام : ما يقولون به من قدم العالم وأن الله (جلا وعلا) لا يحيط علماً بالجزئيات وإنكارهم البعث .

وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم قديم كالدهرية والزنادقة . والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن ثم أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الإمام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا وجهة أخرى ، أشد خطورة حين عرفت صلاتهم بالدعوات الباطنية الهدامة وإخوان الصفا وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الإسلامية من قرامطة وغيرهم .

ثم جاء ابن تيمية فاستحالت غرباً فقد كشف فى كتابه (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الإسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة ، وقد استخرج منها هذا المنطق الجديد الذى سماه المنطق الإسلامى . وقال إن هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية اليونانية فى الحكم على الأشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت

فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلتها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما . ومما قاله : إن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه منزه من الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ويقول الدكتور النشار : كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بيكون إلى المنطقية الوضعية وقد عنى بنقد فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو وأشار إلى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عند (الفارابى وابن سينا) بين الإسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل .

ومما عرف فى هذا المجال ، هو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن إبراهيم الوزير الحسينى اليمنى الصنعانى المتوفى عام ٨٤٠ .

وبعد فإن مدرسة الأصالة كان لا بد أن تواجه المدرسة التى ما تزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية والتى تبلورت بعد فى مناقشة الدكتور النشار لآراء الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فى كتابه (فى الفلسفة الإسلامية) وقد بدأ الدكتور مدكور وكأنه متابع لمنهج لطفى السيد وطه حسين ويرى مدكور أن أرجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية(١) يقول الدكتور النشار : أن المنطق الأرسطاليسى قد نقل إلى العالم الإسلامى وأثر فقط فى المدرسة المشائية الإسلامية وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة عن نظام إسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقاً مختلفاً تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته ، الدكتور مدكور لا ينكر وجود هذا المنطق الإسلامى ولكنه يرى أنه كان لمنطق أرسطو أثره الكبير فى العالم الإسلامى . ولست أرى هذا على الإطلاق .

---

(١) أثبت عكس هذا الرأى : الدكتور النشار فى كتابه (مناهج البحث عند مفكرى الإسلام) .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلم يونان ولكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء المتأخرين ولم يوافق متكلمى الأشاعرة من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحرب .

ويرى الدكتور مدكور أن محاولة الفارابى نجحت وأضفت على تاريخ الفلسفة أضواء جديدة . ويقول الدكتور النشار أن هذه المحاولة كانت غريبة عن روح الإسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وأن فلسفة الإسلام إنما تنبثق من الإسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق ، وأن فلاسفة الإسلام المشائين قد ابتعدوا عن الإسلام روحاً ونصاً ، وعن المجتمع الإسلامى فكراً وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الإسلامى منذ عهد بعيد ، ولم تمت العقائد الكلامية حتى عهدنا هذا ، ولكن النشار ينصف مدكور فلا يجعله تابعاً لمدرسة لطفى السيد وطه حسين فيقول : ليس الدكتور بيومى من مدرسة الفلسفة اليونانية التى رأت فى فلسفة اليونان (غاية الغايات) وأن إليها يعود كل فكر ، ولم ير الدكتور مدكور على الإطلاق أن فكرنا المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها (مدرسة طه حسين) على مسرح تفكيرنا ، أنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلينا إذن أن نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء » ا. هـ.

* * *

الفصـل الخامس

تجديد التفسير الباطنى للقرآن

وقد جرت محاولات للقول فى تفسير عصرى بأن عذاب جهنم ليس على حقيقته المصورة فى نصوص القرآن إنما هو ضرب من الإخافة والترهيب . يقول الدكتور محمد سعاد جلال أن هذا كلام هدام للإسلام يجب أن تحذره الأمة حفاظاً على كيان دينها وأصل وجودها فى وجه هذه الاتهامات الشداد المتدفقة عليها من كل بلد اندفاع السيل ، والمراد بهذه الدعوة الخاطئة والتفسير الآثم هو إشاعة الإباحية والجريمة فى الناس بانتزاع فكرة العذاب الأخروى من نفوسهم الذى هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم . والدعوة للإباحية المطلقة والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجنسية أصبح هدفاً أيدلوجياً لبعض الفلسفات المعاصرة كالوجودية وغيرها ، فالقائلون بعدم كون العذاب الأخروى حقيقة إنما يعملون بدهائهم الخاص لتسرب هذه الفلسفات الهدامة للقضاء على روح الأمة وإفساد معنوياتها النفسية والعقائدية والأمة أشد ما تكون حاجة وهى تصارع فى معاركها المعتدين إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقته المناضلة وحماية نفسه ، وهذا يحدد الدور التخريبى الذى كانت تقوم به الشعوبية لهدم الإسلام من باطنه بالعمليات الفكرية المضادة لمفاهيمه وأسسه فى صدر الدولة العباسية ، أن البوذية والزرهمية تذهبان للقول بعدم وجود عذاب أخروى ، وبعض الأديان الكتابية الأخرى تذهب إلى أن عذاب الآخرة معنوى لا حسى على عكس ما يرى المسلمون . هذه محاولة لاحتواء الإسلام وامتصاص خلته من نفوس المسلمين وحياتهم بتغيير مفاهيمه المجمع عليها ، وتعطيل نصوصه من الدلالة على معانيها الموجودة بها وهم قد أبطلوا بمذهبهم هذا قضية الثواب والعقاب على الإطلاق وأبطلوا تبعاً لذلك مفعولية التكاليف الشرعية والتزام العمل بها ، فإذا بطلت حقيقة الخطاب بالثواب

والعقاب على فعل التكاليف وتركها فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية نفسها ، وهل الإسلام إلا هذه التكاليف من الأمر والنهى ولوازمها من الثواب والعقاب ؟ فإذا بطلت بطل الإسلام كله . أمابالنسبة للقرآن الكريم فبعد القطع بكونه تنزيلا من حكيم حميد يمتنع الاعتراض فى أحكامه وأخباره ويجب أن تتلقاه النفوس بالإذعان والقبول وإتمام التسليم له لأنه — لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — فهو حق وصدق وسلامة منطق وصحة أحكام . أما بالنسبة للمكلفين فإن ضمان العمل بالشريعة الذى هو أصل تربية الأمة على الإصلاح وارتقائها على مدارج الفلاح وإنما هو فى التحذير الحقيقى للمخاطبين بالشريعة من مخالفة الأمر والنهى بنصب الوعيد لهم على المخالفة بعذاب الجحيم .

ويصور الدكتور محمد سعاد جلال هذا العمل على أنه جزء من خطة احتواء الإسلام . فيقول إن الإسلام يواجه صراعاً تاريخياً حاداً وظالماً من أمم فى الأرض جعلت نفسها بغير الحق فى جانب عداوته والكيد له . تستطيع أن تتصور الإسلام حصناً متيناً شامخاً وفى داخله أقوام من الناس يعيشون بعقائد خاصة وتقاليد وفية وعادات . وهذا التراث الدينى — لا القومى — هو حبل الله المتين الذى يربط بين هذه الجماعات الإنسانية وصنع منها وحدة صلبة تؤكد لأصحابها وحدة العمل والبناء ، وتمنحهم طاقات النضال وقد تمكن الذين اختاروا لأنفسهم عداوة الإسلام بغياً بغير الحق بصبرهم وذكائهم وشدة إخلاصهم لمعتقداتهم ثم بتفريط المسلمين وانقسامهم على أمتهم أن يكسروا حصن الإسلام الظاهرى باستعمار أكثر بلاد المسلمين . المهم أنهم وضعوه بمكان من سلطانهم بحيث لا يفلت من قبضتهم إن أرادوا شيئاً ولكن كسر قشرة حصن الإسلام الظاهرة — أعنى استعمار أمته واحتلال أراضيه — لم يكن شأنه أن يؤدى للغاية الأصيلة منه وهى التخلص من سلطان الإسلام العالمى كفكر ودين وأيديولوجية ، وما دامت بطانة هذا الحصن من العقائد والأحكام باقية بين المسلمين فإن (ديناميكية) هذه العقائد والأحكام كفيلة إذا تفاعلت فى نفوس المسلمين أن تعيد لهم مرة ثانية بناء الطبقة الظاهرة المكسورة من خصمهم العنيد .

إن مكمن القوة الفاعلة ومادة البناء الذى يراد به التطاول والشموخ تستقر فى قلب الإسلام باعتباره عقيدة وفكراً ونظاماً اجتماعياً ، وما دام هذا الحصن المعنوى قائماً فى نفس الإنسان المسلم فهو الحصن الأكبر الذى لا يأتى عليه الدهر ، فالمقصود للتخلص من وجود الإسلام هو إدخال التغيير والتحريف على معانى نصوص الإسلام وإدخال التغيير والتحريف على مفاهيم العقائد الإسلامية والأحكام الإسلامية بحيث يقع ذلك كله موقعاً قريباً من الأديان الأخرى التى يريد لها أصحابها الانفراد من دونه بفكر جميع البشر واعتقادهم ، وبحيث يؤدى هذا القرب إلى نسيان المسلمين وتجاهلهم لحقائق دينهم الأصيلة الصحيحة وانتقالهم عنهم إلى هذه المفاهيم المتغيرة الجديدة التى تنقلهم بطبيعتها المنحرفة المتغيرة إلى الإيناس والتذوق لحقائق ومفاهيم الأديان الأخرى التى شدوا إليها من أول الطور بتزييف السهولة واليسر إلى تمام مراحل العملية المنظمة بإخراجهم من دينهم وإدخالهم فى الدين الجديد المراد إدخالهم فيه من أول مراحل العملية ، نعم إن هذه عملية طويلة وصعبة التناول والممارسة وتحتاج إلى زمان طويل ، ولكن تجارب التاريخ مع خصوم الإسلام فى الكيد له تعلمنا أنه لا يوجد فى تخطيطهم عن الإسلام شيء يقال عنه إنه صعب ، لقد بدأ خصوم الإسلام الأذكياء ذوو الكفاية المذهبية الرائعة المنظمة أروع تنظيم إلى بدء هذا المخطط منذ زمن قديم جنباً إلى جنب مع مخطط ضرب الإسلام عسكرياً من أول يوم من أول ظهوره ، وفى كل مكان وصل إليه فى الأرض ، لكن تركيزهم على ما قبل الحرب العالمية الأولى كان منصباً على ضرب الإسلام عسكرياً بالدرجة الأولى ، حتى إذا أسقطوا دولة الخلافة الإسلامية ووضعوا أيديهم على البلاد التى تعتبر قلب الإسلام وهى مصر وفلسطين ، انتقل تركيزهم بالدرجة الأولى إلى عملية الاحتواء الفكرى هذه يسخرون فيها أناساً من المسلمين أنفسهم إما بطريق الاستهواء والإقناع الفكرى لمن ضعف اعتقادهم وتثقيفهم الإسلامى . وإما بالإغراء بالمنافع العاجلة واستئجار ضمائرهم وأقلامهم بالثمن الجزيل واستغلال حاجة بعض الناشئين الفقراء لوضع نفوسهم فى قالب التربية الخاصة التى تؤهلهم إذا كبروا وأصابوا مراكز مرموقة فى الدولة ممكنين لهم من الفعل والخدمة أن يقوموا لمربيهم هؤلاء فى مضادة الإسلام بهذا الدور الخطير .

الفصل السادس

صاحب الزنج والحلاج

حاولت حركة المؤامرة على الإسلام ابتعاث مفاهيم زائفة فى محاولة لإحياء الشعوبية والفكر الباطنى بدعوى أن حركة الزنج والقرامطة هى من حركات العدل الاجتماعى .

وكان صاحب الزنج والحلاج فى مقدمة الشخصيات التى ركزت عليها ، وقد استطاعت حركة اليقظة الإسلامية والأصالة أن ترد هذه المفاهيم الزائفة وتكشف وجه الحق فى دعوى أن الحلاج كان مصلحاً اجتماعياً أو داعية إلى العدل الاجتماعى أو أنه قتل فى سبيل تحرير رقيق الأرض . ولقد عنى لويس ماسنيون بأخبار الحلاج أربعين سنة يبحث عنها ويملها ويعيد طبعها ويضع سمومها بين أيدى المثقفين فى هذا العصر ، حريصاً أشد الحرص على أن ينفى الصلة بينه وبين القرامطة . وقد واجه الدكتور محمود قاسم هذه القضية وكشف وجه الحق فيها قال : بدا ماسنيون شديد الحرص على نفى الصلة بين الحلاج والقرامطة وظل يؤكد أن هذا المتصوف لم يكن داعية سياسياً بل انتهى به الحب الإلهى إلى التضحية بنفسه على مذبح الحب ، كذلك يؤكد لنا دون ملل أن الحلاج كان متصوفاً سنياً أراد تعميق الروح الدينية فى بيئة جفت عاطفتها الروحية وتمسكت بقشور الدين دون لبه . وقد ظن ماسنيون وبعض تلاميذه أن الحلاج الذى قال بحلول الله فيه يعد جسراً بين المسيحية والإسلام السنى ومع ذلك فإن هذا الحرص الشديد على نفى الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤذن على عكس ذلك بوجود هذه الصلة بينه وبينهم . وقد اعترف ماسنيون فى موطن ما من كتابه عن الحلاج بأن موقف هذا المتصوف من فريضة الحج كان سبباً فى إدانته ومصرعه ، وأنه جرد مكة من أفضليتها وقداستها مما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منه ثم إرساله إلى هجر حيث

بقى هناك اثنين وعشرين سنة فلم يعد إلى موضعه إلا بعد أن استقرت الدولة الفاطمية وبعد أن ثبت الحكم الفارسى فى بغداد بدلا من الحكم العربى .

عاصر الحلاج حركتين شعوبيتين هامتين هما : ثورة الزنج ، وثورة القرامطة وربما تكشفت لنا خيوط تربط إحدى هاتين الثورتين بالأخرى وذلك أمر يتسق وطبيعة الأحداث التاريخية والاجتماعية . ويمكن القول بدءاً : بأن القرن الثالث الهجرى شهد عدة حركات سياسية ترمى إلى تقويض الدولة العباسية والتمهيد لدولة علوية ، بعد أن فشلت جهود القرن الثانى فى نقل الخلافة من الأمويين إلى آل البيت .

وكان من الطبيعى أن تصطبغ هذه الحركات بصبغة دينية جلباً للأنصار من الحانقين على الدولة العباسية وربما كانت هناك دوافع اجتماعية وسياسية وعنصرية توجب الحنق على أصحاب هذه الدولة ، ولكن سارت الثورات السياسية جنباً إلى جنب مع ظاهرة دينية إذ كان ادعاء النبوة أو الربوبية أمراً مألوفاً فى تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية التى بدأت تتحلل لكى تمهد لظهور عصر الدويلات الصغيرة منذ أواخر القرن الثالث بصفة خاصة .

إذن لم يكن الحسين بن منصور الحلاج أول من أدعى الألوهية ولا آخرهم فقد سبقه كثيرون كما تبعه آخرون فيما بعد ، وبعضهم كان من تلاميذه ونعنى به أبا عمر الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى .

ساعد ضعف السلطة المركزية فى بغداد على تتابع الفتن فيها ثم على نجاح ثورة الزنج التى بدأت فى ٢٥٥ واستمرت نحواً من خمسة عشر عاماً . وقد بدأت هذه الحركة تحت لافتة دينية إذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة إلى آل البيت وهو محمد بن محمد على عبد الرحيم ولد فى الطالقان بخراسان ، وهى المنطقة التى كان يجوب فيها دعاة الإسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح والتى جال فيها الحلاج أيضاً — بدأت الحركة بمجىء صاحب الزنج من خراسان وقد ادعى هذا الرجل أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى من أبناء الحسين ، ونجح فى كسب ثقة الزنج فاجتمعوا حوله ثم اتجه إلى البحرين التى ستكون من أهم المراكز القرمطية فيما بعد فاتبعه جماعة من أهلها وغيرها ، وادعى لنفسه النبوة وزعم أن الوحى ينزل عليه . ثم انتقل إلى البصرة ومنها

إلى بغداد فزعم أنه ظهر له آيات وتلك هي الكرامة التي نسبها الحلاج إلى نفسه أو نسبها إليه أصحابه فيما بعد . وقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد ، ثم انتقل هو وأتباعه إلى البصرة في سنة ٢٢٥ ه . أما صاحب الزنج فقد اختار البصرة مركزاً له بعد أن عزل واليها ، ثم أخذ يستدرج العبيد وكون منهم جماعات نصب على كل جماعة فيها رئيساً من بينهم ، وكان يعدهم الجنة فاجتمع لديه عدد كبير من غلمان أهل البصرة الذين أقبلوا عليه خلاصاً من الرق والتعب ، ولما قوى أمره سار إلى القادسية ونهبها هو وأصحابه ثم عاد بهم وهاجم البصرة ووضع في أهلها السيف بعد أن هزم جيشها فقتل من أهل البصرة خلقاً كثيراً ، وقد رسم المسعودي صوراً بشعة لكارثة البصرة فيقول : واختفى كثير من الناس في الدور والآبار فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها والفيران والسنانير فافتنوها فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه . وهكذا لم تلبث حركة الزنج أن كشفت عن وجهها الحقيقي فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين والقرشيين في أسواق الرقيق ، وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الأسرى فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها بدون قتال كما فعل أهل عبادان ، وقد دخل الأهواز وخربها ثم أحرقها ولم يكن يحترم وعداً أو عهداً مع أعدائه ، وذلك أنه لما دخل البصرة أقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت ، ولما طلب أهل البصرة الأمان أمنهم فلما تجمعوا في دار حددت لهم غدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم وأحرق البصرة في عدة مواضع . وهذا هو ما فعلوه بمدينة واسط عندما دخلوا إليها سنة ٢٦٤ ه ، هزمهم أبو العباس الموفق الهزيمة الأولى سنة ٢٦٧ ه .

ثم كتب إلى صاحب الزنج كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة ولكن الثائر لم يستجب فحاصر الموفق مدينته التي سماها (المختارة) وضيق عليها الحصار وأجاد التأثير النفسي في أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون من المدينة المحاصرة ، ومن بينهم بعض القواد وكانوا يطلبون الأمان من الموفق فأمنهم وظل يحاصر المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها وأخيراً اقتحم الموفق المدينة المحاصرة وأحرق قصورها وأنقذ النساء والأطفال واستطاع القضاء على ثورة الزنج سنة ٢٧٠ ه .

ثم ما لبث أن نشبت ثورة جديدة بعد وفاة الموفق سنة ٢٧٨ ﻫ نعنى بها ثورة القرامطة التى امتدت قرناً من الزمان وقد اتهم الحلاج بأنه من كبار دعاتها والمروجين لها تحت ستار من التصوف وادعاء الألوهية إلى جانب المناداة بإبطال فرائض الإسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة وتوحيد أيضاً. وقد حاول ماسينيون جاهداً أن ينفى عنه التهمة السياسية وإن أثر بأن الحلاج نادى بإسقاط التكاليف وبأن الولى عنده أعلى مرتبة من النبى وله أن يفسخ الشريعة وأن يقرر عبارات جديدة ، وعلى الرغم من الفاصل الزمنى بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فإننا نجد أنفسنا فى الواقع أمام ثورة متصلة أجيد تخطيطها والإعداد لها بصورة متقاربة.

ومن المؤكد أنه كانت للقرامطة (أيديولوجية) دينية لا تتسق مع ما يعرفه المسلمون عن دينهم سنة كانوا أم شيعة فقد ادعى القرمطى الأول أنه داعية المسيح وأنه عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو جبريل . وينم هذا الخلط العجيب عن الطابع التلفيقى للماسونية والقرمطية والباطنية بصفة عامة.

ويخبرنا ابن الأثير أن قرمطاً اتصل بصاحب ثورة الزنج قبل مقتله وأخبره أن معه مائة ألف ضارب بالسيف ، ولكن الرجلان لم يتفقا لبعض الفروق المذهبية ، وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين إلى حد كبير من سبى النساء والجوارى وقتل الأسرى والسلب والنهب .

كان أسلوب القرامطة امتداداً لأسلوب صاحب الزنج .

ويبدو أن الحلاج الذى كان يجوب خراسان منذ سنة ٢٨٥ ﻫ لفترة امتدت نحواً من خمس سنوات كان شديد اللهفة فى ظهور المهدى المنتظر يقسم بسنة ٢٩٠ ﻫ وهى السنة التى كان يقسم بها بعض دعاة القرامطة فى خراسان أيضاً ، وهذه السنة هى التى بلغت فيها ثورة القرامطة أوجهاً من العنف وقبض على الحلاج سنة ٣٠١ ﻫ . ويقول ابن الأثير : إنه كان مشعبذاً فى قول بعضهم ومعه صاحب له فقيل : إنه يدعى الربوبية ، وفيما بعد قال الإمام الجوينى إمام الحرمين : إن الحلاج كان من دعاة القرامطة وأنه اتفق هو والجبائى وابن المقفع على إفساد عقائد الناس . وتفرقوا فى البلاد فكان

الجبائى فى هجر والبحرين وابن المقفع ببلاد الترك ودخل الحلاج العراق وإن كان الحلاج لم يجتمع فى عصرهم ، غير أنه لم يكن لمقتل أبى سعيد الجبائى ولأربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد أحد خدمه من الصقالبة فى سنة ٣٠١ ه تأثير كبير فى حركة القرامطة التى مدت سلطانها على هجر والإحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين .

وأخذ القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج بعد خروجهم من مكة .

والذى يعنينا هنا أن نفسر عنف القرامطة فى محاربة الحجاج والفتك بهم ، وسنرى كيف اضطر ماسينيون رغم محاولاته العديدة فى إنكار الصلة بين الحلاج والقرامطة أن يعترف بأن الحلاج كان يريد إبطال فريضة الحج ويبدو أن محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفاً أساسياً من أهداف الدعوة الفاطمية . إن ظاهرتى إبطال فريضة الحج وظاهرة ادعاء الألوهية هما الظاهرتان الغالبتان ، وقد جمع الحلاج بين هذين الأمرين ثم اختلف الناس فى تفسير مقتله أكان بسبب محاولة إسقاط فريضة الحج أم كان بسبب ادعائه للألوهية ، لكن يبدو أنه كان يريد الأمرين معاً . فإنه يصرح بأنه مدين بمذهب الحلول ، وهو عندما يجمع بين الأمرين لا يفعل سوى أن يسير فى الاتجاه العام لكل من حركة القرامطة والدعوة الفاطمية ، وأنه استعان فى سيرته هذه بالسحر والتصوف فى الوقت نفسه .

* * *

ويتحدث الدكتور بديع شريف عن الحلاج فيقول : كتب عنه ماسينيون كتاباً كبيراً عالج فيه ناحية التصوف فقط ولم يتعرض للناحية السياسية كأن الحلاج لم تكن له صلة بالقرامطة ، وكأن الحلاج لم يكن له شأن فى أمور السياسة وقد عده المعرى فى رسالة الغفران من الزنادقة ، وقال عنه : إنه مشعوذ . وقال ابن النديم : إنه سياسى يروم قلب الدول ، وقال البيرونى عنه : إنه كان رجلا مشعبذاً ومتصنعاً ومازجاً نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإلاه وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه العبارات من الهوهو الأزلى الأولى النور الساطع اللامع والأصل الأصلى وحجة الحجج ورب الأرباب ومنشىء السحاب ومشكاة النور ورب الطور المتصور فى كل صورة إلى عبده فلان .

وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه بعبارة : سبحانك يا ذات الذات إلخ ، وقد فتن الناس به وارتبكت أمور الدولة فقبض عليه وحوكم علانية أمام جمع غفير وسئل فقهاء الشرع فى أمره فأفتوا بالإجماع بقتله ، وكان تمكن للمقتدر أن يتركه حراً يعبث بالصوفية ويثرثر بهذه الألفاظ التى لا تنفثها عادة إلا أفواه المعتوهين والمأفونين لولا أنه اكتشف سراً خطيراً وبان له أن الجبة التى قال عنها الحلاج كلمته المشهورة (ما فى الجبة إلا الله) كانت ستاراً يغطى اتفاقاً سرياً بين الحلاج وبين رئيس القرامطة لقلب الدولة وتقويض أركان الإسلام ، وقضى المنصور على ابن المقفع وقتل المهدى بشار بن برد وفتك الرشيد بالبرامكة بعد ما كشف سر ما يبطنون له وقضى المعتصم على الأفشين وأفتى علماء المقتدر بقتل الحلاج فأهلكته .

فانظر كيف يجدد الشعوبيون ودعاة التغريب لنا ذلك كله اليوم تحت ستار الأدب .

* * *

الفصل السابع

الشعوبيون

(ابن المقفع — أبو عبيدة — علان — أبو نواس — أبو العتاهية)

١ — وقد كشف الدكتور بديع شريف عن جذور المؤامرة وحاول وضع النقط على كثير من الحروف وخاصة ما أورده المستشرقون . يقول : إن المستشرق الإيطالى جويدى نشر مخطوطاً لمؤلفه إبراهيم بن القاسم واسم الكتاب (الرد على اللعين : عبد الله بن المقفع) كشف به القناع عن زندقة ابن المقفع ، اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد بدأ عبد الله قرآنه بطراز جديد من البسملة باسم النور الرحمن الرحيم ، ثم شرع بمدح النور وأنه منبع الخير والمعرفة ويهاجم الإسلام من حيث أنه دين والقرآن من حيث أنه منزل على محمد وخاصة سورة الجن وإحراقهم بالشهب ، ثم يستهزىء بالله حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ، ويظهر جور الله وظلمه ، ومن ذلك قتل أنبيائه ورسله وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة ، وأنه يسلط الأمراض ، والمصائب على الناس ويشعر بالغضب والحزن والألم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الإسلام ثم يتهكم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

والقاسم لم يورد رسالة ابن المقفع كاملة بل اقتطف منها جملا معدودة ولكنها تعطينا صورة للجدل الذى كان يثار فى ذلك الزمن والكفاح المستعر الملحدين والمسلمين ، وبتعبير أجلى للصراع بين الميدانين وأسس الحضارتين ، كان عمل ابن المقفع عملا فردياً ولكنه عمل جبار فى الصراع بين هاتين الحضارتين ، ومع أن الدور الذى لعبه ابن المقفع له خطره ولكن أقل شأناً من الدور الذى لعبته أسرة البرامكة فى هذا الصراع .

٢ — وقد طرد البرامكة الأصمعى من بلاط الخليفة وأحلوا محله —

أبو عبيدة . وأبو عبيدة مثقف جمع إلى الثقافة العربية : الثقافة اليهودية والمجوسية فقد كان أبوه يدين بالتوراة وجده يعتقد بالمجوسية ، وكان شعوبياً متعصباً ، ألف كتب المثالث والطعن على العرب ، منها كتاب المثالب في قبيلة باهلة ، وآخر في المثالب على وجه العموم ، يقول جولد سيهر : (إن أبا عبيدة مولع بوضع الأخبار ووضع الأحاديث التي تظهر خلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجمها وشتائمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء) .

وكتاب المثالب يذكر فيه أبو عبيدة أنساب العرب ويرميهم بما ليس من الكياسة ذكره ، ولا يحسن وضعه ، وكان إذا رأى أمراً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال : إن العرب خلدوا بها الفرس ، وقد بالغ حتى جعل كثيراً من أخلاق بني عدنان وقحطان وحياتهم راجعة إلى بني ساسان ، يقول جولد زيهر : وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطف كل زهرة ناضرة في أكليل الفخر العربي .

وقد انتشرت روايات أبو عبيدة في كتاب التاريخ وأصبح معتمداً لكثير من المؤرخين والمتفقهين في اللغة ، فكان الطبري يروى عنه أخبار القبائل العربية ونجد أمثلة كثيرة واضحة من اختراعه على العرب في مثالبهم في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري .

٣ — وعلان أو غيلان كان شعوبياً عارفاً بأنساب العرب منعطفاً إلى البرامكة نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة ، وألف كتاب المثالب الذي هتك به العرب وأظهر مثالبها ، يقول الآلوسي : كان غيلان زنديقاً ثنوياً فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن الإسلام بدأ فيه بمثالب قريش ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان .

أما أبان بن عبد الحميد اللاحقي فقد كان موضع ثقة البرامكة ترجم لهم كتاب مزدك ونظم لهم كليلة ودمنة شعراً فوهب له جعفر البرمكي مائة ألف درهم .

أما أبو نواس وأبو العتاهية فقد هاجما السنة وبثا المبادئ الهدامة ومهد لهم الطريق بشار بن برد ، وقد نجح البرامكة في تهيئة المكان الأول لأبي نواس في مجلس الرشيد ، وهو شاعر لبق حاذق يخلط الجدل بالهزل ويبث مبادئه

فى ثنايا هزله فكان يعد من كبار الثنوية زنديقاً يهزأ بالدين ويراه قيداً من قيود الحياة ، وأن الآخرة والبعث خيال ، ويثير الشك فى العقيدة ويطلب الابتعاد عن الدين كما هى وسيلة المانوية فى محاربة الأديان ، والذين لا يعرفونه يقولون : إن أبا نواس رجل شغل نفسه بالخمر والغزل الخارج على المألوف ولكنهم لا يدرون أنه مدفوع بتعاليم البرامكة لنشر هذا الطراز من الشعر بين الناس فكان يعتمد على البرامكة والبرامكة يعتمدون عليه .

يقول المستشرق كريمر ناشر ديوان أبى نواس : إن أبا نواس كان يهزأ بالعقيدة المحمدية علانية دون وجل أو خجل . وكان ينشر مبادئ الضلال والزندقة ولا يحجم عن الكلام عن كل ما يعتقد به . كان يؤثر فى الرشيد تأثيراً مطلقاً فكلما غضب الرشيد على البرامكة كسر أبو نواس سورة غضبه فى بيتين من الشعر . وكان كلما اتهم بالزندقة شفعوا له عند الرشيد ، ولما قتل البرامكة حبسه الأمين فى حبس الزنادقة .

أما أبو العتاهية فقد لاحظ المستشرق فايدا أثر الثنوية فى أرجوزته المشهورة ، وقد وجدت أيضاً فى ثنايا شعره . وقد أخذ ناحية من تعاليم المانوية هى ناحية الزهد فى الحياة مع أن الزهد ليس من طبيعة أبى العتاهية . لم يتكلم إلا عن الموت ولم يذكر البعث .

ترى هذا الشاعر يتحدث عن الزهد فى الحياة والانضواء بين القبور وخفاء الطموح والاستكانة إلى الذلة والمسكنة والاستسلام لانقراض البشرية التى كانت المانوية تدعو إليه . وكان ما قام به البرامكة وأتباعهم فى عنفوان الحضارة الجديدة والدين الجديد مثل القنبلة انفجرت فى البناء الشامخ فصدعت جوانبه وتفتحت منها الثغرات مما نشأ بعد ذلك من البدع والضلالات التى كانت تتمثل تارة بأشخاص وتظهر تارة على يد جماعات ، فكانت الخرمية التى حاصل مبدئها رفع التكليف وتسليط الناس على اتباع الشهوات ، والقرامطة الذين عاثوا فى الأرض فساداً بتعاليمهم الباطنية وكانوا يستندون فى هذه التعاليم على تأويل القرآن تأويلا يتفق مع آرائهم وكانوا يرمون فى أعمالهم إلى انتقال دين الإسلام إلى عقيدة المجوسية .

* * *

الفصل الثامن

الوحى والنبوة

تتردد هذه الأيام كتابات جديدة عن الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة العربية بأقلام كانت فى الفترة الماضية من دعاة الوجودية أو المادية أو الوضعية المنطقية ، وليس هذا مستغرباً فإن عدداً من كتاب العصر الحديث أمثال الدكتور هيكل والعقاد وزكى مبارك ومنصور فهمى وإسماعيل مظهر قد غيروا جلدهم فى فترة الأربعينات واتخذوا مواقف جديدة مغايرة لمواقفهم فى الثلاثينات ، وقد جرى تحليل هذا التحول وكشفت الأيام خلفياته وأهدافه وحقائقه . بل إن هناك من تحول من الشعر الجاهلى إلى هامش السيرة .

فليس غريباً أن نجد عدداً من الذين عرفوا منذ مطالع حياتهم بالتبعية للفكر الغربى وقد تجددت أهدافهم أو أجروا محاولات جديدة إلى كسب جولات جديدة فى محيط القراء والفكر .

فليس غريباً أن تهتدى النفس البشرية إلى طريق وطريق ، وأن تجد أنها كانت قد غفلت عن نهج ، أو عجزت عن ارتياد أفق ، ثم أتيحت لها الفرصه لارتياده ، أو جاءت مناسبة ما لزيارة بلد عربى أو إسلامى تحت أى ظرف ما ، ثم كان لهذا الجو النفسى والاجتماعى أثره الفكرى ، وقديماً غير زكى مبارك آراءه بزيارة الجزائر والمغرب ، وغير محمود عزمى آراءه بزيارة فلسطين ، وغير هيكل باشا آراءه بزيارة دمشق ، وتحول دعاة المصرية والفرعونية والإقليمية إلى دعاة العروبة أو ما كانوا يسمونه (الأقطار الشرقية الشقيقة) ، فليس عجيباً إذن أن يزور زائر مكة المكرمة أو ينتدب جامعى فى بلد عربى له طابعه الإسلامى ثم يكون من وراء ذلك رؤية جديدة للتراث أو فكرة جديدة عن التوحيد .

ولكن الملاحظ دائماً أن العقل الذى تكون من خلال ثقافة الغرب أولا يحتاج إلى جهد كبير حتى يكون قادراً على استيعاب الفكر الإسلامى

أو فهم الإسلام فهماً صحيحاً محرراً من آثار المفهوم الغربي للعقائد ، وقد وجهت النقدات إلى كتابات الدكتور هيكل في حياة محمد وكتابات العقاد في العبقريات وكتابات طه حسين عن هامش السيرة وعثمان وعلى . حول منهج الكتابة ومنطلقها ، وقد اعتمدت كتاباتهم جميعاً على مناهج الغرب في تحليل الشخصيات وفي مفهوم البطولة بما يختلف . بل بما يتعارض مع مفهوم الإسلام .

وكذلك نجد هذا المنهج وقد أخذ طريقه إلى كتابات الأجيال الجديدة ، حيث يوصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ومصلح ورسول الحرية وداعية الثورة وإلى غير ذلك من صفات تختلف تماماً مع حقيقة « الرسول النبي » محمد بن عبد الله نبي الإسلام المؤيد بالوحي .

كذلك رأينا هؤلاء الكتاب الذين يقتحمون مجال الدراسات الإسلامية وهم يلتمسون في الفكر الإسلامي مفهوماً مختلفاً عن مفهوم المسلمين أنفسهم ، حيث يقف بعضهم عند التفكير الصوفي أو تفكير المعتزلة أو فكر الباطنية ، ثم يتمثل للناس أنه إنما يعبر عن مفهوم الإسلام .

والواقع أن هناك قضية أساسية في هذا المجال هي أن الفكر الإسلامي نما وتطور من خلال اقتحامه آفاقاً مختلفة منها الاعتزال والتصوف والفلسفة ولكنه انتهى إلى أن شكل نفسه تشكيلا واضحاً استقلالياً جامعاً استقطب عصارة ما في هذه المذاهب من قيم واستوعبها في إطار مفهومه الأصيل القائم على التوحيد والإيمان بالله .

فإذا جاء واحد من هؤلاء الباحثين فقصر نفسه على قطاع معين من هذا الفكر أو على مرحلة معينة من تطور هذا الفكر قبل اكتماله في صورته النهائية بوصفه (السنة الجامعة) فإنه يخطىء خطأ كبيراً ، حينما يرى أنه على الطريق الصحيح ، والواقع أن الفكر الإسلامي قد صفى منذ وقت طويل خلافات الأحزاب السياسية التي تمثلت وراء المذاهب الفكرية وامتص عصارتها وحررها من أطرها المرتبطة بعصر معين أو جيل معين واستصفاها فكراً إسلامياً خالصاً يستوعب قضايا المجتمعات والعصور دون أن يكون موضع

احتواء الفلسفات اليونانية والفارسية أو الهندية التي وفدت مذاهبها إلى أفق التصوف والكلام والعقائد .

ومن هنا فإن الداخلين الجدد في مجال الفكر الإسلامي بدعوى الاعتزال والقول بأنه يمثل الفكر الإسلامي ضالون ومضللون ، فالاعتزال وفكرة مرحلة سياسية وفكرية قد انقضت وانطوت وجاء بعد جزرها مد المفهوم الإسلامي ، كما كشف عنه الأشعري ، ثم ابن تيمية وهكذا ، وليس الإسلام إذن دعوة عقلانية كما خيل لمجدد الفكر العربي ، كما أنه ليس مفهوماً باطنياً أو صوفياً كما خيل لمجدد تفسير القرآن ، وإنما الإسلام فكراً ربانياً في طابعه إنسانياً في منطلقه يجمع بين العقل والقلب ويحرر نفسه بالتوحيد من كل سلطان غير سلطان الواحد الأحد ، ولقد ينخدع بعض القراء حينما يرون باحثاً اشتهر بالمادية أو بالوضعية قد أخذ يرد موارد الإسلام ولكنهم يجب أن يحذروا كل الحذر من أى فكر متلبس بالإسلام دون أن يكون على شروطه وأصوله ، وبيننا وبينهم : النبوة والوحى .

ذلك أن الجولة الجديدة للاستشراق إنما تتميز بطابعها الصهيونى التلمودى ، وهو طابع يختلف من الاستشراق الغربى سواء منه الكنسى الطابع أو الاستعمارى الاتجاه .

هذا الاستشراق يتكلم كثيراً عن التوحيد وعن دور الإنسان ومهمته وعن الدور الذى مضى وانقضى حين قام الإسلام برسالته فى مرحلة سابقة فأدى للبشرية خدمة كبرى — كأنما كان الإسلام مرحلة انقضت ، وكأنما ليس هو الرسالة الخالدة الباقية إلى يوم الدين .

وأبرز مظاهر هذا الطابع الحديث من الاستشراق : التشكيك فى الوحى والنبوة ومحاولة تصوير الأنبياء والرسل على أنهم أبطال ومصلحون استوعبوا فكر أمتهم ، واستطاعوا صياغة التراث القديم فى صور جديدة إلى غير هذا من دعوة مبطلة مضللة .

ولا ريب أن أصحاب مثل هذه الدعوى ممن يجب أن يوضع فكرهم فى دائرة التغريب والتبشير والغزو الثقافى ويعاملون معاملة المبشرين والمستشرقين

وأخطر ما يقول هؤلاء أن القرآن انطباع فى نفس محمد نشأ عن تأثير

البيئة التى عاش فيها ، أو أن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحيا إلهيا اعتماداً على القول بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه .

ولا ريب أن هدف إثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن . فإنه إن كان من كلام محمد كان من عمل البشر ، وبذلك فقد معناه الإسمى وتفرق المسلمون وانتهى أمر الاجتماع عليه .

ونحن نعرف أن هناك فرقاً واضحاً بين كلام محمد وكلام القرآن فى النسق والنظم ، ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب وتلك حجة تدحض قول القائلين بأنه عرف ما فى الكتب السابقة . ولقد كان علمه بشئون قومه لا يزيد على علم غيره ، فمن الذى أطلعه على قصص الأولين .

ولا ريب أن الوحى ليس ظاهرة نفسية داخلية نبعت من كيانه صلى الله عليه وسلم ، وإنما هى حقيقة مستقلة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحى .

ولما كان الوحى هو حجر الرحى فى النبوة وفى الدين كله فقد ركز عليه دعاة التغريب وأثاروا حوله الشبهات . وزعموا أنه من الإلهام الخفى ، وزعم آخرون أنه كان إشراقاً روحياً ووصفه آخرون بأنه نوع من الصرع .

ونحن المسلمين نؤمن بالوحى إيماناً كاملا كجزء من إيماننا بالغيب وبالنبوة ، ونرى أن معارضيه أو المشككين فيه ليسوا من جماعة المسلمين ، وأن زيفهم مهماً وضع فى قوالب براقة فإنه لا يخدع النفس المسلمة .

وقضية الوحى والنبوة هى كبرى الركائز فى بناء المجتمعات والحضارات والتماس منهج القرآن وشريعة الإسلام ، والتشكيك فيهما محاولة لقطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن الذى هو الأثر الوحيد الباقى على الأرض من رسالة السماء ، وهو الهدى الممتد بالضوء إلى النفس البشرية والأمم والمجتمعات إلى يوم الدين .

ولا ريب أن محاولة النظريات المادية المستحدثة فى معارضة الوحى والنبوة والغيب كله هى معارضة حققت أسباب فشلها فى واقع الأمم والمجتمعات التى اعتنقت هذه النظريات .

فقد تأكد بالبحث أن العقل غير كاف وحده فى فهم كل شىء وأن العلم قد عجز عن أن يقدم إجابات عن الأشياء ، وإنما يقف عند حدود (ظواهر الأشياء) وأن المجتمعات التى صنعت شرائعها وقوانينها وأيدلوجياتها قد فشلت وعجزت عن أن تحقق المجتمع الصحيح أو أن ترد للنفس الإنسانية سكينتها وطمأنينتها ، ومن هنا كانت البشرية دوماً فى حاجة إلى نبى وإلى وحى . هذا النبى وهذا الوحى لا يعارضان العقل بل يلتقيان معه فى طريق الفطرة الإنسانية .

ومن ثم يؤكد العقل دليل الوحى . فالنبى يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد والآخرة والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التى تدرك بالعقل ، حسنها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحى للبشرية .

ولقد ثبت زيف دعوى العلوم الاجتماعية والأخلاقية والنفسية فى دعوتها الباطلة بوصاية الأديان على الإنسان بعد أن بلغت البشرية رشدها . ذلك أن البشرية لم تبلغ رشدها بعد ، وهى تقف على أهبة الصراع الذرى وهوله يهزها من الأعماق ، فليس هناك سبيل إزاء التقدم المادى إلا الدين والوحى هادياً ومرشداً ، ومن الحق أن يقال إن البشرية على الرغم من هذا الزمن الطويل الذى يقدر بملايين السنين ما زالت عاجزة — على حد تعبير الأستاذ محمد المجزوب — عن حماية نفسها من المطامع والحروب والمذابح ولن يحميها من ذلك إلا الوحى والنبوة .

وجملة القول أن بيننا وبين الداخلين إلى ساحة الإسلام : الوحى والنبوة .

* * *

الفصل التاسع

المؤامرة اليهودية للقضاء على أصالة الإسلام

أشار العقد الفريد إلى قول الشعبي لمالك بن معاوية حين قال :

(أحذرك الأهواء المضلة وشرها الرافضة فإنهم يهود هذه الأمة يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية . لم يدخلوا الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم . وقالت الرافضة : لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وكذلك قالت اليهود من قبل :

ويقول صاحب العقد الفريد : كان لليهود أثر غير قليل فى بعض المذاهب الإسلامية ولا ريب أن ملامح المؤامرة اليهودية واضحة فى تاريخ الإسلام وضوحاً تاماً .

- أبو لؤلؤة الفارسى ومقتل عمر بن الخطاب (المؤامرة اليهودية المجوسية) .
- عبد الله بن سبأ وفكرة الحق الإلهى فى الدولة وإبطال الشورى.
- حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية .
- التأويل فى نصوص الكتاب والسنة والقول بالظواهر والبواطن .
- صناعة البدع والمحدثات وإشاعة الخرافات الغامضة .
- فلسفة الإشراق ومسائل الاتحاد والحلول .

والمعروف أن مختلف الفرق الباطنية والمضلة تقوم على التأويل : والتأويل (غير التفسير) يقصد به باطن المعنى أو رموزه وإشاراته أو الجوهر الخفى وراء الكلمة التى لا تدل عليه .

كما تقوم هذه الفرق على إسقاط التكليف وحط أعباء الشرع عن المتعبدين وتسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات وقضاء الوطر فى غير المباحات وفى المحرمات .

إن هدف المؤامرة اليهودية منذ قديم هو هدم الإسلام من الباطن :

هدمه فكرياً وعقائدياً ولذلك فقد أشاعت بين جماهير المسلمين مجموعة من الأفكار التى تنطوى على الخرافة والتخذيل النفسى وتقدم تفسيرات مضللة عن الإسلام وكانت من أكبر الأسباب التى حولت المسلمين عن تكوينهم النفسى ونظامهم الاجتماعى .

وقد جمعت هذه الأيدلوجية المزدوجة بين طرفين بالفصل بينهما من حيث يجمع بينهما الإسلام : طرف عقلانى صرف يغلو فى مفهوم العقل والحس .

وطرف حدسى خالص يغلو فى مفهوم الروح والوجدان .

ولقد جرى بعض ذوى الأهواء من المسلمين وراء هذا المفهوم الزائف لأنه يرضى الرغبات المذلة ويحرر النفس من الضوابط والقيود . ويحول دون إقامة الحدود — حدود الله التى لا يجوز أن يعتدى عليها .

وخلفوا وراءهم مفهوم الإسلام الجامع المتكامل :

وإذا نظرنا اليوم وجدنا الصورة تتكرر حيث يؤمن المسلمون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فهم إما عقلانيون أو حدسيون . وهم قد يحققون فى حياتهم مفهوم العبادة ولكنهم يغضون الطرف — جهلا أو قصداً — عن مفهوم ارتباط الإسلام بالمجتمع وتطبيق الشريعة .

ونرى فى كثير من الكتابات المعاصرة . هذا الطابع الباطنى المسرف فى الاعتماد على كتب معينة سواء من كتب المعتزلة أو الباطنية أو الصوفية والفلاسفة ظناً منهم أن أى نوع من هذه الأنواع هو مفهوم الإسلام . أو أنه يمكن أن يصبحوا به وقد وقعوا على مفهوم الإسلام الصحيح ، وعيب هؤلاء أنهم لا ينظرون نظرة كلية إلى حركة التطور التى صاحبت الفكر الإسلامى فى القرون الأربعة الأولى من حيث ارتباطه بالفرق والأحزاب السياسية ومن حيث طبيعة شكله بعد أن اتصل بالفلسفات المختلفة .

ولا ريب أن الاعتزال والكلام والتشيع والتصوف كلها مراحل فى فكر واحد وحلقات متصلة استعلت بنفسها ثم غلب عليها مفهوم الإسلام الجامع الذى شكل جامعاً لخير ما تناولته هذه الفرق والدعوات بعد أن صفاها من أسباب الصراع والخلاف السياسى والفردى واستوعب عصارتها فى أعماقه.

فالإسلام نظر عقلى وأشواق روحية وحب لأهل البيت ودعوة للحوار

مع غير المسلمين . ولكنه ليس عقلا خالصاً كما يظن من يقرءون فكر المعتزلة ويظنون أنه هو الإسلام وحده ، أو من يرون أن الإسلام حين تجاوز الاعتزال فقد ميزته فى النمو والحركة ، كل هذا لا يصدر إلا من أصحاب النظرة الجزئية التى تسيطر على الفكر البشرى عامة والفكر الغربى فى العصر الحديث .

ويردد كثير من الباحثين الذين يتبعون مدارس الاستشراق والتغريب عبارة (هزيمة المعتزلة) ويريدون بها القول : بأن هذه الهزيمة إنما كانت عاملا من عوامل التأخر والتخلف . والقائلون على هذا النحو لم يستوعبوا حقائق الإسلام ولم يفهموه فهماً صحيحاً وربما فهموه من داخل دائرة الفكر الغربى .

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة كانت نتيجة الطبيعية القاصرة التى تختلف مع جوهر الإسلام ومع طبيعة الفكر الإسلامى ومنهج المعرفة الإسلامى هذا المنهج الذى يقوم على جماع العقل والوجدان .

لقد كان الاعتزال أساساً محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التى كانت تحتمى وراءها الأديان المعارضة للإسلام وقد أدى دوره فى هذا المجال على أحسن وجه ، وواجه علماء الكلام فى الأديان والفلسفات الأخرى فى قوة وأدالمنهم وحقق كثيراً من النتائج وأدخل مئات من الوثنيين فى الإسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو فى تأكيد موقفهم وفكرتهم ، حين أعلوا شأن العقل وبلغوا به مبلغاً خطيراً ، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ، ويؤمنون بالوحى والعقل ويتكامل إيمانهم هذا ويتشكل فى وحدة واحدة ، فإن إعلاء شأن العقل وحده كان خروجاً على مفهوم الإسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الإسلام الصحيح ومن هنا جاءت التعديلات والتصحيحات التى قام بها الإمام أحمد بن حنبل إذ كان لابد أن يعود الإسلام إلى أصوله وأن يتحرر مما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من الانحراف .

وبذلك كانت هزيمة المعتزلة نصراً لأصالة الإسلام وتعديلا لمسار فكره وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعاً إلى أن الاعتزال

كان وليد الفكر اليونانى وتابعاً له وأنهم كانوا يتمنون له نجاحاً مطرداً يخرج الإسلام من مقوماته كما أخرج المنطق اليونانى الأديان السابقة ولكن أصالة الإسلام كانت أكبر من هذه الفلسفة اليونانية .

ولذلك فإن الدعوة التى تتردد اليوم حول (تجديد الفكر العربى) مستخدمة فكر المعتزلة هى دعوى باطلة لأنها لا تفهم الإسلام . ودعوى زائفة لأن الاعتزال ليس هو الفكر الإسلامى ولكنه مرحلة من مراحل تطوره وتشكله انصهرت بعد بما فيه انصهاراً كاملا .

• • •

كذلك تجيء الدعوى الأخرى إلى تفسير القرآن تفسيراً باطنياً . وهى لا تعدو أن تكون حلقة من الدراسات الشعوبية الحديثة التى تستمد مصادرها من الفكر اليهودى ، القائم على الإسرائيليات والذى يتصل بالباطنية وإخوان الصفا والسبئية والقرامطة .

ولا ريب أن محاولات تفسير الجزاء بأنه روحى والجنة والنار بأنه شعور نفسى ، والتى تحاول أن تبيح ما حرم الله من حدود اللباس . والزى والزينة . كل هذا زيف مردود وقديم من المجوسية التلمودية يتجدد على أيدى دعاة ربما لا يعرفون مدى خطر الكلمة التى يقولونها .

ويرجع هذا إلى أن قراءات أصحاب هذا الفكر تنصب على كتب التصوف الفلسفى ووسائل إخوان الصفا وكتابات ابن المقفع وابن الراوندى وغيرهم ممن ينكرهم الفكر الإسلامى تماماً ويشجب صلتهم به .

ويعود بنا هذا مرة أخرى إلى قانون المفاصلة القرآنى الذى تجرى محاولات كثيرة لتزييفه اليوم تحت أسماء (الثقافة العالمية ، التبادل الثقافى . التقاء الثقافات ، وحدة الفكر البشرى . . . إلخ) .

إنما تريد كل هذه الدعوات دمج الأقل فى الكثير والضعيف فى القوى والفكر الإسلامى الآن وأمته فى موقف الحرج ، وفى أفواه الأزمة الكبرى . وفى موقف التحدى إزاء الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى والعسكرى لا يستطيع أن يستعلن وجود ثقافته المتميزة ولا يستطيع أن يفرض طابعه .

ولذلك فهى فى موقف الاحتواء ، من الثقافات العالمية التى تتقارب الآن

سواء أكانت رأسمالية أم ماركسية أم صهيونية . بينما يقف الإسلام وحده ثابتاً شامخاً كالطود لا يمكن أن ينصهر أو يحتوى أو يغرق فى أتون هذه الثقافات فهو وحده الدين الخالص والفكر الربانى ذو الطابع الإنسانى .

وذلك هو (الخطر) القائم أمام الغزو العالمى التلمودى الذى يستهدف السيطرة على العالم كله وإذلاله للأيدلوجية اليهودية التى رسمتها بروتوكولات صهيون .

وقد فاتت مرحلة استطاعت فيها الصهيونية أن تحتوى الفكر الغربى كله وأن تحركه من داخل دائرتها فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والنفس والأخلاق والتربية .

واليوم يواجه المسلمون المعركة من خلال صلتهم بالفكر الغربى الذى وقع تحت الاحتواء التلمودى والذى يحمل الآن جذور المؤامرة اليهودية الكبرى .

إن قانون المفاصلة القرآنى يقول :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . . . » .

« . . . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . . » .

« إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم . . . » .

« . . . إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » .

(صدق الله العظيم)

* * *

البابُ السابع

الفــرق الضـــالـــة



(١)

ظهرت فى العصر الحديث فرق كثيرة ضالة منها ما هو منفصل عن الإسلام يحاول السيطرة على فكره ومنها ما هو منتسب إلى الإسلام ويتسمى باسمه كالأحمدية والقاديانية .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على أرضية خلقها كتاب التغريب ودعاة الغزو الثقافى بالحديث عما أسموه (الفكر الحر) فى محاولة لفتح باب الحوار مع هذه الفرق الضالة والدعوات الهدامة . يقول محمد عبد الله عنان : يرى بعض الباحثين فى تاريخ الخلفاء والحركات الهدامة أن حركة التفكير الحر فى الإسلام ترجع فى الأصل إلى نشاط الدعوى اليهودية التى قصد بها الدعاة اليهود أن يثأروا لدينهم ولأنفسهم بهدم النصرانية والإسلام ، وإن حركة الهدم والإلحاد التى وثبت بادئ ذى بدء فى فارس وكان قوامها ابن ديصان وولده عبد الله دبرها دعاة (الكابالا اليهودية) التعاليم العبرية السرية ثم تعهدوها بالنصح والمال .

وفى هذا العصر نجد القاديانية والبهائية والروحية الحديثة وقد ألقت بثقلها فى المجتمع الإسلامى كله ووجدت من الفرص الذهبية ما مكن لها وحال وقت طويلا دون كشف زيفها ، حتى أن بعض كتاب العرب تابع المستشرقين وأعلن أن القاديانية والبهائية هما دعويان تجديديتان فى الإسلام ، وقد جاء ذلك نتيجة العجز عن دراسة الخلفيات التى دفعت هذه الدعوات وهى الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية ، فالواضح أن هذه الطوائف الدخيلة تلقى المعونة والتوجيه من المستعمرين والمبشرين واليهود وهم يعدونها لما أسموه (ضرب الإسلام بالإسلام) هذه الطوائف تقدس زعماءها وترفعهم فوق مرتبة البشر وتشرع لأتباعها من الدين ما لم يأذن به الله مستغلة اسم الإسلام لهدم الإسلام .

والمعروف أن النفوذ الاستعمارى قد اعتمد كثيراً على القاديانية والبهائية

فى فارس والهند ، وكلتا الحركتين قد اعتمدتا أساساً على إلغاء أصل ثابت وخطير من أصول الإسلام الإسلام وهو « الجهاد » دعماً لبقاء الاستعمار معه وقبول سيطرته وحكمه وسلطانه .

وقد أتاح النفوذ الاستعمارى لحركة البهائية حرية الحركة فى العالم الإسلامى ، وفى مصر اهتمت صحف التبشير والاستعمار بالحركة وأولتها قدراً أكبر من العناية ، ومن العجب أنه عندما فضحت مخططات التبشير عام ١٩٣٢–١٩٣٣ فى مصر وخفت صوت التبشير ، لم يلبث صوت الحركة البهائية أن علا ونشطت إلى العمل ، وكانت لها مراكز فى القاهرة والإسكندرية وبور سعيد والإسماعيلية والسويس ، ولها نشرات متنوعة وكتب يعلن عنها مؤلفوها ، أن بهاء الله مؤسس البهائية ، هو رسول الله الأعظم وسفيره الذى جاء بما يحقق أسمى رغبات الإنسان وتوحيد الأديان جميعاً تحت علم البهائية ، وأن الإسلام كان لعصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهى دين العصر الجديد ، ولا ريب أن للبهائية أساليب تختلف عن أساليب المبشرين ، ولهم فى الإباحية الأخلاقية منطق عجيب إلى جمع السذج والإغرار ، إذ تهدف البهائية إلى إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية ، وجعله يتشكك فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خاتم المرسلين ، وأن الإسلام هو خاتم الشرائع السماوية .

وتنكر البهائية الدعائم الأربع الأساسية للإسلام : فهى تنكر عقيدة جهاد الأعداء والصمود لعدوانهم ، وتنكر عقيدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتنكر عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الإسلامية وحمايتها من الذبول ، وتنكر عقيدة الحج التى تعمل على تثبيت الوحدة ودعم الجماعة .

وقد ارتبطت البهائية باليهودية العالمية ، كما ارتبطت القاديانية بالاستعمار واستهدفت الأولى تمييع الفواصل الأساسية بين الإسلام وبين تفسيرات الأديان واستهدفت القاديانية إلغاء أعظم قوائم الإسلام وأكبر عقائده ، وهى الجهاد .

يبدأ هؤلاء وهؤلاء من الإسلام ، ويتمسحون به فيحملون كلمات المهدى والنبوة والإصلاح والاستخلاف . وقد أسقط رؤساء البهائية فرائض الصلاة

والصيام والحج والجهاد والحدود والقصاص وسائر ما جاء فى الكتاب والسنة من تعاليم .

والبهائيون لا يؤمنون باليوم الآخر أو الجنة والنار والجزاء ، وقد أخذوا بتفسير الباطنية لها ، وقالوا : إن القيامة هى قيام الروح الإلهية فى مظهر بشرى جديد ، وقالوا عن الجنة : إنها فرح روحى ، وعن النار : إنها حرمان من معرفة الله .

وهم يزيفون ما يسمونه دعوة التقريب بين الأديان ، أو بين الشرق والغرب ، وهم يستهدفون من هذه الوحدة إلغاء الإسلام وحدة ، وتمجد البهائيون الصهيونية والاستعمار ، وقد كشف كثير من الباحثين ، ورؤساء الكنائس حقيقة البهائية وسيطرة النفوذ الأجنبى عليها . قال رئيس كنيسة (دستى تمبل) : إنها فى روحها مطابقة لجميع الخطابات الدينية التى تسمعون كل أسبوع ، ولقد تصافح الليلة الشرق والغرب .

وكان البهاء يزعم أن دين التوحيد الذى جاء به رسل الله وخاتمهم محمد قد أفسد الشرق والغرب ، وكان يؤمن بأن المسيح هو الله **« سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً »** . والحق يشهد أن الدين الذى أرسل به عيسى يختلف عن التفسيرات التى عرفها الغرب ، وأن عيسى ابن مريم رسول الله وعبده وأنه بشر .

وقد لخص الباحثون فساد هذه الفرقة الضالة فى محاولتها الخطيرة إلى :

أولا : محاربة اللغة العربية ، وذلك بتبديل اللغة الفصحى بما يسمونه اللغة النوراء ، ومحاربة لغة الإسلام العالمية ، وهى لغة القرآن العربية واستنكار عالمية اللغة العربية ، وكونها اللغة المشتركة ، لغة الصلاة والعلوم الإسلامية لتمزيق الصلة بين حاضر المسلمين وتاريخهم وتراثهم .

ثانياً : ادعاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للإسلام وللأديان جميعاً ودعوة إلى وحدة الأديان واتحاد العالم .

ثالثاً : الخروج من الأديان جميعاً والدخول فى دين جديد . ومتابعة الماسونية فى ترك الأديان والاجتماع على دين واحد هو دين الحب ، وهم بذلك أضافوا اختلافاً جديداً .

رابعاً : دعوة السلام العام ، وهى دعوة إسرائيل التى ترمى إلى خدعة البشرية تحت اسم زوال الحروب ، وحلول السلام والاتحاد ، وقد كانت دعوة العالمية والسلام العام هى دعوة الصهيونية والماسونية والشيوعية .

خامساً : مساواة النساء بالرجال وإبطال شريعة الإسلام وأحكامها فى شأن المرأة ، والبهائية تدعو إلى الاختلاط الفاجر بين النساء والرجال طريقاً إلى الإباحية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجل كيفما شاء ومتى شاء وإعلانه فلسفة اللذة ومشاركة المرأة والرجل فى صالات الرقص والنوادى الليلية ، والحرية الجنسية المطلقة ، ومن نتائج هذا الهدف تدمير الأسرة وانحلالها وانتشار القلق الاجتماعى .

* * *

(٢)

وقد تبين من التحقيقات الرسمية التى أجريت للبهائية عام ١٩٧٢ قول أحدهم : إنه لو أجبر على حمل السلاح فى مواجهة إسرائيل لأطلقه فى الفضاء وأن ذلك هو شعار البهائية ، وادعى زعيم البهائية أن بهاء الله هو المسيح ، وأن الباب هو المهدى المنتظر ، وأن للقرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً لا يعلمه إلا الله ، وقال : إن البهائية يزيدون على ٦٠ مليوناً فى العالم ، وقال : إنه — بظهور البهاء انتهى التشريع الإسلامى وانتهت أمة المسلمين ، وأن رسالة البهاء ستستمر ألف عام ، وزعم أن العذراء مريم تزوجت بعد مولد المسيح من يوسف النجار وأنجبت .

ولا ريب أن هذه المفاهيم تكشف عن روح اليهودية العالمية والتلمودية الواضح الصريح فى ثنايا هذه العقيدة .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفى مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدى الذى قال : إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم ، هو مما يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت فى عرض نفسها على الأمم ، فأين هى

من الإسلام الذى بنى أمماً قوية ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال فى مثل حيويته الأولى حتى لتوقع فلاسفة كثيرون منهم برناردشو : إن مبادئ الإسلام توشك أن تعم العالم أجمع على أصلين ضمناً له التعميم والخلود : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم ، فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق ، وهى تقوم على أصلين :

أحدهما : عتيق غامض قام به أفراد من محبى السبح فى الخيالات فهى تصور ذات الله بصور المخلوقين .

وثانيهما : وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها ، وفيه مجال فسيح للظنون والأوهام والحظ ، وتدعى البهائية أنها أتت العالم بجديد فى الأصول ولم يدر فى خلد المصلحين قبلها كاتحاد الأديان وترك العصبيات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل . أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول وحاطه بأحكم الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد وأن الخلافات التى بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام ، فالإسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم . إن البشرية ليست فى حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام .

هذا ومع أن البهائية قد انقضى على دعوتها نصف قرن أو يزيد فما نرى أنها استطاعت أن تحقق هدفاً واحداً من أهدافها فى اتحاد المشرق والمغرب أو اتحاد الأديان أو الأجناس أو زوال الحروب ، وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإباحية والإلحاد التى حملت كل سخائم الباطنية القديمة وأعادت طرحها على البشرية مرة أخرى .

وقد كشفت البهائية عن صلتها الجذرية باليهودية العالمية عندما عقد فى إسرائيل المؤتمر العالمى للبهائية وتبين أنها استخدمت البهائية منذ وقت طويل منذ ما كان يقيم عباس البهاء فى حيفا .

أما القاديانية التى تحولت من بعد إلى فرقتين : إحداهما الأحمدية فإنها كانت فى أساسها نتاجاً استعمارياً استهدف ضرب مفهوم الإسلام الصحيح

وتنحية مفهوم الجهاد وخلق جماعات تحت اسم الإسلام تتقبل النفوذ الاستعماري وتعاونه وتخضع له .

فالقاديانية مؤامرة حقيقية على الإسلام ترمى إلى إضعاف القيم الإسلامية وتمجد القيم الدخيلة للفكر الأجنبي . أما إضعاف القيم الإسلامية فإن ذلك يجرى عن طريق شرح بعض تعاليم الإسلام بما يضعف الإسلام فى نفس المسلم ، أو خلق فكر آخر على أساس تفسير خاص لأصل من أصول الإسلام سيصبح فيما بعد مذهباً من المذاهب الإسلامية ، على حد تعبير الدكتور محمد البهى ، يقول : يتمثل ذلك فى خلق مذهب الأحمدية فى أواخر القرن ١٩ بفعل مؤسسة ميرزا غلام أحمد القاديانى بعد أن تهيأ الجو الفكرى والثقافى والروحى لنشأة مثل هذا المذهب عن طريق السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة وصاحب التفسير القرآنى المشهور والداعى للولاء والتعاون مع السيادة الإنجليزية فى الهند طوال القرن ١٩ .

هذا المذهب يشرح فكرة الجهاد فى الإسلام على أنها كانت فكرة مؤقتة حتى يستقر الإسلام نفسه كدين وحتى يستقر أمر الجماعة الإسلامية ، لذلك فإنه لا يجب تنفيذه بالسيف أو بالقوة وإنما يجب سلوك الطرق السلمية فى الدعوة إلى الإسلام ويتحقق بهذا هدف الولاء للحكومة الإنجليزية وبهذا التفسير يبطل العمل بمبدأ الجهاد على نحو ما عرف فى صدر الإسلام . والمعروف أن مبدأ الجهاد فى الإسلام قصد به عدم انهيار الجماعة الإسلامية وانصهارها فى جماعة أخرى .

ولا ريب أن هذه الدعوات تسعى إلى إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد وتغيير مفومهم الأصيل والجامع للتوحيد والجهاد والعدل .

وقد انتقلت دعوة القاديانية من نبى فى القاديانية إلى مصلح فى الأحمدية يحاول أن يستعيد لها بعض الثقة فى النفوس التى رفضتها .

ولا ريب أن هذه الدعوة وغيرها يستهدف طمس منابع الإسلام والحيلولة دون وحدة المسلمين ، والعمل على إعلاء العنصرية التى تقوم على الأجناس — على وحدة الفكر التى جاء بها القرآن .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على سلاح (التأويل) الذى هو منهج

اليهود القائم على مبدأ إذبح الناس بيد بعضهم البعض ، وقد أولت القاديانية والأحمدية آيات الجهاد تأويلا أبعدها عن مقاصدها ، وقال القادياني صراحة : لقد أسقط الله عنكم فريضة الجهاد وهو ما وصف بأنه (ضرب ركن الجهاد بسيف التأويل) وفي هذا متابعة لإخوان الصفا الذين قالوا : إن التأويل للحكماء والتنزيل للدهماء .

وتخالف الأحمدية الإسلام في ثلاث نقاط : طبيعة المسيح ، دعوة المهدي ، فريضة الجهاد . وتقول الأحمدية أن المسيح لم يصلب ولكنه مات في الظاهر فقط ، وخرج وهاجر إلى الهند ، وتقول الأحمدية أن وظيفة المهدي هي الدعوة إلى السلام وأن الجهاد يجب ألا يقوم على امتشاق الحسام بل يجب أن يقوم على وسائل سلمية وهم يظهرون في كل الظروف ولاءهم الخالص للحكومة البريطانية ويعتقدون أن المهدي يتجسد في المسيح والنبي في وقت واحد .

يقول الشيخ عبد الرشيد إبراهيم : (أما ما ترجمه رجال من القاديانية فلا تحسن الظن بهم لأنهم جماعات من محدثات سياسة الإنجليز لتشتيت جمع المسلمين ، ونعلم قطعاً احتياج الإنكليز إلى زعماء من المسلمين لاضطهاد الإسلام فظهر بسبب ذلك البابية والبهائية والقاديانية) .

ولقد حققت دعوة القاديانية نتائج خطيرة منها إثارة الجدل بين العلماء وشغل المسلمين فضلا عما أثارت من شبهات عن تقديس قاديان كمكة لوجوب الحج إليها وتحويل المسلمين من مكة ، وإثارة العنصرية بشأن رسول عربي ونبي هندي واعتبروا هذا انتصاراً وطنياً . ووقف نهرو يؤيد القاديانية ورد عليه الدكتور إقبال رداً عنيفاً ودعا المودودي إلى أن تعتبر القاديانية طائفة غير إسلامية كالبهائيين وقد أعلن عن تنفيذ ذلك في السنوات الأخيرة .

(٣)

يقول الأستاذ محمد تقي الدين : أن الهدف من القاديانية هو إعادة عهد الوثنية الأولى لتعيد ذكرى برهما وبوذا ولكن بصورة أخرى يقطعون بها على صغار العقول طريق الفطرة الإسلامية .

أولئك القوم هم جماعة القاديانية الهنود الذين أخذوا اسم الإسلام وأطلقوه على عقائد مختلفة . ساقهم ميراث الوثنية للرجوع إلى العقيدة الأولى التي كانت تنفس عنهم هذه الآلام ، فدعوا إلى المنقذ وأخذوا يفكرون أيكون وريث براهما في الإلهية أم وريث بوذا في النبوة ، ولم يكن يمكن نجاح دعوتهم إذا جنحت إلى الميراث البرهمي في دعوى الألوهية لأن عقلية مسلمي الهند استنارت بنور الإسلام وترفعت عن هذا الإسفاف ، فحاولوا أن يتخذوا منزلة هذا المنقذ منزلة النبوة ولكن بصورة أخرى تكون قريبة من إدراك الجاهلية فاتخذوا من غلام قاديان نبياً يبعثون فيه عقيدة المنقذ ورأوا أنه لا بد له من مبادىء ينشرها ويدعى أنه أوحى إليه بها فلم يجدوا مبدأ أصلح ولا شريعة أسمى من شريعة الإسلام فراعوا اتخاذها شريعة لهذا النبي الكذاب وعبثوا ببعض مسائلها ونظروا في بعض عقائدها فخالفوا ما فيه من الخلاف ظاهراً واتخذوا من تحريف أقوال الشريعة أدلة على صدق نبوة غلام قاديان .

وقد كشف غلام أحمد القادياني هويته وانتماءه فقال : لقد قضيت معظم عمرى في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، فقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز من الكتب والإعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة ، وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا ، وكان هدفي دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين للإنجليز ، لقد ظللت منذ حداثة سني وقد ناهزت اليوم على الستين أجاهد بلساني وقلبي لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية والنصح لها والعطف عليها وإلغاء فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جهالهم والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة .

وكان من نتيجة ذلك أن أقلعت ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين وهذه مأثرة أتباهى بها يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها ، (ص ١٠ من الطبعة السادسة من ملحق كتابه شهادة القرآن) .

وتكشف الوثائق والدراسات عن الصلة الواضحة والجذرية بين القاديانية والبهائية ، فالقاديانية في الهند والبهائية في فارس ألغت الجهاد إلغاء كاملا في وقت كان فيه المسلمون في أشد الحاجة إلى طرد الغاصبين ، يقول مؤسس

البهائية : أن البشارة الأولى لجميع أهل العالم هى محو الجهاد من الكتب — أى القرآن — (نبذة من إشراقات بهاء الله ص ١٠٩) .

وأشار مؤلف كتاب حقيقة البهائية والبابية أن البهائية حركة منحرفة مشبوهة أسسها الميرزا غلام أحمد القاديانى من لاهور من بلاد الهند وهو تلميذ للبوشتى الداعية الباطنى المشبوه بعد استعمار روسيا القيصرية لمملكة القوقاز . بحضر روسى ليزود الباب بالأسلحة والخبرة العسكرية . كما يدعى الأرمنى الروسى (متوجهدخان) الإسلام ليخدم الشاه ويحمى الباب فى قصره من بطش المسلمين ثم يحاول إدخال الشاه فى البابية .

وقد دخل يهود إيران فى حركة البابية بشكل جماعى ، ففى أربع مدن وفى مدة قصيرة دخل منهم ٣٨٥ يهودياً ومن الماسونيين جولدزيهر المستشرق روج لهذه الحركة ، ومن المبشرين فى الغرب اهتم بها لورد كرزون ، أستلين كاربنتر ، براون ، فامبرى ، الكونت جونييو ، البروفيسور جيمس وارمستر ، نقولاس ، الليدى شيل ، الدكتور جيل .

هذه الطائفة انقسمت بعد ذلك إلى فرقتين ، فرقة قالت بنبوة غلام أحمد وفرقة قالت بولايته : قاديانية وأحمدية ، وللفرقتين مآرب سياسية خطيرة وليست من فرق المسلمين وإن صامت وصلت .

وقد أعلن غلام أحمد القاديانى صراحة مخالفته للإسلام (٣٠ يوليو عام ١٩٣١ جريدة الفضل) قال : إننا نخالف المسلمين فى كل شىء ، فى الله وفى الرسول وفى القرآن وفى الصلاة وفى الصوم وفى الحج وفى الزكاة وبيننا وبينهم خلاف جوهرى فى كل ذلك .

وهكذا نجد أن المؤامرة تتجدد فى العصر الحديث ليس بانبعاث الفكر الوثنى والهلينى والباطنى وحده فى مجال التراث والتاريخ والأدب ، ولكنها تتجدد أيضاً فى صورة دعوات وحركات تحمل لواء هذا الفكر وتعيد صياغته لتحدث فى مجتمعنا ما أحدثته الدعوات الهدامة فى القرن الرابع والخامس الهجرى ، فإن التجربة تتكرر مرة أخرى ولكنها اليوم أشد عنفاً فإن إرادة المسلمين الآن ليست مطلقة فى دفع أعاصير التغريب والغزو الثقافى والشعوبية

التى تؤيدها وتؤازرها قوى الاستعمار والصهيونية والشيوعية وتحاول أن تفرضها فى مجال التعليم والثقافة .

ولقد حاول الاستشراق أن يخدع المسلمين بهذه الدعوات ومحاولة وصفها بأنها دعوات تجديد فى الإسلام كما قال لورنس براون فى كتابه (طوالع الإسلام) الذى لخصه وقدمه عباس العقاد فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٥ وتحدث فيه عن البهائية والقاديانية بوصفهما دعوات إصلاح وتجديد ، ولو درى لعرف أن القاديانية كانت البديل المحرف عن دعوة الجهاد الإسلامية التى اهتز لها الاستعمار وقضى على دعاتها ، فهى رد فعل لموقف زعماء المسلمين فى الهند من الاستعمار الإنجليزى حينما انهزم البطل الشهيد تيبو سلطان فى معركة ميسور فى جنوب الهند عام ١٧٩٩ وأصبح للإنجليز نفوذ قائم ، وفقد المسلمون امبراطورية ظلت أكثر من ستة قرون . ومن الناحية الاقتصادية كان المسلمون هم الغالبين عليها وأصحاب المهارة فى الصناعة والزراعة . فأغلق الإنجليز المدارس وقطعوا أيدى الصناع وحرموا عليهم الوظائف الرسمية وشغل الهندوكيون الموالون للإنجليز وظائفهم ، لذلك فكر صفوة من العلماء وعلى رأسهم عبد العزيز الدهلوى ابن الشاه ولى الله صاحب [حجة الله البالغة] فأفتى عبد العزيز بأن الهند أصبحت دار الحرب ، فوجب على المسلمين أن يحاربوا الاستعمار ، فقام الفقهاء والعلماء والمحدثون والمتصوفون يجاهدون فى سبيل إجلاء الإنجليز وكونوا جيشاً كبيراً قاده الشهيد إسماعيل ووقعت حرب دامية بين الاستعمار وخلفائه وفتحوا مدناً كثيرة ورفعوا فيها راية الإسلام وحدث عام ١٨٣١ بمقاطعة باراكوب فى بنجاب أن انهزم المسلمون على أيدى الخونة من المسلمين أنفسهم ، وقبض الاستعمار على العلماء الذين اشتركوا فى الجهاد وألقاهم فى السجن ، ألغيت جميع المدارس وأندية الثقافة ليتفشى الجهل والفقر وسوء الخلق . وهب تلاميذ الشاه عبدالعزيز مرة أخرى لمقاومة الاستعمار وجاءت ثورة عام ١٨٥٧ التى هزت الاستعمار والتى لم تنجح وأوقع الاستعمار العلماء فى محنة شديدة ، فقتل الكثيرون ونفى الكثيرون إلى جزيرة أندومان والبحر الأسود ، وأنشأ الاستعمار من عام ١٨٥٨ — ١٨٨٧ م خمس جامعات فى مدن الهند الكبرى (كلكتا — بمباى — مدراس — لاهور — إله أباد) وبدأت تدرس المواد

الحديثة باللغة الأبجدية وكان تلاميذ هذه الجامعات هم الهندوس . وأراد الاستعمار بهذه الجامعات القضاء على المدارس الدينية والنشاط الإسلامى فى الهند فامتنع المسلمون عن دخول تلك الجامعات . ثم بدأ المسلمون ينشئون مدرسة دار العلوم بديوبند للمحافظة على تراث المسلمين وتخريج الدعاة لكى يقودوا المسلمين ضد الاستعمار فظهر محمد قاسم النانثوى ورشيد أحمد الكنولوهى وحاجى إمداد الله ، وتخرج على أيديهم صفوة من العلماء .

ولما رأى المحايدون والمسالمون أن المسلمين لم يدخلوا هذه الجامعات ويدخلها الهندوس وحدهم ، أنشأ أحمد خان (كلية محمدية) عام ١٨٧٧ م لكى يدرس فيها المسلمون وقد تعلم فيها محمد على ومحمد إقبال والزعماء المسلمون الكبار الذين قادوا الأمة الإسلامية فى الهند فى منتصف القرن العشرين .

ويفرق بعض الباحثين بين دعوة أحمد خان وبين دعوة غلام أحمد القاديانى ، ويرى البعض الآخر أن دعوة أحمد خان هى مقدمة للقاديانية ، ويرى الأولون أن أحمد خان شأنه فى الهند شأن محمد عبده فى مصر ، أراد أن لا تفوت المسلمين الفرصة وأن يأخذوا طريقاً وسطاً حتى لا يحرموا من التعليم الحديث وذلك بمسالمة الاستعمار .

* * *

(٤)

ولم يلبث الإنجليز أن عمدوا إلى إبراز (القاديانية) لتحريف مفهوم الإسلام الأصيل ، وظاهرت حكومة الهند هذه النحلة ونقلت دعاتها إلى بريطانيا وأوجدت جريدة باسمهم (اسلاميك رفيو) تنشر عقائدهم ودعايتهم ، وتبنى دعوتهم جماعة من الإنجليز وابتنوا جامعاً فى حى ووكنج بلندن وقد عرفوا بجماعة الأحمدية ، وقد ترجموا القرآن إلى اللغتين الإنجليزية والأوردية .

وجرت محاولات للتفرقة بين الأحمدية والقاديانية ، فقال عبد الحميد السيد : إن غلام أحمد زعم أنه مخلص ومجدد فى أول مرة ، ثم ترقى به الحال إلى أن ادعى أنه المسيح المولود والمهدى المعهود لهذه الأمة ، ثم تجرأ فأعلن

أنه نبي ورسول من الله لكافة البشر ، وفى كل دور ألف كتباً تناسب ادعاءه فيه ، وفى الدور الأخير من حياته بنحو سبع سنوات ألف وكتب مدعياً النبوة والرسالة بنصوص قطعية .

أما أحمديو لاهور فهم ينكرون نبوته التى مات وهو يدعو إليها ويقصرون دعوتهم على أنه المسيح الموعود والمهدى المسعود والمصلح المجدد والهدف هو محاولة إضلال المسلمين فى شأن هذا الرجل ، فيحسن ظنهم به توطئة لأتباعه والدخول فى زمرة شياطينه ، وبعد أن هلك غلام أحمد عام ١٩٠٨ م اجتمع حواريوه لانتخاب خليفة له ، فاختاروا حكيم نور الدين نحو ست سنوات ، ثم خوجه كمال الدين ومحمد على اللاهورى ، وقد خرج محمد على اللاهورى من قاديان مغلوباً على أمره فتوجه إلى لاهور ، وهناك ألف هو ومن معه جماعة عرفت بالأحمدية اللاهورية .

ورأت هذه الجماعة أن دعوى النبوة والرسالة بعد خاتم الرسل — مما لا يستسيغه منطق المسلمين ، ولا ينخدع به مسلم أبداً ، فاتفقوا بعد زمن يسير على أن يقولوا : إنه لم يدع النبوة ، مع أن كتبه التى يدعى فيها النبوة مطبوعة وادعاء النبوة صريح ، وهى مملوءة بشتم الأنبياء والصحابة وآل البيت وسلف المسلمين ، وأعادوا طبع كتبه التى ألفها فى الدور الأول وليس فيها ادعاء للنبوة ، بل فيها إنكار لها ، وتركوا الكتب الكتب التى ألفها أخيراً وقبل مماته .

وقد قاوم مسلموا الهند هذه الدعوة القاديانية والأحمدية مقاومة شديدة وحاصروا غلام وأتباعه فى بلدتهم الصغيرة قاديان ، وبعد هلاك هذا الكاذب أشكل على أتباعه وأسقط فى أيديهم ، ولما رأى القاديانيون ذلك لجأوا إلى ظل الحكومة البريطانية ، وتعهدوا بالدعاية لها والدفاع عنها ، وانتهزت الحكومة الفرصة لتفريق كلمة المسلمين عن طريق تشجيعهم ، فمهدت الطريق للتبشير بالقاديانية على أساليب المبشرين فى الدعوة إلى الكنيسة ، وساعدتهم على الدعوة لإلغاء الجهاد الإسلامى والادعاء بأن الإسلام لم يعد دين جهاد ، بل صار الآن دين السلام أى دين الاستسلام للمستعمرين .

وكان محمد على اللاهورى زعيم الفرقة الأحمدية من كبار أصحاب غلام

أحمد القادياني ، وكان من أبرزهم في الخطابة وأبرعهم في الكتابة ، فهو الذي ترجم القرآن إلى الإنجليزية وفسره وحرفه وغير معانيه في مواضع شتى وفق تفسير متبوعه القادياني ، ومنه ادعاؤه بنزول الوحي على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويؤمن الأحمدية اللاهوريون بأن المسيح الموعود والمهدي المعهود المرزا غلام أحمد القادياني هو منجي العالم ، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وغلام أحمد معاً .

وقد وجد الباحثون والمؤرخون وجوه لقاء واسعة ومتعددة بين البهائية والقاديانية ، فقد ظهرت الدعويان في قرن واحد . أما البهائي فقد عرف نفسه بأنه الممثل الحقيقي للأنبياء السابقين ، وأنه تجتمع فيه كل الرسالات الإلهية ، وتلتقي فيه الديانات جميعاً وهو لا يعتبر الرسالة المحمدية آخر الرسالات ويعتقد بالحلول ، ويقول : إن اليوم الآخر والجنة والنار ليست إلا رموزاً للحياة الروحية .

وقد تبين أن البهائية هي ربيبة الصهيونية ، وهي التي احتضنتها وأقامت مراكز لها في جبل الكرامل في حيفا في فلسطين . وفي إسرائيل (٥ أغسطس عام ١٩٦٨ م) عقد المؤتمر البهائي العالمي ، حضره ٢٢٥ شخصاً اختيروا من ٨١ جمعية وطنية تابعة للعقيدة البهائية في القارات الخمس ، وأعلن المؤتمرون أنهم يدعون إلى وحدة الجنس البشري وإلى السلام العالمي .

ويلتقي ماتروج له البهائية مع ماتروج له المنظمات الماسونية ، فهم جميعاً يستهدفون تقويض (الدين من نفوس الناس ، ومحو آثاره في المجتمع البشري كله) .

وتعلن البهائية ما تعلنه الماسونية من الحديث عن سحق العدو الأزلي (الدين) مع إزالة رجاله ، وعدم التردد في شن الحرب على كافة الأديان لأنها في دعواهم العدو الحقيقي للبشرية ، ولأنها سبب التطاحن بين الأفراد والأمم عبر التاريخ . ويزيد البهائيون على الماسون في أنهم أنشأوا ديناً جديداً يبشرون به وهو مزيج عجب من العقائد السماوية والفكر البشري كحل وسط للصراع بين أهل الأديان ، ففي البهائية آيات من القرآن ونصوص من التوراة ، وفقرات من الإنجيل ، واقتباسات من البوذية والكنفوشيوسية .

وقد تبين أن اليهودية العالمية وراء هذه الدعوى الزائفة .

(٥)

الروحية الحديثة

ومن الدعوات الجديدة التي جددت الفكر الباطني والوثني القديم دعوة الروحية الحديثة التي تتمثل في ذلك التيار الذي يغمر عالم الإسلام بالجمعيات الروحية ، وما يتبع ذلك من مؤلفات وكتابات تحاول إقرار هذا المعنى في النفوس .

وقد بدأت دراسات الروحية في الغرب على يد جماعات ظنت أنها تستطيع أن تعارض المذهب المادي وتكشف مفاسده ، ولكن قوى الصهيونية العالمية استطاعت أن تسيطر على هذه الجماعات وتوجهها وجهة أخرى ، أرادت بها هدم المجتمعات وتصورها على أنها دين جديد ينشر الفوضى والتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية ، وبذلك تصبح شعبة من الدعوات المريبة التي تأخذ الناس من كل جانب والتي تلبس مختلف الأثواب وتخفي حقيقتها تحت شتى الأسماء ، وأبرز ما يكشف فساد مذهب الروحية الحديثة أنها تقيم تعاليمها على مفاهيم وحدة الوجود وتناسخ الأرواح وخلود الحياة فلا فناء للدنيا ، وأنه ليس هناك يوم للبعث والحساب العام ، والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم ، وكذلك إنكار خلق الله للكون ومحاولة الترويج لقدم العالم وإنكار نهاية الخليقة ، وهي بذلك شبيهة بالبهائية الحديثة والدهرية القديمة ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإنكار الجزاء هي نفس مبادئ الماسونية مصوغة في أسلوب جديد ، وتقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان وخاصة الإسلام ، وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلمودية ، ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة كمدخل إلى مهاجمة الأديان نفسها ، ويركزون على السخرية منهم واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود إلى غير ذلك مما يراد إلصاقه بالدين نفسه ، فضلا عن إنكار علماء الدين لما يدعونه من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي ، وهم في نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ويعلون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسمائها

رموزاً لهم ولمحافلهم — وهم يشيدون ببعض الأرواح الفرعونية مثل روح (رع آمون رع) و (هيمبوت) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محفلهم ويركزون على الآثار والكشف عنها ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

كذلك فإن الروحية الحديثة تركز على هدم الأخلاق ونفى الاختيار والقول بالجبر ، وهم فى دراساتهم الروحية يتخذون نفس الأسلوب الذى اتخذته الدراسات النفسية فى تبرير الجريمة والاعتذار عن المجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية .

ومن أخطر دعواتهم وأكذبها قولهم : إن الجنة والنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ، وأن الناس على اختلاف أديانهم وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هى نفس حياتهم على الأرض ، وأن فرص التفكير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم . وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس على الظلم والفساد ، وهم يدعون أن القيامة هى قيامة آدم الجديد الذى يقوم على وجه الأرض فى عالم لا يحكمه إلا السلام وتسوده الروحية .

وهكذا نجد الروحية الحديثة صورة أخرى من الماسونية والبهائية والقاديانية فهى تقوم على رموز وأسرار ولها درجات ولم تنشأ للتسلية ، ولكن أنشئت لأهداف خاصة . ويقول علماء الروحية : إن الإنسان خالد على الأرض ، وأن الوحى لم ينقطع بوفاة محمد . وأن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء وأن العالم يتهيأ الآن للقرآن الجديد الذى تأتى به الأرواح لتنقذ العالم من حمأة الصراع والشرور .

وهم يمهدون لنبى جديد يطلقون عليه اسم (سلفربوش) وهو من الأسماء اليهودية ، ولا ريب أن الدعوة إلى أن الروحية وحدها هى قوام الفكر والحياة ليست إلا دعوة مماثلة للمادية التى ترى أنها وحدها قوام الفكر والحياة . والروحية بذلك إنما تمثل معارضة للإسلام ، دين الحق الجامع المتكامل بين الروح والمادة ، وهكذا نجد أن اليهودية العالمية تسيطر اليوم على الدعويين المادية والروحية وكلتاهما دعوة باطلة ويبقى الإسلام متميزاً بنظامه ودعوته إلى الإيمان بالله وبجميع ما تنشده الروحية من مقاومة الإلحاد والمادية .

ومن أكبر أخطاء الروحية الحديثة قولها : إن العلم الروحى قد أصبح علماً تجريبياً لا لبس فيه ولا غموض ، وإن التواصل بين الأحياء والموتى لا شك فيه ، ولا ريب أن الروح بعد الموت تدخل فى عالم آخر ومن الزيف أن يقال : إنها مما يمكن الاتصال به أو الحديث إليه .

وتلتقى الروحية الحديثة مع البهائية فى دعواها بالنبوة الجديدة والآفاق الجديدة ، ولا ريب أن اليهودية العالمية تمهد بذلك لمخططها الذى كشفت عنه بروتوكولات صهيون وتتخذ من هذه الدعوات منافذ ونبوءات إلى هذا المخطط .

ويشير الأستاذ عبده الراجحى فى كتابه (الشخصية الإسرائيلية) إلى هذا المعنى فيقول : إن الجمعيات الروحية ذات صلة بالتخطيط اليهودى أكثر من صلتها بتحضير الأرواح ، وأن هذه الجماعات المنتشرة فى مصر وغيرها إنما تخفى فى أعماقها التلمودية الخطيرة ، وأن هذه الجمعيات لم تنشأ للتسلية ولكنها أنشئت لأهداف خاصة ولها نشراتها وكتبها ومجلاتها .

ويقول : إن الروحية الحديثة مخطط إسرائيلى واضح الهدف والأسلوب . والهدف مثل الماسونية تماماً هو انتزاع الشخص من دينه ومن قوميته وصبه فى قالب جديد من العالمية أو الكونية ، وهى تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى أنها لتستخدم الدين فى هدم الدين ، ويقول علماء الروحية : إن الإنسان خالد على الأرض ، وأن الوحى لم ينقطع بوفاة محمد ، وأن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء ، وأن العالم يهتدى اليوم للقرآن الجديد الذى تأتى به الأرواح ، وللروحيين الآن قائد هو شخص هندى ذو ضفائر تجده مرسوماً فى قاعاتهم ، واسمه سلفربيرش ، وهو عندهم آدم الجديد الذى سيكون خليفة الله فى الأرض ، وهم يؤولون الآيات القرآنية تأويلا عجيباً توصلا إلى منهجهم ، وهم ينكرون القيامة على ما يفهمها الفقهاء لأنهم يعتقدون أن الأرض خالدة ، وأن الإنسان خالد فيها ، وتتفق هذه المفاهيم مع التلمودية التى تقوم عليها الصهيونية ، ولقد كان من أخطر الدعاة إلى ذلك ، فهمى أبو الخير ، وعبد الجليل راضى ، ومن قبل مجلة المقتطف ، ولقد أغرت المسائل الروحية بعض الكتاب المسلمين ، فظنوا أنها قوة جديدة فى مواجهة الفكر المادى ، ولكن تبين من بعد أن اليهودية العالمية قد احتوت هذه الدعوة وحولتها

إلى غايتها هى ، ولنفس الغاية التى عملت لها الماسونية لتحطيم الدين جرياً وراء محاولتهم التى تقول : إنه لابد أن يتحطم الدين بيد أتباعه فذلك هو السبيل أمام الصهيونية لكى تركب أكتاف العالم من جديد . وهكذا نجد أن المؤامرة على الإسلام تتجدد فى المجالين : مجال الفكر ومجال الحركة ، ونجد أن الفكر البشرى اليوم كله حافل بمطامع الصهيونية والماركسية وأنه يستهدف احتواء الفكر الإسلامى ، وأن هناك محاولة جديدة تعمل على تجديد المؤامرة القديمة التى واجهها المسلمون فى صدر الإسلام وحطموها تماماً بإعلان مفهومهم الأصيل ، واليوم تواجه حركة اليقظة الإسلامية المحاولة الجديدة وتكشف زيفها وتفسد أهواءها وتزيف شبهاتها وصولا إلى القضاء عليها .

* * *

الباب الثامن

الأصالة الإسلامية
في مواجهة المؤامرة على الإسلام

أولا : من الفرق إلى السنة الجامعة

(١)

منذ اليوم الأول لظهور حركة (المؤامرة على الإسلام) فى القرن الثانى للهجرة فقد قامت المواجهة الصادقة والمعارضة الصريحة ، على يد السنة والجماعة فردت فسادها وكشفت زيفها ونقضت شبهاتها وأبانت بالدليل أنها حركة معادية للإسلام ناشئة من دين أجنبى وأنها حركة خارجية أصلاتلتمس فى محيط المجتمع الإسلامى خيوطاً لتدمير القيم الإسلامية كمقدمة لتدمير النظام الإسلامى نفسه ، وبينت أنها وثيقة الصلة بأعداء الإسلام وقد تبين أن هناك معاهدات وعقوداً بين دولة الروم وهذه القوى فضلا عن تآمر القوى المجوسية الفارسية القديمة وأكد الباحثون المسلمون أن الذين وضعوا أساس الشعوبية والباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم متطلعين إلى هدم الإسلام عن طريق فكره بعد أن عجزوا عن هدمه عن طريق دولته .

أولا : أنكرت السنة التشبيه والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وثنية والمعطلين ملحدون وتعقبت فى نفس الوقت الملحدين والوثنيين وكشفت عنهم

ثانياً : عارضت السنة إخضاع الإسلام للجدل العقلى ودعت إلى التماس المعين الأول والمنبع الأصيل (القرآن والسنة) .

ثالثاً : كشفت السنة عن فساد إلهيات أرسطو لأن مقدماتها ونتائجها معارضة أشد المعارضة لمفهوم التوحيد الخالص وأبانت أن العقائد مرجعها إلى الكتاب والسنة .

رابعاً : استوعبت السنة كل المطامح والآمال التى كانت الفرق المختلفة تنادى بها فجعلت محبة أهل البيت جزءاً من عقيدتها وجعلت العقلانية التى رفعت لواءها المعتزلة شطر المعرفة وجعلت الوجدانية التى حمل لواءها

التصوف شطر المعرفة الأخرى وجعلت اختيار الحاكم على أساس الشورى وليس على أساس النسب أساساً من أسس مفهومها .

خامساً : قاومت السنة الاتجاه الزائف نحو القول بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد كما قاومت انحرافات المعتزلة والفلاسفة والصوفية فالتقت كل هذه القطاعات فى مفهوم جامع .

سادساً : كشفت السنة عن أن النظر الفلسفى لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامى . ذلك أن هناك مجموعة من الحقائق الأولية لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوحى والنبوة . وبينت أن الفلسفة ليست قرينة الوحى ولا مناظرة له فهى لا تزيد عن كونها استخداماً للعقل وتكبيراً منظماً يمكن أن يستخدمه الناس فى الدين أو فى أى موضوع آخر ، وهى فى أحسن صورها تعمل على أن تعصم الذهن من الخطأ فى الاستنباط والبرهان .

سابعاً : رأت السنة أن القرآن كلام الله القديم ولكن التعبير عنه بالكلمات والحروف قد خلق ووجد فى حدود الزمان ولكنه من عند الله وأن فى لغة القرآن العربية أحد الأدلة على أصله السماوى .

ثامناً : أصبحت السنة هى البوتقة التى انصهرت فيها كل الثقافات فهى بمثابة النهر الكبير ، والمذاهب والفرق روافد ، وخير ما فى هذه الروافد انصهر فى مفهوم جامع للأصالة الإسلامية وصب فى النهر الكبير ، وكان أبلغ ما وصلت إليه هذه الغاية هو قول الإمام الغزالى : إن أساليب القرآن أرجح فى سلامة العقيدة والتزام صفاء الفطرة من جملة أساليب اليونان والصوفية فى بوتقتها فأصبح العقل فى خدمة الوحى يسير فى ضوئه ، وأباح فقهاء المسلمين قدراً كبيراً من التأويل والاختلاف فى الفروع دون أن يتجاوزوا وجه الانحرافات الهدامة ودعموا هذه الأسس بمبدأ ينص على أنه إذا اجتمع الفقهاء المجتهدون على مسألة كبرى من مسائل العقيدة والفقه فإن اجتماعهم حاسم قاطع ، أما المسائل الصغرى فلا مانع من الاختلاف حولها وتميزت السنة بأنها توجهت منذ البداية إلى إبراز العناصر الجامعة لا إلى إبراز دور الفرد ، حتى الأفراد الذين قاموا بدور [illegible] كانوا [illegible] ممثلين للنظرة الجامعة لا مفكرين مبتدعين .

تاسعاً : استطاعت السنة أن تتمثل فى أعمال ثلاثة رجال كبار : الشافعى والأشعرى وابن حنبل ، فقد قاوم هؤلاء أخطار المؤامرة على الإسلام ممثلة فى الهلينية الزاحفة وعمل فى هذا المحيط كثيرون من العلماء الأبرار على نحو مكن من استئصال الباطنية من حيث أنها قوة معنوية ، وعندما تحطمت مفاهيم الباطنية تحت سنابك السنة سقطت كقوة سياسية .

عاشراً : كان لإحياء السنة وبناء معاهدها ومدارسها وتجديد فكرها فى مواجهة الفكر الشعوبى والباطنى وقيام جماعات التسلح الخلقى وإيقاظ روح الجهاد عامل هام فى القضاء على القوى الخارجية كالحملات الصليبية والقوى الداخلية كالباطنية والحشاشين . وقد استطاع الإمام الغزالى أن يزيل الحواجز بين الفقه ومفهوم التربية الإسلامية والأخلاق (التصوف والزهد) وذلك بالكشف عن أن الإسلام : عقيدة وشريعة وأخلاق وبذلك سقط ذلك الخلاف المصطنع بين الفقهاء والصوفية ذلك الخلاف الذى أغرت مفاهيم الهلينية .

حادى عشر : استطاع مفهوم السنة ، وهو مفهوم الأصالة الإسلامية الجامع أن يقضى على الغلو فى كل تلك الفرق وبذلك تعين أن السنة ليست مذهباً معيناً بين المذاهب وليست طرفاً من الأطراف . يقول ابن القيم الجوزيه : وأهل السنة لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم فمذهبهم حق جميع الطوائف بعضه إلى بعض ، والقول به تصرة وموالاة أهله فى ذلك الوجه ، ونفى باطل كل طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه ، فهم حكام بين الطوائف لا يعاملون بدعة ببدعة ولا يرمون باطلا بباطل ، ولا يحملهم شنآن قوم ألا يعدلوا فيهم ، بل يقولون فيهم الحق ويحكمون فى مغالاتهم بالعدل .

ومن هنا تسقط تلك الدعاوى الباطلة التى يدعيها أمثال زكى نجيب محمود وغيره من أن السنة فرقة أو طائفة ، بينما السنة هى مدرسة الأصالة الإسلامية التى تجمع خير ما فى الفرق وتحكم بينها وترتفع عن الخلاف حول

حول الأفراد والأشخاص ، وتقرر أن هذا الخلاف هو الذى أفسد المفاهيم الإسلامية .

ثانى عشر : تبين مما لا يدع مجالا للشك أن الاجتهاد بالرأى كان بداية النظر العقلى فى الفكر الإسلامى وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن ونشأت عنه المذاهب الفقهية وأينع فى جنباته علم أصول الفقه ونبت فى تربيته التصوف وذلك قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فيما وجهت به المسلمين إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات ، وبذلك لم يكن هناك أى تأثير أجنبى فى تكوين الفقه الذى هو وليد القرآن وآثار الصحابة والجيلين الأولين من التابعين ، وكان المنطلق لذلك كله هو أن الرسول أذن لولاته فى الأمصار أن يجتهدوا برأيهم حين لا يجدون نصاً ولذلك فقد كان طبيعياً أن يقاوم أهل السنة بالذات إلهيات أرسطو لأنها فى مقدماتها ونتائجها كانت تعتبر متعارضة أشد التعارض مع مقتضيات عقائد الإسلام .

وقد التمس القرآن إلى الإقناع أساليب مختلفة منها الأسلوب العقلى وأسلوب الوجدان وأسلوب العبرة التاريخية فلم يؤلف براهينه فى مقدمات وقضايا ونتائج كالفلسفة ومن هنا فإن الرأى والقياس أمور عرفها المسلمون منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم وقبل الاتصال بالفلسفة اليونانية .

ثالث عشر : أن السلف هم أول من رد على الجهمية ومذهبهم فى التعطيل وإنكار الصفات وفى القول بخلق القرآن فقد تصدى لذلك مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم وبينوا فساد ذلك كله وانحرافه عن مفهوم الكتاب والسنة ، وكانت مقالة الجهمية هى أول فتنة التأويل التى أدت إلى تعطيل النصوص والتجاوز بها عن معانيها التى وضعت لها لغة وشرعاً إلى معانى وآراء مدخولة تحملها الباطنية والغنوصية وغيرها من النحل التى كانت ترمى إلى هدم الشريعة وإضلال معتقدتها وبلبلة ما استقر فى قلوبهم وامتزج بنفوسهم من عقائد واضحة لا لبس فيها ولا شائبة من غموض .

وكان أبلغ من رد على هذه الفرق الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة وناصر الملة . رد على الجهمية والزنادقة الذين يشككون الناس فى القرآن ويأخذون آيات معينة مقطوعة عن سياقها وعن جملة القرآن ويدعون أنها

متناقضة مع آيات أخرى . والذين أخذوا بعض المتشابه من القرآن وضلوا به وأضلوا .

وقد اعتمد أحمد بن حنبل فى تفسير القرآن بالقرآن (على أصول اللغة العربية ومواضعاتها ، وعلى لسان العرب وقانونه فى مخاطبتهم ومحاورتهم ، تلك اللغة التى لم يكن هؤلاء الزنادقة على معرفة بها ولا على اطلاع على أسرارها إطلاع ابن حنبل عليها وعلى كل ما يتصل بها من مواصفات الشرع وألفاظه واستعمالاته . وأعلن ابن حنبل أن القرآن ليس قديماً ولا حادثاً وأنه كلام الله لا أقول مخلوقاً أو غير مخلوق .

رابع عشر : هاجم الإمام ابن حنبل فتنة تعطيل الصفات وتعطيل التكليف والشرع إزاء مؤامرة الجهمية فى القول : بأن الإنسان ليس له اختيار أو إرادة أو كسب وقد جعلوا الإنسان بمثابة جماد أو شجرة .

خامس عشر : قرار ابن تيمية أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا واعتقاداً واستدلالا إلا من القرآن والسنة المبينة له والسير فى مسارهما فما يقرره القرآن وتشرحه السنة مقبول لا يصح رده ورده خلع للشريعة فليس للعقل سلطان فى تأويل القرآن وتفسيره وتخريجه إلا بالقدر الذى تؤدى إليه العبارات . وإذا كان للعقل بعد ذلك سلطان فهو فى التصديق والإذعان وبيان تقريب المعقول من المنقول وعدم المنافرة بينهما . فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً ويكون مقرراً مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً . ويكون موضحاً لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة والعقل وراء النقل (أى الوحى) يعززه ويقويه ولا يستقل بالاستدلال بل يقوم على تقريب معانى النصوص .

سادس عشر : يقرر ابن تيمية أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء وأنه لا شىء فى الكون بغير إرادته وأنه لا ينازعه أحد من خلقه وأن الله فاعل حقيقة وله مشيئة وإرادة كاملة تجعله قادراً على ما يفعل وأن الله تعالى ييسر فعل الخير ويرضاه ويحبه ولا ييسر فعل الشر ولا يحبه وإن العبد يفعل ما يشاء بقدرته وإرادته : « **لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . .** »

سابع عشر : يقرر الشافعى أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره وإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها .

وأكدت الأدلة على كذب الادعاء بأن البلاغة العربية تأثرت بخطابة أرسطو وشعره فى نشأتها وتطورها ذلك أن العرب عرفوا البلاغة وفنونها قبل أن يترجم كتاب أرسطو وليس فى كتب البلاغة العربية ما يدل دلالة واضحة على هذا التأثر أو النقل الصريح . والدليل على ذلك فشل منهج قدامة فى نقد الشعر الذى اعتمد فيه على نهج أرسطو فقد أضفى عليه جفافاً لا يقبله الذوق العربى السليم ووضع حدوداً ورسوماً لا تلائم الشعر العربى .

ثامن عشر : كشف رجال الأصالة الإسلامية (السنة) أن النزعة العقلية التى دافع عنها المعتزلة كادت تخنق العقيدة وأنها حولتها من يسرها وبساطتها إلى مذهب فلسفى معقد بعيد عن روح الإسلام . وكانت أخطاء المعتزلة : إخضاع العقل للوحى . وإعلاء العقل على الوحى .

وكانت حجة أهل السنة أن العقل واحد فى الناس وأن أهل الكلام ليسوا على رأى واحد فى المسائل التى يبحثونها ، وعدم اتفاق المتكلمين دليل على عجز العقل وقصوره ، والعقل ليس حكماً فيما وراء الطبيعة ولا على ما جاء فى الشرع ، ذلك أن العقل عاجز عن إدراك ما وراء الحس وصاحب الشريعة الحق تبارك وتعالى أدرى بمصالح الناس من أنفسهم .

ويقول ابن تيمية : إذا كان للعقل سلطان فى التصديق والإذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما فالعقل يكون شاهداً ؛ ولا يكون حاكماً ويكون مقرراً مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً .

تاسع عشر : وصل كثير من مفكرى الإسلام إلى نفس النتيجة التى وصل إليها الغزالى ، حتى قال الرازى فى آخر أيامه : لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله تبارك وتعالى ويمنع من التعمق عن إبراز المعارضات والمناقضات وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية .

عشرون : قرر ابن تيمية أن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص وأن

السلفيين يؤمنون بالنص لأنه موحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة فى الإسلام ولم تكن معروفة قطعاً عن الصحابة والتابعين . فإذا قلنا : إنها ضرورية لفهم العقائد فمؤدي ذلك أن هؤلاء السلف ما كانوا يفهمون العقائد على وجهها وأن الطريق الصحيح أن تؤخذ العقيدة من القرآن وفق مفهومها فى عهد الصحابة والتابعين وأن يتقيد الناس بأدلة القرآن .

ولقد كان لهذا الفهم أثره الواضح فى استئصال الباطنية والشعوبية وتحطيم مفاهيمها والقضاء على المؤامرة وكان ذلك منطلقاً إلى ظهور حركة الجهاد الضخمة الواسعة التى حررت العالم الإسلامى من التتار والصليبيين وحطمت بقايا القلاع الباطنية وجيوب الحشاشين .

ولن تستطيع أن تفعل اليوم فى مواجهة المؤامرة المتجددة (الصهيونية الشيوعية الاستعمارية) إلا ما فعله المسلمون على النحو الذى قرره ابن تيمية والشافعى والأشعرى والغزالى فى إسقاط الهلينية والباطنية والشعوبية .

* * *

ثانيا : من التبعية إلى الأصالة

من سنن الفكر الإسلامى وقانونه القائم الذى لا يتحول ولا يتغير : قدرته على تصحيح مساره عندما ينحرف ، وانبعاث حركة اليقظة من داخله دون عامل خارجى ، وتوهج ضوء الأصالة فيه فيقضى على كل محاولات التزييف ، ففى حالة الأزمة التى تفرض فيها القوى الغازية (التبعية) لها ، تمكن الفكر الإسلامى من كسر هذا القيد والانطلاق بقوته الذاتية نحو المنابع خارجاً عن دائرة الأممية والاحتواء التى تفرض عليه .

وقد كان هذا جلياً فى أزمات الاعتزال والفلسفة والتصوف الفلسفى وفى العصر الحديث نجد هذه الصورة واضحة تماماً .

نجد المدرسة الحديثة التى حملت لواء الدعوة إلى الفكر البشرى ممثلا فى الفكر الغربى تنهزم حثيثاً وتنسحب من مواقعها فى فرض التبعية إلى معادلة جديدة بعد أن اكتشفت عجزها عن إخضاع الفكر الإسلامى لمؤامرة التغريب والغزو الثقافى وتعلن أنها كانت لا ترى أبعاد الأمور ، أو أنه قد غرر بها فى كلمات غريبة براقة كالحرية والإخاء والمساواة ، ولم تلبث الأيام أن أثبتت فساد ذلك وزيفه ، ومن ثم نرى هؤلاء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الفكر الغربى وإلى الفرعونية ، والباطنية والشعوبية والإقليمية : (هيكل ومنصور فهمى والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى مبارك وإسماعيل مظهر) يثوبون مرة أخرى إلى التراث الإسلامى يستلهمونه ويرون أنه وحده القادر على العطاء ، والمصدر الأصيل لمد الجسور بين القديم والجديد .

وبالرغم من خضوع هؤلاء الكتاب لمناهج التحليل الغربى وهى مناهج لا تصلح للتطبيق على الفكر الإسلامى والتراث الإسلامى ، وأصح منها تلك المناهج التى طبقها مصطفى صادق الرافعى وجاد المولى وحسن البنا والمودودى وأبو الحسن الندوى ، إلا أن هذا يؤكد صدق ذلك القانون الثابت الذى يحرر الفكر الإسلامى من أى إضافات غير أصيلة إليه مهما بلغ من

عنف التحدى ومهما حاول الاستعمار والتغريب (إغراق) الفكر الإسلامى فى دوامة عاصفة من هذه المذاهب والدعوات والنظريات . فإن الفكر الإسلامى و يتخلص منه .

وقد فشلت التجربة إزاء الفكر الغربى الليبرالى وتجاه الفكر الماركسى فبعد أكثر من عشرين عاماً من تجربة الاحتواء الماركسى ، وارتفاع مده حتى ظن أنه قد أغرق الفكر الإسلامى ، نجد لفيفاً من هؤلاء الذين كانوا يتصدون الدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ ونظريات الماركسية يعودون ليصححوا موقفهم ويلتمسوا مفهوم الإسلام .

وفى كلتا المرحلتين نجد أن الفكر الإسلامى هو الحاكم المسيطر والمصدر الأصيل الذى لا تجد مجتمعات المسلمين والعرب سبيلا غيره وقد مروا بالتجربة من ديموقراطية الغرب إلى ماركسية الشرق وتبين فشل التجربتين بحيث لم يعد أمام العرب والمسلمين إلا منهج واحد هو منهج الأصيل .

كذلك نجد أن المحاولات الجديدة التى قام بها طه حسين وأحمد أمين وعبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود وغيرهم فى نطاق المؤامرة على الإسلام بإحياء الفكر الوثنى والفلسفى والمعتزلى من ركام الفكر البشرى القديم هى محاولات فاشلة لن تحقق شيئاً ، وأن مفهوم الأصالة الإسلامية قادر على تحطيمها وكشف زيفها ، وكانت الإنجازات التى حققها العاملون فى حقل التراث الإسلامى والتى حمل لواءها مصطفى عبد الرازق وسار بها قدما النشار وزيان والبهى وغيرهم قد حطمت تلك المحاولة التى أرادت إعادة فرض مفهوم الفلسفة الإلهية والكلام على الفكر الإسلامى الحديث ، وكشفت عن أن الفكر اليونانى لم يكن سليم المصادر وأن اليونان احتقرت التجريب وأن المسلمين هم الذين قدموا المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة وأن المسلمين رفضوا منطق أرسطو منذ اليوم الأول وأن مفهوم العقلانية الذى قدمه المعتزلة لم يكن سليماً ولم يجد تقبلا من المسلمين لأنه يتعارض مع مفهوم الإسلام الذى قدمه القرآن الكريم والجامع للقلب وللعقل وعبرة التاريخ كأسلوب للمعرفة .

كما تبين أن الإسلام فصل تماماً بين مفهومه الأصيل القائم على التوحيد

وبين ركام الفكر البشرى القديم الذى يقوم على الوثنية والتعدد والمادية والإباحية .

ولم يعد فى الإمكان إعادة الربط بين هذا الركام القديم وبين المفهوم الأصيل . كذلك فقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية عن محاذير الإسرائيليات القديمة والجديدة التى تسربت إلى التفسير وإلى التاريخ عن طريق بعض الأساطير والخرافات ، والمسلمون الذين يملكون النص الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يجدون المنطلق الصحيح لفكرهم ، فإنهم يعودون إليه يلتمسون الطريق المستقيم كلما أزمتهم الأزمات أو أحاطت بهم المؤامرات .

كذلك كشفت حركة اليقظة الإسلامية فساد الفكر الغنوصى والهلينى على السواء، ومادسته حركة التغريب على تاريخ العرب والإسلام من سموم، يراد بها إعادة إثارة الخلافات القديمة التى انتهت من قديم ولم يعدلها مكان .

وتبين أن محاولة الحديث عن المعتزلة وفكرهم أو الفلاسفة ودعواهم أو التصوف الفلسفى وقضاياه منفصلا عن سياقه التاريخى هو من المؤامرات التى يراد بها رسم صورة زائفة لمنطلق الفكر الإسلامى . ذلك أن هذه الفرق قد ظهرت إبان المحاولة التى فرضتها حركة الترجمة ، وإن كل هذه الفرق قد انصهرت فى مفهوم الإسلام الجامع ، فقد استصفاها الفكر الإسلامى وقبل عناصر القوة والحيوية منها فيما يتفق مع مفهوم التوحيد ورفض الباقى وكشف زيفه .

وقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية اليوم زيف كل محاولات فرض الأساطير أو الوثنيات أو ما يتصل بما يسمونه أحكام النجوم الذى كان يعزى إلى اليونان والبابليين وأبانوا رأى الإسلام الذى أبطل صناعة التنجيم وكشف فسادها .

وزيف المفكرون المسلمون الدعوة إلى إحياء وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من الوثنيات القديمة مجددة فى ابن عربى وابن الفارض والحلاج ، وكشفوا فساد وجهة هذه الشخصيات وتحالفها مع خصوم الإسلام لهدم الدعوة والأصالة .

وقد تبين من وراء المؤامرة على الإسلام ممثلة فى إحياء الفكر الباطنى والصهيونى والفلسفى والمعتزلى محاولة جديدة لإذابة الإسلام فى الأديان والقضاء على ذاتية الإسلام ونفوذه وطابعه الخاص الذى تميز به بوصفه آخر رسالات السماء ، وما تحقق له من امتلاك كتابه الموثق وسنته الصحيحة مما لا يملكه غيره .

كذلك فقد كان الدفاع عن الفكر الباطنى هو محاولة لإسقاط الحدود الإسلامية والالتزام الأخلاقى وما يتصل بها من المسئولية الفردية والجزاء الأخروى لفتح الطريق أمام الأجيال للأهواء والشهوات .

وما تزال المعركة بين الذين يفرضون المؤامرة على الإسلام ، وبين حركة اليقظة قائمة وممتدة ، ذلك لأن أهل الباطل لا يستسلمون من قريب ، وعلى المثقفين المسلمين أن يكونوا على يقظة دائمة إزاء هذه المؤامرة المستمرة ، وليس هناك من سبيل إلى المقاومة إلا بالتماس مفهوم القرآن والتمسك به والكشف عن صفاء التعالم الإسلامية فى بساطتها ويسرها وقرآنيتها الأصيلة بعيدة عن الشروح والخلافات المذهبية التى تفسدها ، فعلى الجماعة الإسلامية أن تعود إلى وحدة الفكر التى يحققها لها القرآن الكريم ، ولا ريب أن فكرة التماس المنابع الأصيلة هى الأهداف التى تعمل حركة التغريب والغزو الثقافى لصرف المسلمين عنها إلى تلك الخلافات والمشابهات . وقد دعانا القرآن إلى التمسك بالآيات المحكمات .

* * *

المـــــــراجـــــع

١ ــ الإمام الغزالى : فضائح الباطنية .

٢ ــ الإمام الشافعى : كتاب الأم .

٣ ــ الإمام ابن تيمية : الرد على المنطقيين .

٤ ــ الإمام أبو الحسن الأشعرى : مقالات الإسلاميين .

٥ ــ الإمام ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل .

٦ ــ ابن الجوزى : تلبيس إبليس .

٧ ــ الشهرستانى : الملل والنحل .

٨ ــ أبو الحسن الندوى : رجال الدعوة والفكر .

٩ ــ الحسن بن عثمان الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندى .

١٠ ــ مصطفى عبد الرازق : مقدمة فى الفلسفة الإسلامية .

١١ ــ مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين .

١٢ ــ الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام .

١٣ ــ الدكتور محمود قاسم : الحلاج والباطنية .

١٤ ــ أنور الجندى : القيم الأساسية للفكر الإسلامى .

١٥ ــ أنور الجندى : المساجلات والمعارك الأدبية .

١٦ ــ أنور الجندى : الشبهات والأخطاء الشائعة .

فهرس الكتاب

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

* * *



رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٧/٣٣٢٥

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ نشاطى - شبرا مصر